

محمد المنصور الشقحاء

فرشاة إله الدرع

قصص قصيرة

دار البنتمة
للطباعة والنشر

فرشاة إله الدرعد

محمد المنصور الشقحاء



اسم الكتاب: فرشاة إله الرعد

اسم الكاتب: محمد المنصور الشقحاء

نوع العمل: قصص

عدد الصفحات: 384

الرقم الدولي EBIN: 16-141-01-210815

الناشر: دار بسمة للنشر الإلكتروني

الطبعة الأولى: 2021م / 1442هـ



دار بسمة للنشر الإلكتروني



00212771814934



دار بسمة للنشر الإلكتروني (المغرب)



basma24design@gmail.com



الهلكتة المغربية

محفوظة
جميع الحقوق

دار بسمة للنشر الإلكتروني تُقدم جميع خدمات النشر، ولا تتحمل أي مسؤولية تجاه المحتوى، إذ إن الكاتب وحده هو المسؤول عن نتاج فكره.. كما لا يجوز بأي صورة نشر أو إعادة طبع أي جزء من هذا الكتاب أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله على أي نحو كان، أو بأي طريقة سواء كانت إلكترونية أو بالتصوير أو خلاف ذلك، إلا بموافقة خطية من الناشر. ©

فرشاة إلى الدرعد

قصص قصيرة

محمد المنصور الشقحاء



فبب الباء

بضم هذا الإصدار قصص:

- 1 - مجموعة (فرشاة إله الرعد) الطبعة الورقية / دار النابعة للنشر والتوزيع 1435 - 2014 الإسكندرية.
- 2 - مجموعة (الفناء شعور لا يعرف) الطبعة الورقية / دار النابعة للنشر والتوزيع 1435 - 2014 الإسكندرية.
- 3 - مجموعة (النسخة الأولى) الطبعة الورقية / نادي الطائف الأءبى 1432 - 2011 الطائف.
- 4 - مجموعة (تءاعبات أنى تصالحت مع جسءها) الطبعة الورقية / نادي مكة الثقافى الأءبى 1436 - 2015 مكة المكرمة.
- 5 - مجموعة (ءءء فى ءبى الشرقىة) الطبعة الورقية / مؤسسه ءبما مصر وءروب القصة القصىرة ءءا فى المءءبر بالفىسبوك 1437 - 2016 الإسكندرية.
- 6 - مجموعة (أبها السرمءبى لا ءقاوم الصءراء) الطبعة الورقية / الناءبى الأءبى الثقافى فى ءائل 1438 - 2016 ءائل.



الخرثاء

منذ عشر سنوات أقام والدي حفل عشاء بمناسبة اجتيازي الثانوية العامة، حضرها بعض الجيران وزملاء والدي في العمل وأقاربنا في تلك الليلة.

قال جارنا أبو ضيدان: أنصحك يا أبو محمد تسجل محمد في الجامعة بالرياض، منها ترتاح من سفرك كل نهاية شهر بأمر محمد لمواصلة علاجها في المستشفى التخصصي، وفيها يواصل محمد الدراسة في التخصص الذي يرغب وانصحته بقسم اللغة الإنجليزية.

بعد تردد وممانعة والدي سافرنا بالرياض (كل العائلة) لتأثيث السكن الذي أمنه لنا أبو ضيدان؛ أخذ والدي إجازة لمدة شهر من العمل حتى يرضي أمي ويعرف أخواتي وأخواني معالم مدينة الرياض والتعرف على الطرق والأسواق والعيادة التي تواصل أمي فحوصاتها فيها منذ شهور خمسة.

السكن دور أول في منزل تملكه أبو ضيدان عند ما كان يعمل في الرياض، يسكن الدور الأرضي أخوان من جماعته، الأول جندي في المرور والثاني موظف مدني، عندما وصلنا كان الدور الأرضي مزدحماً حيث أنجبت زوج العسكري مولودها الثاني، والموظف فرح بتعيين زوجته الجامعية معلمة في مدينته عرعر بالشمال ويخطط للنقل حتى يبقى بجوارها.

رحل الجميع وبقي العسكري وزوجته ووالدته حتى ترعى المرأة النفاس، شجار المرأتين يصلنا بسبب التنافر، فكانت والدي تتدخل، انتهت إجازة أبي وبقيت أمي ترتب أمور في الشهر الأول جامعة، ولما انتهى فحصها الدوري سافرت.

تعددت اهتمام جاري ورعاية والدته حتى أخبرني أنها سافرت لديرتهم، السكن عم العمارة لولا صراخ الوليد ونداء الخادمة على الابن الأول ذي السنوات الخمس، الذي يغافل الجميع ويخرج للشارع أو يصعد لسطح المبنى بعد فتح الباب الذي يفصل الدورين.

أمضيت إجازة الفصل الدراسي الأول مع أسرتي، وكانت عودتي مع موعد جديد للمستشفى، رحب جارنا بي، كانت والدته عنده وشقيقه وباقي أسرته، تجمع النساء حول والدتي ومددت جلوسها لأسبوع.

مع سفر والدتي عاد السكن للمنزل، وذات ليلة وأنا أمام التلفزيون في صالة الجلوس أتابع مباراة في كرة القدم وأوراق الجامعة متناثرة حولي في صخب وعبث، سمعت وقع ركض على السقف وأصوات مبهمة ولغط في الدرج الذي يطل عليه المدخل، ترددت في اكتشاف الأمر وعاد السكن الذي لم يلبث أكثر من دقائق ليتجدد الركض.

فتحت باب المدخل استطلع كانت الخادمة تحمل الطفل وهو يتفلت منها، ولما اختفت تحت امرأة ممتلئة بيضاء هابطة بشعرها الأسود المنفوش وثوبها المنزلي القصير حتى الركبة، المفتوح من الجانبين، تسمرت في مكاني، تريثت قليلا ثم واصلت نزولها ووقفت قبالي:

. آسفين على الإزعاج. . !

.

. الولد الشقي يتعبنا في غياب والده.

. الله يهديه.

. كيف الوالدة؟

. بخير والله الحمد.

لما تركتني دققت في جسمها وثوبها الضيق وتهزهر وركها، التفتت وقد زرعت على وجهها بسمه خفيفة.

قالت: أكيد ما تعشيت؟

قلت: انشغلت بالذاكرة. .

لا أدري هل سمعتني؟ ولكن لم أسمع مزلاج الباب الفاصل يغلق، أغلقت الباب وعدت لمكاني وفي أعماقي خيالات غريبة، معها أتابع أحداث المباراة، سمعت الباب ينقر كانت هي دخلت وبين يديها صحن به قطع جبنة وزيتون وعلبه لبن وقرص خبز، أربكتها أوراقتي وكتبي المتناثرة، انحنى لوضع ما تحمل على الأرض؛ شعرت أنها تفحصني.

قالت: هذا من عشاننا ..المعذرة.

قلت: فيه البركة . . شاركيني الأكل.

ترددت وجلست على الأرض تلملم أوراقتي وكتبي، ثم نهضت لحقت بها قبلت رأسها وأنا أغمغم بكلمات امتنان أسري اعتدته، فتحت الباب واختفت.

شعرت بالخوف فهجرت الشقة مع ثلاثة من طلاب قسمي بدعوى إكمال بحث كلفنا به أحد الأساتذة، ولما عدت كانت أوراقتي متناثرة وفراشي مبعثر وأدوات المطبخ في غير مكانها، قامت والدتي التي جاءت مراجعتها سببا في العودة للسكن بترتيب كل شيء.

الدور الأرضي ساكن لم يكن هناك أحد، وعرفت من صاحب مكتب العقار الذي أقابله في خروجي ودخولي للحى أن جاري مسافر لقريته في الشمال ليحضر عرس إحدى أخواته، لم تبق والدتي سوى أيامها الثلاثة.

في اليوم السابع عاد الضجيج للدور الأرضي، غادرت متلصصا للجامعة وبقيت حتى العاشرة ليلا مع الأصدقاء، ولما عدت وجدت طبق الجبن والزيتون وقبينة اللبن وقرص الخبز تحت غطاء من القماش شفاف بألوان متباينة أمام المدخل.

في اليوم الثاني عدت مع الظهيرة وتمددت في الفراش، سمعت باب المدخل يقرع نهضت متناقلا كانت هي.

قالت: عسى خير!! هل أنت مريض؟

قلت: تعب الدراسة.

قالت: يهون عند التخرج . . كيف صحة الوالدة؟

لم تدخل شدة على كفي ونزلت، سمعت مزلاج الباب الفاصل يقفل، قمت بزيارة مركز خدمات الطلاب لتصوير بعض الملخصات، أشعلت التلفزيون وأوقدت الموقد لصنع كوب من الشاي، ولما كانت الحادية عشرة ليلاً نقر خافت على الباب كانت هي، عرفت إن زوجها في العمل وابنها وابنتها في فراشهم والخدمة في غرفتهما.

ترتدي ثوب نوم شفاف يصل إلى ركبتيها وعليه دثار من ذات اللون من الحرير السميك، صدرها نافر وشعر رأسها مرجل ومربوط بمنديل بلون ملابسها، لم تهتم بأوراقها وكتبي، دفنت رأسي في صدرها كانت تبحث عن شيء في جسدي ورغبة وحيدة هي أن تتخلص من هذا الهوس الذي حمل صوتها وقلبها سخرية حاقدة من شيء معقد، كانت تتصبب عرقاً وقد خيل لها إنها تقف فوق هوة ساحقة سوف تبتلعها. تصاعد في داخلي حق الجيرة الطيبة والمذمومة لم تكن تسعى لإرضاء الغير بل تسعى إلى لذة الإرضاء التمتع عينها من شدة السرور؛ وأنفاسي تلهب عنقها ولساني يدغدغ شحمة أذنها سكن روعها فأخذت تضحك.

قالت: تصدق منيف لم يكتشف أعماقي وهو يسوقني صوب هذه المغامرة غير المعقولة

قلت: واليوم. !.

قالت: أنت اقتحمت اللجة . . كنت مندهشة وأنا أسمع بعض سؤايف معارفنا، كنت أموت ببطء

قلت: وليه خايفه. المغامرة تمنحنا وهم بدء جديد

قالت: شعور لم أجد له تفسيراً أنا في الفردوس ولا شيء أكثر

قلت: اسمعي قصصهم واحك لي.

قالت: يا خبيث . . لن نفلت من اللحظة بالنسيان.

قلت: أتخيل في الفجر أني أسمع دمدمة.

قالت: مسكين منيف يشعري بوجوده. . على نيته.

وانشغلت مع زملاء القسم في برامج ورحلات تنبهت معها أني بحاجة لعبث جازي، التي لم تهتم بحضوري ولكن من ضجيج الدور الأرضي عرفت أن هناك زواراً في اليوم الثالث وأنا عائد من الجامعة بعد الظهر وجدتها في فتحة الباب الفاصل بينطال جينز أزرق وبلوزة ألوانها متداخلة زرعت إصبعها على أنفها تأمري بعدم التكلم، واصلت طريقي تركت الباب مواربا وجلست أترقبها على أحد مقاعد غرفة الضيوف.

هلت رائحتها انحت علي تقبلي عضضت شفيتها وأنا أمرر كفي على ظهرها ومؤخرتها، تبادلنا بضع كلمات، اعتقدت أنها مجنونة. بعد لحظات صمت (قالت هامسة: الموت يخضعني لأنشد القوت في الظلال والخطايا) وارتفع صوت امرأة يناديها مع تصفيق متكرر.

قالت: إنها أختي الهنوف.

قلت: تعرف أنك هنا؟

قالت: نعم وتعلم كل شيء!

تركنتي قلقتا ومن الإرهاق نمت حتى خيم الظلام وجاء صوت أحد الزملاء عبر الهاتف يدعوني لمناقشة مخططات بحثنا الجديد، عند الباب وأنا أركب سيارتي شد انتباهي وجود عربية (فان) حديثة موديلها فاخر عند باب جاري وعدد من النساء والأطفال، لخي جاري فلوح بكفه، تأخرت في التحرك أبحث عن شقيقة جازي بين العباءات السوداء وكشاف عامود النور يملأ الشارع ضياء.

في نهاية العام الثاني قال جازي الذي يزورني مطمئنا على فحوصات والدي: إن أخته التي حصلت على الثانوية العام السابق؛ توسط لها أبو ضيدان حتى تدخل الجامعة، وقطع حديثنا دخول والدي يحمل صحن أبريق الشاي، فقد توافق تكليفه بمراجعة الوزارة لإكمال أوامر صرف مخصصات بعض الموظفين في دائرته بالطائف، معها رافق أمني لموعدها، وفي المساء كنا نتناول العشاء في الدور الأرضي مع بعض الجيران عرفت منهم عدل جازي، أحد كبار تجار الأراضي، روج أثناء الحوار لمخطط أراضي جديد في شرق الرياض ينتظر الموافقة على بيعه خلال أشهر، وتعهد لوالدي بحصوله على سعر طيب إذا اشترى إحدى قطع المخطط .

في الصباح أوصلت والدي ووالدتي للمطار وأكملت باقي يومي الجامعي مع عميد القسم لمراجعة جدول اختبارات الفصل الثاني، ولما بدأت إجازة نهاية العام الدراسي لحقت بأسرتي وسافرنا للقاهرة.

في العام الدراسي الثالث جاءت أخت جاري التي التحقت بالقسم الذي أدرسه فكان علي أن أحذر من تقربها وجارتي تملأ حياتي بما تملك من السحر.

وذات مساء كان جاري وشقيقته يقفان أمام باب مركز خدمات الطلاب الذي أصور عنده أوراقى الجامعية، لخي وأنا خارج فناداني حتى يعرف كيف يحصل على طلبات أخته، كانت نظراتها تتجاوز زجاج نافذة السيارة متدثرة بعباءتها ونقابها الذي من فتحيته الواسعتين تتحرك حدقاتها، دخلت معه للبحث عن طلباته وارتبكنا في معرفة اسم الدكتور الذي تبحث عن ملخصات مذكراته ودفعني لسؤالها، لما لحتني أقرب رفعت النقاب كاشفة وجهها ابتسمت وهي تمد كفها بورقة دونت فيها طلباتها.

قالت جاري: شفت نوير؟

قلت: من . . !

قالت: نوره أخت منيف.

قلت: نعم.

قالت: جاءها خطيب وسوف تتزوج.

قلت: ودراستها.

قالت: أختي تبغي تشوفك.

قلت: ليه . . !

قالت: حتى تشوف أني صادقة أنك تدمرني.

قلت: أدمرك.

قالت: وزني نقص وحاالي تبذل.

قلت: شكلك مثير ورطب.

قالت: فعالك خلتنى باردة.

كانت تمنحنى شينا جديدا، ونبرة صوتها تخبرني بأنها غير طبيعية وفي داخلها قلق.

قالت: أنا حامل.

قلت: مبارك.

أرتبك حمل جارتي فدخلت المستشفى، وهنا سنحت الفرصة لنورة عبر شقيقها من خلال طلب بعض الأبحاث والمراجع، اعتدت سماع غناء نوره ولقاءها أمام الباب، وعند مركز خدمات الطلاب، ولم أتوقع تسللها ذات ليلة.

قالت: أذكر حين تعرفت إلي كنت قلقا بغيضا.

قلت: ماذا تريدان؟ سيكون الوضع مخزيا.

قالت: أريدك . . كلهم مشغولون بهمومهم.

قلت: زواجك في الصيف.

قالت: أتسلى حتى ذاك الوقت هي فرصة لن تفسد شيئا.

أمسكت يدي بحركة عفوية. وذلك الملع الذي وسم اللحظة، أحيا في قلبها كلمات اختنقت في حنجرتها والرغبة الداكنة تلمع في عينيها.

جاء صوت الهنوف زوجة العقاري الكبير تخبرني أن جارتي سافرت للقريبة عند أمها حتى ينتهي حملها بسلام، شعرت بجزي وأنا أخبرها تخرجي من الجامعة وتوسط أبو ضيدان لي ببعثة لمدة عامين في المجال الأمني حتى التحق بالشرطة؛ هنا دعتنى لزيارتها.

قالت: السائق بعد أذان المغرب يكون في انتظارك عند الباب.

قلت: ولم لا تأتين. . !

قالت: زوجي مسافر.

كان القصر يخيم عليه السكون، قادتني الخادمة مرتبكا لغرفة الضيوف فتح باب داخلي كانت تشبه أختها بيضاء ورشيقة، صافحتني ثم جلست في الكرسي المقابل جاءت الخادمة بدلة القهوة بعد الفنجان الأول قامت واختفت دقائق .

قالت: هذه هديه من أختي طقم أقلام مذهبة.

قلت: يكفيني سلامتها.

قالت: أمانة حملتني بمناسبة التخرج.

خادمة أخرى هلت بكأس من عصير الفواكه. لما انتهيت من شربه غادرت الغرفة؛ جاءت الخادمة الأولى تخبرني أن السائق ينتظري.

لما عدت من بعثتي كانت أمي قد اختارت عروسي إحدى بنات أبو ضيدان الذي لم يرزق بولد ذكر، وجاء عملي في مدينة جدة ومع انتهاء العام الرابع جرى نقلي للرياض في قسم بالإدارة العامة توفر معه السكن الحكومي، بعد شهر ونحن في المستشفى نكمل الفحص الشهري لزوجتي الحامل في شهرها الثامن.

قالت: بنت خالة أبوي عزميني على القهوة.

قلت: لأبو ضيدان أقارب في الرياض؟

قالت: طيبة في مستشفى الشميسي.

قلت: تعرفينها؟

قالت: أول مرة أقابلها. . . كانت في الكويت.

قلت: متزوجة؟

قالت: نعم زوجها اسمه بجاد من جماعتنا تقول إنه يعرفك.

ولما وصلنا دار الدعوة كان في استقبالنا جاري منيف حافي القدمين وأكبر سناً؛ لم يعرفني لاحقته زوجتي بنظرها برهة؛ أقسم على أن أدخل لشرب فنجان قهوة وأنا أتساءل إن كان فقد الذاكرة.



إذا كنت

بعد عام على رحيلها جاء من غربته في زيارة عمل كان صوته قلقا وهو يسأل عنها، أعرف أنها نشطة في مجال عملها الرسمي كمعلمة ومشرفة تربوية ثم مديرة مدرسة وعملها التطوعي في المجال الاجتماعي كعضو في جمعية نسائية أهلية.

هي ابنة عمي وكذلك ابنة خالتي، جاء زواجنا وأنا أستعد لبعثة دراسية في أمريكا استمرت عشر سنوات، أنا حصلت على الدكتوراه وهي على عدة دبلومات في مجالات مختلفة، معها كانت تشارك في نشاطات اجتماعية وسياسية قربتها من حزب صغير في الولاية التي ندرس في عاصمتها يدافع عن حقوق المشردين .

لما عدنا كان معنا ابني راشد بسنواته الثمان، هي وجدت في مجال التعليم طموحها وأنا من خلال رئاسة مجلس إدارة شركة مالية ناشئة ساهمت بها أسرتي الميسورة بنصيب وافر من الأسهم في رأس المال حتى أطبق نظريتي الاقتصادية.

قال: بعد أن جلس في المقعد المقابل لمكتبي . الأمر يحتاج إلى وعي !

قلت: سوف أفهم الأمر بعد سماعه.

قال: كل شيء في الملف.

قلت: وأنا أتناول منه الملف . . نشرب القهوة ونتناقش . .

قال: حضوري كان لموعد سابق . . معي مرافقون مرتبطون بتحركنا ببرنامج عمل.

تركت الملف وأوصلته لباب المكتب دفعني الفضول لتابعته وهو ينزل الدرج للدور الأرضي حيث مقاعد انتظار المراجعين، لمحت رجلين وامرأة سحناتهم أوروبية، اتجه نحوهم وغادر الجميع المبني.

عدت للمكتب، أحضر السكرتير ملف البريد، مد يده لحمل الملف الذي تركه الرجل، شيء في داخلي دفعني إلى سحبه منه.

قلت: سوف أطلع عليه وأضمه للبريد.

طلبت منه تركي ساعة لدراسة البريد كما هي عادتي وتحويل المكالمات للمساعدين.

كانت صورتها أول شيء صافحني ثم ورقة عقد زواج مدني موثق يحمل اسمها واسم غير اسمي، تذكرت أنه اسم الرجل الذي كان قبل دقائق أمامي، وفي الملف صورة لها معه في مطعم وأخرى في مؤتمر، من التي تدعى لها كمشارك، تاريخ العقد يعود لسنوات خمس قبل موتها اثر وعكة حمى لم يتم تشخيصها بدقة، كانت ضمن وفد تعليمي ثقافي لباريس تعرفت عليه كمترجم ومرافق وبالتالي أصبحت باريس محطة لرحلاتنا، فيها كانت تقضي وقتها مع زوجها الثاني بينما أنا في انشغال بمهامي وفق جدول اعددنا ه مسبقا لمثل هذه الرحلات اكتسبناه من خلال رحلة الدراسة .

من الورقة الثانية عرفت إن ابننا رامي جاء بعد زواجها وكذلك ابنتنا رانية، العرق تصيب مني وأنفاسي تتقطع، الورقة الثالثة صورة عقد شراء شقة في باريس باسمها فيها توثيق قانوني بتنازلها عنها لزوجها كمهر مقدم منها له.

لم أوصل تقليب باقي الأوراق وبرز طرف صورة لها معه يطوقها بذراعه في مدرج أحد ملاعب كرة المضرب، أعدت ترتيب الأوراق ودسستها في خزانة المكتب.

في المنزل ونحن على طاولة الغداء راشد ورامي ورانية والخدمة تقدم لنا الأطباق التي أعدها الطباخ أخذت أحرق في أطفالى الثلاثة، راشد في منتصف سنته الرابعة عشرة ورامي ذو السنوات الخمس ورانية ذات السنوات الأربع وهاجس يقول هل هم أبنائي؟ قطع هواجسي رنين الهاتف كان أخي يذكرني بلقاء اخر الشهر الأسري في استراحة العائلة بطريق الثمامة .

في غرفة النوم أعدت تفتيش خزانة الملابس وخزانة المستندات وأدراج التسريحة وباقي الخزان في الغرفة كل شيء عادي، أوراقها ومذكراتها ولقيف من الرسائل الرسمية والخاصة ووثائقها الرسمية وشهاداتها العلمية حتى سندات الأسهم وحسابها البنكي الذي لم أقربه حتى اليوم .

اتصلت بالرجل الذي خلق قلقي فكان هاتفه مغلق فاتصلت بمن أعرف في باريس للبحث عنه تأخرت المعلومات طلبت من صديقي زيارة الشقة التي كانت تملكها، وجد بها ساكنا جديداً قام بشرائها منذ أشهر.

قال راشد: بعد ثلاثة أشهر. . أحدهم اتصل يسأل عنها . .

قلت: قال اسمه.

قال: نعم لكن نسيت والذي عرفت انه يتكلم من القاهرة.

قلت: تكرر اتصاله

قال: نعم وتذكرت أنه ذات مرة استقبلنا في المطار

تخالط الأمر هاهي رانية تدخل في الصورة، كنا كل سنة نقضي جزء من الصيف في القاهرة، ولنا شقه تملكه فارهة وسيارة، وبعض من عمال المؤسسة من مصر ولنا مكتب اتصال يسهل تعاملاتنا المالية .

قررت السفر للقاهرة وهناك رحب بي بواب العمارة وجاءت زوجته لخدمتي كل شيء في مكانه أخذت ألقب الخزائن ورفوف الغرف حيث أجد بعض صورنا وكتب كانت تفتنيتها تنمي منا شطها الاجتماعية والتربوية وتثقفها سياسيا، كنت أتعجب من نهمها القرائي وقدرتها على العمل .

نمت من إرهاق أيام ثلاثة من البحث كل ما أعرف أن اسم الرجل صالح، انه اسمي لكن أنا صالح عبد الرحمن وهي سامية عبد الخالق فهل هو صالح عبد العزيز بعد وصولي لهذه النقطة المأزق.

زرت المكتب وطلبت من مديره الحجز لي على رحلة الرياض كما هي عادتي وسريعا، بعد التأكد من السفر خلال أربع وعشرين ساعة أنجزت بعض المهام واتصلت بأطفالي أخبرهم بعودتي .

وأنا أترجل من عربة المكتب وقف بواب العمارة ولوح بيده لسيارة تحركت مغادره لم يتبته قائدها فاخفتت في الزحام سلمني البواب مغلفا مغلقاً قال إن أحدهم أحضره .

عند باب المصعد تذكرت أنها تتحدث كثيرا عن وهم تفوق الرجل في الشأن والقيمة وفق عقدة نقص مستحكمة تتجاوز البعد الديني وهاجس حقوق الإنسان ودور المجتمع المدني الذي صيغ حراكه بثقافة وفكر

تعكس الخصوصية المدمرة في مواجهة الآخر وفق أسئلة شتى تصل بنا في النهاية إلى عجزنا عن اكتشاف السر.

في المصعد تماكنت هدوئي ومعني فتاتان ورجل عجوز يشاركوني الدور، أغلقت باب الشقة بالمفتاح، فتحت المغلف كانت صورتها وكفها تمسك بكف آخر في صورة للذكرى، نعم كان صالح عبد العزيز مغتربا فضل القاهرة بعد رحلة دراسية تكلفت بالنجاح، فاحتضنته الجامعة بصفة مؤقتة ولميوله الأدبية وثافت دور النشر على كتاباته الأدبية والفكرية سرقه الوقت، ولما التقى بها منذ سنوات ثلاث في ندوة فكرية اختلطت فيها المواقف تزوجته مع معرفته بأنها متزوجة ومستواها الاجتماعي أفضل من مكانته الأدبية؛ قضت أسبوعا من العسل في الإسكندرية تركت راشد ورامي عند والدته المتزوجة من موظف في السفارة .

لم تترك له شيئا إذ لم تتمكن من شراء شقة ولكن كانت تساهم في إعادة طبع بعض مؤلفاته. عقد الزواج بخط قلمها ذي المداد الأخضر وكتابتها التي أعرف، غير موثق وتاريخه بعد ولادة رانية بسنة، شيء من الارتياح دغدغي وأنا أقلب الأوراق التي لم تكن أكثر من أربع ورقات وثلاث صور، قررت حرقها دخلت المطبخ وأشعلت فيها النار؛ تنبعت على الهاتف كان مدير المكتب يطلب مني الاستعداد للسفر.

في الذكرى الثامنة لوفاتها وأنا أزور راشد الذي يدرس في لندن تذكرت أنها كانت تزور المكتبات وتتركني أتجول وحيدا وملتقي في مطعم وجدنا فيه حاجتنا؛ راشد يشارك زملاءه حفاوتهم بتخرج أحدهم.

لاحظت المكتبات أمامي وأنا أتجاوز المطعم المعتاد، لم أشعر بالتعب، دخلت المكتبة الأولى والثانية والثالثة وفي الرابعة صافحني اسمها سامية عبد الخالق على كتاب من القطع الصغير يحمل عنوان (إذا كنت) ترددت في اقتنائه.

قال البائع: إنها الطبعة الثانية للرواية.

قلت: تعرف المؤلف؟

قال البائع: وصلتنا المسودة بالبريد . . . وبعد صدور الطبعة الأولى انتقلت لرحمة الله.

قلت: ومن سمح بالطبعة الثانية.

قال البائع: زوجها.

اقتنيت نسخه من الرواية على الغلاف الأخير كتب الناشر (المؤلفة حسناء تجلس على منصة، تقاتل في سبيل وجودها، أنطقت بطلة الرواية لتقول ما تريد في ظروف عامة ضد الظلام، عبر مجتمع هي شكلته، حتى تبحث من خلاله حرية التعبير وحق المشاركة؛ في حراك محكوم بالتبعية والمنفعة بين أطراف تتشج بالمسكوت عنه وتشكل وفق منطق مختلف جوهره الخصوصية) دسستها في جيب المعطف، دخلت المطعم لم يتغير شيء وان تبدل العمال انحت النادلة تسألني عن طلباتي ملاحها العربية دفعتني إلى الرد بالعربية ابتسمت وهي تقدم الطلب حركت الكتاب ثم حملته .

همست النادلة: (إذا كنت) عنوانا غريبا . .

غمغمت: وأنا اسحب الكتاب منها وادسسه بقلق مرة ثانية في جيب المعطف . . نعم . . نعم ناولتها قيمة الطلب ونهضت .



البيعة

قالت: كنت أقوم بشراء مثلجات للجميع غير أن البائع وهو يتناول ورقة الخمسمائة ريال اعتذر عن عدم وجود الباقي وطلب مني التريث؛ وجاء قام بشراء قنينة ماء فشعرت بالارتباك وصرخت بالبائع أستعجله، تدخل ودفع عني قيمة المثلجات وقال مبتسما هذا رقم هاتفي إذا رغبت بالتسديد تلاقت كفه بكفي في مصافحة عفوية فسرى في بدني تيار كهربائي.

قال: كانت جميلة جدا وصامته لم تنبس بكلمة، تابعتها بنظري وهي تتبعد بين خطوة وأخرى تلتفت، جلست على أحد المقاعد حتى اختفت بين مرتادي مدينة الألعاب.

قالت: دسست الرقم بين ثنايا محفظة النقود وأنا أتحرك باحثة عن مرافقائي؛ رن الهاتف كانت أختي تسألني عن الرجل الذي كان يقف بجواري عند دكان المثلجات، ولما تجمعنا في السيارة عائدات للمنزل نسيت كل شغبنا.

قال: سافرت في رحلة عمل خارج البلاد ولما عدت تعرضت لوعكة حمى دخلت بسببها المستشفى لأكثر من شهر تجاوزت عندها الخطر وتحديث الموت.

قالت: جاء صوته الذي أعرف لم ينس مقدار المبلغ الذي أقرضني إياه عرفت أنه كان يمر بحالة فساد المزاج وتغير في الصحة.

قال: تكرر تحادثنا لم أخبئ عنها شيئا من حياتي الوهمية كنت أحسبها في أحد أحياء مدينة الرياض.

قالت: بعد عام من المحادثات الهاتفية عرف إني أقيم في مدينة الظهران.

قال: شعرت بأنها لا تمنع في لقائي فحددت موعدا في مطعم فندق أعرفه يطل على البحر يرتاده رجال الأعمال والأجانب، انطلقت بسيارتي قبل الموعد.

قالت: لما دخلت مطعم الفندق وجدته كما تخلق في أعماقي قام مرحبا بمقدمي تبادلنا الحديث وبعد شرب فنجان القهوة تركته.

قال: تكرر لقاؤنا في مدن مختلفة استطعت أن أقرب أكثر، لامست الفرح الساكن في أعماقها.

قالت: بداخله وهج مؤثر وشفاف، حرك حواسي الخمس فشعرت بالأمان.

قال جاء هاتفها: إنها في الرياض فركضت أبحث عنها كانت تنتظري لأشاركها جولة في أحد الأسواق؛ انفصلت عن مرافقاتها، جلسنا في ركن القهوة نتحدث ونراقب المرتادين.

قالت: في اليوم الثاني دعاني لشرب كاس من عصير الفاكهة في منزله.

قال: عندما اقتربت من منزلي طلبت منها الاختفاء في المقعد حتى نقف، أدخلت السيارة الفناء.

قالت: كان منزله فاخرا ولم يكن هناك أحد، عرفت أنه يقيم وحيدا وأنه منح الخدم إجازة.

قال: قدمت لها كاس خمر فاخر معتق بعصير فاكهة المنقى اعتدته لم يعجبها المذاق غير أنني رشفت كأسها فقلدتني متجرعة ما تبقى في كاسي.

قالت: كان التلفزيون مفتوحا على قناة أغان غربية راقصة مع الحديث والشرب أخذت أتمایل نشوى طلب مرافقتي.

قال: جلست عند قدمها ينام رأسي على ركبتيها ونحن نتحدث.

قالت: امسك بذراعي ضمني فجر بئر سكوبي بموج بحر صاخب.

قال: ذات مساء جاء اتصالها بأنها مسافرة للخارج لتطوير مهارتها الإدارية على حساب الشركة التي تعمل بها لمدة عامين.

لما عدت لم أجده في أثناء حوارني مع بعض الصديقات في حفل زفاف إحدى الأقارب بالرياض عرفت انه مات في حادث سير. نهضت من مقعدي مرتبكة؛ وعد التي كانت ترقص مع ثلة من الحاضرات على غناء

مطربة الحفل لما لمحتني توقفت واتجهت نحوي. همست وعد وهي تحفزني للرقص لم أقتله كنت أنتظره انفجر
أحد إطارات سيارته فانقلب وفارق الحياة.



الفضاضة

أسرتي ثرية وهكذا جاء زوجي وفي العام الثاني دب شجار عنيف بيني وبين زوجي بسبب تأخر الحمل، الدليل الناجع في نظره لتكامل المزج، كموقف تركت البيت وعدت لغرفتي في منزل الأسرة وبعد أيام جاء والده للصلح.

في المساء دعا زوجي بعض من الأصدقاء وبعض من الأهل على حفل عشاء بمناسبة رجوعي فيه تعرفت على ليلي زوجة زميل زوجي في العمل، لفت نظري جمالها مع تقدمها في العمر ونحول جسمها، أربكني تبذلها وسردها لعدد من الطرائف والنكت الجنسية ونظراتها تلاحقني.

بعد أيام جاءت ليلي ومعها هدية خاصة بادعاء أنها سوف تسهر عندي حتى عودة رجلينا من حفل تقيمه إدارتهما في العاشرة ليلا قالت: إنها تعبلة وترغب في الاضطجاع طلبت مني السماح لها بالرقاد في غرفة النوم.

جلست في غرفة التلفزيون أتابع أحداث مسلسل عربي وغفوت في مكاني، تنبتهت على أنفاس ليلي التي كانت منحنية علي تنشق رائحة شعري، لما عرفت أني صحوت طوقتي بذراعيها؛ قبلتني على خدي ولحست عنقي ثم اندست في حضني متوسلة بالوجد الذي ربطها بي ليكون اتحاد روحينا، تنبهنها على جرس الباب كانت الرابعة صباحا ودعتني بقبلة طويلة اختلط فيها لعابنا وهي تتلفع بعباءتها.

سافر زوجي في رحلة تدريب لتطوير مهاراته في العمل معها عدت لمنزل الأسرة؛ وجاء اتصال ليلي تخبرني بأن زوجها غائب في مهمة رسمية وتدعوني لزيارتها، عرفت أنها تقيم مع أسرة زوجها فتذكرت تلك الليلة التي قضتها عندي وشعرت برغبة في تكرارها؛ فضلت أن نلتقي في منزلي لم يمانع والدي فأوصلني سائق العائلة لمسكني.

جاءت ليلي كانت تقاوم رسيس الحمى، فاحتضنتني لم تهتم بتمنعي وأنقذني من همتها اتصال أخي، أوصلناها لمنزها لتسألني عبر الهاتف في مساء اليوم التالي عن مشاعري نحوها وهل أخي يملك صديقة أخذت أضحك.

في نهاية العام أخذ زوجي اجازته وسافرنا إلى أوروبا لمدة شهرين، ولما عدنا أقام زوج ليلى لنا حفل عشاء تعرفت فيه على أسرته، ليلى التي استغلت انشغال الجميع لتأخذني لجناحها في منزل العائلة.

وكما هي عادة إدارة عمل زوجي بمناسبةاتها المتعددة فاجأني ونحن نتناول الغداء.

قائلا: سوف أسافر بعد العصر.

قلت: خير. . !

قال: لحضور حفل ختام مؤتمر يقام في أحد فروع الإدارة.

قلت: يعني اذهب لأهلي. . ؟

وقبل أن اسمع رأيه رن الهاتف كانت ليلى تخبرني بأن زوجها مسافر وتساألني عن برنامجي تداخلت معنا تناقش الآتي، شعرت أنها ترغب في زيارتي تمهلت في الرد.

قال: إذا كنت ترغبين في حضورها؟

قلت: مقاطعه. . هل توافق. . !

قال: احتمالا أرجع في آخر الليل. . أوغدا بعد الظهر.

قلت: هل نسقت مع زوجها؟

قال: زوجها سافر. . منذ ثلاثة أيام ليراقب أوراق المؤتمر ويجيز الأسماء المشاركة في الحوار. . !

قلت: وشيء في أعماقي يشتعل. . إذا تبقى معي حتى عودتكما.

مع آذان العشاء جاءت جلسنا نتحدث في أشياء عامة وشاركتني في إعداد عشاء خفيف ومع إبريق الشاي ونحن جلوس أمام التلفزيون أخرجت علبة دواء من محفظتها اليدوية فتحتها وتناولت حبه وذوبت أخرى في كأس الشاي ثم قدمت لي ثالته ترددت في تناولها فأسقطتها في كاسي.

قالت: سوف تساعدنا على السهر.

قلت: منشط.

قالت: نعم . . نعم ومهيج.

وهي تحضن كفي وتلتصق بي سرى مفعول الحبة فلم ألاحظ أنها ذوبت أخرى في كأسى الثاني أنفاسها تلهب عنقي وذراعيها يطوقاني نتابع بشغف مطربة سمراء تثنى عودها عبر شاشة التلفزيون، معها قامت ترقص. في الحادية عشرة ليلا كانت ليلى تفتح باب المنزل للمفاجأة التي أعدتها؛ وصل رفيقها الذي بهرني حضوره ليشاركنا السمر.

قالت معرفة بصوتها الخدر: يوسف.

لهثها وولها بمقدمه جعلني أتصعب عرقا، صحوت من أثر المخدر فدخلت غرفة النوم وجلست على كرسي المرأة وجلة أقيم الموقف؛ لحقا بي الاثنان يغتصباي وفحيح اللذة يئد هلمي .

غادر يوسف الغرفة ولحقت به ليلى بقيت في الفراش منهكة استعيد ما حدث لم أستوعب أن رجلا غريب استباح جسدي فبكيت من الخوف؛ أربعني السكون المطبق على الدار نهضت متوترة تلفعت بوشاح ثوب النوم وخرجت أتحمس تجولت لم يكن هنا أحد .

وأنا أحتفل بتجاوز ولدي الأول المرحلة الابتدائية في التعليم بمطعم إحدى مدن الألعاب في طريق الثمامة .

قال زوجي: ناصر عاد من بلاد الغربية.

قلت: من ناصر هذا؟

قال: زميلي في العمل.

قلت: الزملاء كثيرون.

قال: رجل صديقتك ليلى.

اقشعر بدني وتبعثر كياني . . ليلي ماتت منذ عشر سنوات بسبب حادث اصطدام سيارة فارقت الحياة أثناء
إسعافها في أحد المراكز الطبية.

قال: مواصلا حديثه. . كانت الصدمة مؤثرة في ناصر فاستقال من العمل . . ترك طفلاته عند أمه وهاجر
لبريطانيا . . جاء ليحضر عقد قران بنته. . تري كلنا مدعوون للحضور.



وأنا

قالت أماني: قال في ثنايا روايته (بعد عام على رحيلها استقرت عواطف التي كانت ترعى حبنا في وجداني تفكك أعماقي لكشف تفاصيلها وحسم الصراع بين فتنة هموم من أنا وماذا أكون. . بعد يوم لم أخطط له حيث طلبت كتب دراسية لابنتها الملتحقة هذه السنة بالمدرسة الابتدائية، في الرابعة عصرا لمحت الخادمة تنتظرني عند مدخل البناية، استقبلتني مسدلة خمارها على وجهها الذي أعرف تقاسيمه. . كانت تقف على مبعده وابنتها وابنها الذي لم يتجاوز سنته الرابعة يبعثران الكتب في صخب طفولي والدفاتر وبعض المجسمات التعليمية والأقلام الملونة متناثرة على الأرض.

شيء في داخلي دفعني إلى إخراج بعض النقود من جيبى؛ طلبت من الخادمة أخذ الطفلة والطفل للبقال وشراء ما يحتاجانه، سرت بهجة وجله في المكان والخادمة مترددة والطفلة تسحبها للخروج. بقينا وحدنا، رفعت الغطاء عن وجهها بعد إغلاق الباب ترتدي ثوبا منزليا واسعا يخفي مكونات جسدها.

أمسكت بذراعها وهي تجمع الكتب المتناثرة على الأرض، توقفت والتقى هاجسنا لما لامس فمي عنقها انهارت تدافعت في أعماقها تصيب عرقنا واختلطت أنفاسنا كانت امرأة مهجورة، تقيم مع ابنتها وابنها في شقة بالدور الرابع، زوجها رجل الأعمال يغيب كثيرا وفي هذه اللحظة مسافر منذ أيام اكتشفت أثر حرق ماء حار طال جزء من صدرها.

قالت: حدث ذلك في طفولتي وأنا أعد عشاء للأسرة كشاهد على الطبيعة القاسية التي ترعرعت عليها؛ تنبهت وأبعدتني تكومت مغمضة العينين عاودت اجتياحها طوقتي بذراعها أخذت تلحس وجهي، إنها مشاعر التأزم لأنثى أرهقها التفكير ليكون لها موقف)

وقال: في جزء آخر من الرواية (جاء صوت أخيه آمرا؛ فكان أن ذهب رغم أنفه إلى منزل الأستاذ عبد العزيز للقيام بخدمته وخدمة والدته وزوجته وأطفاله، كان في الرابعة عشرة من العمر، نحيل الجسد يميل إلى البياض في شقرة؛ الفقر واليتم ارتبطا به من سنته الثانية، يعيش متنقلا بين منزل أمه المتزوجة وأخيه الموظف المتزوج حديثا .

وهو يصب القهوة لأحظ مدرس الفقه الضرير بين ضيوف سيده فخشي إن المدرس عرفه من رائحته، وسوف يفضحه في المدرسة بأنه أجير يخدم في منزل أحد الأثرياء.

في تلك الليلة المرعبة رافق أحد الضيوف لإحضار كتاب تجادل حوله الضيف مع آخرين ليحكم صاحب الدار في حقيقة صدق الحدث وكيف تم اغتيال زعيم الثوار في بوليفيا تشي غيفارا، كانت الحادية عشرة من ليل شتائي هجر فيها المارة الطرق، عاد وحيدا الخوف يمزقه والبرد ينخر أطرافه عبر الطريق المعتم .

استقبلته الأم بعطف وخوف، لفت حول جسده البارد بطايتها، وتنبه على نداء الزوجة وهي تركله بقدمها حتى ينهض ألقت على وجهه زوج جوارب صوفي طالبة منه غسلها بسرعة)

وقال: في جزء آخر من الرواية (في هذه الليلة التي غاب قمرها ونحن نفتش الأرض بجوار سيارتي في متنزه الردف ورأس حنان ينام على فخذي وأصابعي تعبت بشعر رأسها وعواطف تمرجح طفليها على مبعده.

قالت حنان: تقدم أحدهم لطلب يدي.

قلت وأنا اقرص شحمة أذنها: نعم وهل وافقت؟

قالت: والدي رحب به وأنا أفكر.

قلت: ودراستك وأحلامك؟

قالت: أكمل المرحلة الثانوية معه والجامعة حسب استعدادي.

قلت محتجا: وأنا؟

قالت: أنت غير مستعد لطلب يدي . . فنان مهووس بالكتاب وبالأدب حتى تهرب من واقعك بتوهم المثالية.

قلت: هذا يزيد ارتباطنا لاشترك الميول.

قالت: ومتزوج وفقير . . أنا الآن شريك حر.

انخبت أثم فمها في قبلة طويلة مستغلا العتمة لتفاجئنا عواطف ضاحكة لتنفصل عن بعض ويدها (اسكر يم) تعلقه قائله اشترى لكم والا مشغولون بقضيتكم)

وقال: في جزء آخر من الرواية (بعد اختفاء تام فرضته على حياتي باحثا عن أجوبه لتساؤل يقلق وجودي الغائب . . جاء صوت عواطف تستنجد بي لمساعدتها حتى تسافر خادمتها، أخذتها مع والدتها وطفليها والخادمة إلى مدينة جدة في الطريق طلبت الأم إيصالها لمنزل إحدى قريباتها، وعندما تنتهي من إجراءات ترحيل الخادمة نعود لأخذها . . وبما أن وقت السفر بعد غروب الشمس والساعة تشير إلى التاسعة صباحا توجهنا عواطف وابنتها وابنها والخادمة إلى فندق على البحر في خليج أبجر هناك حجزت غرفة وانشغل الطفل والطفلة بالألعاب.

أخذت عواطف للغرفة بالرغم من تمنعها وأنه في الإمكان الجلوس في مطعم الفندق لتناول طعام الإفطار كانت نافذة الغرفة تطل على البحر ومكان الألعاب، أخذت تراقب طفليها، وقفت بجوارها أتأمل البحر متذكرا طفولتي في أقصى الجنوب وفجيرة الموت والنار التي التهمت باقي السؤدد ومصيبة اليتيم وذل الفقر فاستنشقت عطرها؛ تدافعنا نقاوم عبثنا فكان أن تطامن حراكها وسكن).

وقال: في جزء آخر من الرواية (مات والد حنان وهجر الجميع منزل العائلة في الطائف، عواطف انتقلت إلى جدة لتبقى بجوار ابنتها التي التحقت بكلية الآداب في جامعة الملك عبد العزيز . . وجاء من أعرف ذات يوم قال: حنان دخلت السجن بسبب تراكم الديون وفشل بعض المشاريع جراء اختلاسات في المؤسسة التجارية التي تحمل اسمها ويديرها زوجها رجل الشرطة الذي تدرّوش وادعى القدرة على الرقية بعد نجاحه في عدد من قضايا الإخلال بالأمن، فجاءت محاكمته على خيانة واجبات العمل وفصله من وظيفته فرصة لبعض إخوانه فأدخلوه مستشفى الصحة النفسية تخلصا من وساوسه . . عذابات حنان وليدة المغامرة والشعور بالحاجة وبالشرط الاجتماعي المادي والرغبة بالتحكم في المجهول ففقدت قوة الإحساس بالأشياء التي تخلق الفعل المضاد، والسجن هنا يؤكد حقيقة الإحباط الذي تعيشه كواقع؛ متجاهلة حياتها كامرأة لطفولة تقلد فيها الفتيان حراكهم في اللعب والعراك).

قالت أماني: إنها قصة مثيرة.

قالت زميلتها والتي تسكن أسرتها إحدى شقق البناية التي تقيم بها أماني وأمها منذ ثلاثة أعوام: عندي بحث أعده للتخرج هذا العام حول أعمال الكاتب . . الذي لفت نظري تمتع المؤلف بحرية اختيار اللحظات التي تناسب أبطال نصوصه، المسحوقين بدون وجوه وأسماء الملتقطين من الشوارع وكراسي المقاهي كشذرات من حياته الفلقة.

قالت أماني: قد أعد بحثاً عن الكاتب إذا توفر باقي أعماله . . !

قالت زميلتها: مكتبة الكلية تضم جميع مؤلفاته والدكتوراة المشرفة على فرقتي مهمة به . . هناك مثل تجربته الروائية هذه أجده وهو يتحرك من الماضي إلى الحاضر فيدمج أفعال الشخصيات وتصرفاتها بحرية تامة فهو حر لا يخضع لأي قانون جامد . . وفق رؤيا مضطربة تتسم بالتبعثر والتشتت الدلالي .

قالت أماني: قريبها . . !

قالت الزميلة: من المشرفة . . أكثر . . من خلال ما تم إنجازه في البحث أراه يسعى إلى تحقيق مدلول معين علينا فهمه عبر وعي الكاتب الذاتي والموضوعي بالواقع الاجتماعي والسياسي عندما اكتشف بطل الرواية أن أسرته كانت معارضة للسلطة فتناثرت بين الداخل والخارج بألقاب مختلفة.

قالت أماني: يعني؟

قالت الزميلة وهي تضم ذراعها إلى صدرها: التغييرات التي تمارس على الكتابة القصصية والروائية كنص أدبي في أعماله ثرية كمرجعية اجتماعية وسياسية . . على فكرة الدكتوراة سعاد عانس ولها بحث قيم يستعرض مجموعات الشعريّة .

فتح باب الغرفة أطلقت عواطف التي كانت في السوق، قبلتها ابنتها أماني واحتضنتها زميلة أماني وبلغتها تحيات أمها الراقدة في المستشفى بسبب وعكة حمى مفاجئة.

قالت أماني: أمي هذا كتاب يعجبك.

قالت الأم: لمن؟

قالت الزميلة: كاتب أعد بحثا عن أعماله السردية للتخرج هذا العام. . عقبال تخرج أماني.

قالت الأم: أخوك عامر مسافر بكره للدراسة.

قالت أماني: وأنا؟

قالت الأم: بعد تخرجك إذا وافق أبوك.

خرجت عواطف من الغرفة . أماني التي أغلقت الباب همست في إذن زميلتها بأنها تتمنى التعرف على الكاتب وبريق في عيني الاثنتين يتوهج معه أخذت أنامل الزميلة تعبت بخصلات شعر أماني التي استكانت مطبقة جفنيها خاضعة لمداعبات زميلتها التي انتفض بدنها من رنين جرس الباب الخارجي الذي تردد بقوة داخل جدران المنزل فقبلت جبين أماني مودعه وخرجت لتجد عواطف جالسة لوحدها في غرفة الجلوس المشتعلة بنور صاحب ثقلب الرواية والتلفزيون يعرض بصوت منخفض مشاهد فيلما أجنبيا.



الشاعر

هي مصادفة تحمل فلسفة الجبر في إعادة تبويب خياراتي وترتيب أوراقى المتحكمة في هذه الرحلة التي بدايتها مشاركة كشاعر في وفد ثقافي أكمل أسبوعا من الحراك الأدبي والفكري عبر ملتقى ممثلي الجامعات الحكومية في دمشق.

وكان أن رافقت أحدهم في رحلة بالسيارة إلى عمان لمشاهدة جزء من مهرجان جرش، وتمكنت من إيجاد حجز في رحلة جوية إلى القاهرة لقضاء أيام من سنة تفرغ علمي.

في المطار وجدت عائشة كانت برفقة ابنها الذي أنهى برنامجا طبيا في أمراض المناطق الجافة لمدة ستة أشهر، أرسلته للمشاركة فيه إدارة المستشفى الذي يعمل به وبرفقته زوجته وطفلان.

موعد السفر يقترب والابن محتف بين مكاتب المطار والأم والزوجة والطفلان ينتظرون في قلق. لما جلست على أحد مقاعد الصالة ركض الطفلان بشغبهما نحوي لمشاركتي الجلوس في المقعد

جاءت لنهرهم، وتبادلنا النظرات فابتسمت وأنا أحتضن أصغر الطفلين. سألته عن اسمه فتلعثم

قالت: محمد

قلت: هل أنتم في رحلة سياحة.

قالت: بين بين . هذا ولدي محمود.

عرفت أن رحلتهم تأجلت بسبب نقص المقاعد إذ نسي الحجز لوالدته التي جاءت منذ أربعة أيام، وأقرب رحلة للقاهرة بعد يومين.

قلت: أتنازل عن مقعدي حتى لا يرتبك جدولكم وحجوزاتكم في القاهرة.

ناولته بطاقتي وتوجهنا إلى موظف الحجز الذي تمنع وأمام إصراري وافق بعد دفع ضريبة التبادل وتأجل سفري ليوم واحد.

في القاهرة نسيت الأمر وبعد أيام وأنا أجلس في مقهى بالهرم جاء صوتها الذي أعرف، كانت متجهة نحوي، شعرت بالخرج وكأس الخمر ينتصب على الطاولة، أحد أعضاء هيئة التدريس بالجامعة التي أنتسب إليها كرئيس لوفد يتعاقد مع بعض التخصصات للجامعة يشاركني جولتي السياحية ويرصد تأملي كمرافق، لما جلست نهض متشاغلا بمشاهدة الجمال والخيول التي يستأجرها الزوار .

قالت: ليه لم تتصل؟

قلت: انشغلت بمراجعة مطبعة لطبع كتابي الجديد.

قالت: كتاب علمي؟

قلت: ديوان شعر.

لم يطل مكوئها بعدما وعدتها بزيارتهم وعرفت مكان إقامتي ورقم هاتفي. في المساء رن الهاتف كانت عائشة وابنها يدعوانني لحفل عشاء ساهر في كازينو على النيل، وإنهم بعد نصف ساعة سوف يجدايني أقف عند باب البناية. بدلت ملابسني ومع تباشير الصباح كنت ألج شقتي .

تكرر اللقاء عرفت أنها أخصائية اجتماعية ولما أصبحت أرملة تفرغت للعمل التجاري وناشطة اجتماعية في جمعيات مدنية ثقافية وإنسانية، ابنها طبيب متخرج منذ عامين ولها ابنة تعمل مدرسة كان زواجها منذ شهر.

بعد جولة في حديقة الحيوانات انسحبت حتى يمارس الجميع شغبهم بحرية، اتجهت أقدامي إلى مطعم الحديقة قدم لي النادل قارورة بيرة وأنا أتجرع كأسني الأول إذا بها تقف على راسني تابعتني وأنا اشرب صامتة ثم جلست طلبت من النادل كاس عصير فواكه طازج.

قالت: تشرب كثير؟

قلت مرتبكا: قليلا أزجي به الوقت.

قالت: علامات البؤس واضحة عليك.

قلت ضاحكا: أخصائية اجتماعيه المهنة دساسة.

قالت: متزوج؟

قلت: لا

قالت: مطلق وعندك أولاد؟

قلت: مطلق لم يفرح بلبنته الذهبية

توقفت عن الحديث وابنها وزوجته والطفلان يقتربون منا، تناولنا طعام الغداء ونهضنا أصرا على دعوتي للسهر معهم في سكنهم وتناول العشاء، رن هاتفي كان موظف المطبعة يطلب حضوري لمراجعة بروفات طبع الديوان، قرر الطبيب مرافقتي بعد إيصال أسرته للسكن لتجهيز العشاء، تأخرنا في المطبعة بين تدقيق أرقام الصفحات ومراجعة ألوان الغلاف. بعد العشاء نام الطفلان وأمهما وبعد قليل انسحب الابن فنهضت مستأذنا .

قالت: اجلس ابغاك في كلمه.

قلت: أمرك.

قالت: من يوم تقابلنا وأنت شارذ الذهن تحمل هموم الدنيا على ظهرك.

قلت: أبدا عامل السن وشلل الطموحات.

قالت: عندك صديقات هنا؟

قلت: تجاوزت هذه المرحلة إنما أنا في سنة تفرغ علمي منذ شهر ومنشغل بتحديد موضوع أكتبه.

وأخذت الحوار إلى جانب آخر عرفت أنني في الأربعين من العمر قبل عشر سنوات تزوجت وفي ليلة الدخلة وأنا وعروسي التي اختارتها أمني نجهز أنفسنا لمغامرة الليلة الأولى أقلقنا قرع شديد على باب الغرفة.

كانت أمي التي انهارت على مقعد بجوار باب الغرفة وأمسكت بكفي قالت: وهي تبكي إن العروس التي بعد لم تخلع ثوب الفرح أختي من الرضاعة؛ كشف ذلك حديث دار بين بعض الأقارب وهم يبارك بعضهم لبعضهم بتوفيقي وحسن اختيار أمي، وعندها جاء ذكر أسماء من تغيب عن الحفل فلما ذكر اسم إحدى الجارات تم ربط اسمي واسم عروسي بها كمرضعة ولما تم الاتصال بها أكدت ذلك وشهد بذلك إحدى الحضور، معها شيء في داخلي انكسر وانخفضت نسبة الهرمون في الدم وأدمنت شرب الخمر بسبب الصراع النفسي الذي تغلبت عليه ولم أتجاوز العجز الجنسي .

قالت: يعني فوبيا الخوف . . !

قلت: لم أكن بريئا قبل الزواج، لكن بعد الحادثة توقف كل شيء.

قالت: جربت.

قلت: في سنوات الهروب نجحت في عملي وكونت بعض الصداقات غير أنني لم أتجاوز الملامسة.

سمحت لي بالخروج مشيت على قدمي طويلا وأنا أعاتب نفسي على تحدثها في أمر خاص دمري، حتى عثرت على سيارة أجرة أوصلتني لشقتي. لما فتحت الباب كانت الخادمة ترقد مكومة على مقعد أمام التلفزيون وقد انحسر ثوبها عن فخذيها وهطل صدرها وتبعثر شعرها، أخرجت قارورة الخمر من الثلاجة وشربت كاسي الأول والثاني، ومع تحركي تنبعت كنت أتفحص جسمها الشاب النحيل ولون بشرتها السمراء، مددت كفي أتحمس الفراغ وتوجهت لغرفتي تمددت في الفراش ونمت .

بقيت في الشقة يومين زارني فيهما زميل الجامعة مودعا للعودة للرياض، لم أهتم بتبليغه تحياتي لأحد، ولم يهتم بأخذ بعض نسخ ديواني الجديد التي أحضرها من المطبعة .

أصبحت بوعكة حمى شديدة اعتنت الخادمة بي وأخذت ترد على الهاتف لأجد عائشة وابنها يفحصني تطلب من الخادمة إحضار أدوية كتبها لي. ودعني الاثنان لتعود عائشة بعد ساعتين للعناية بي، طال مكوثها وتكررت زيارات ابنها وزوجته والطفلين حتى خف أثر الحمى.

جاء الابن وزوجته لمشاركتهم رحلة للإسكندرية اعتذرت، ومعها استمزجت عائشة ابنها البقاء للعناية بي حتى عودتهم، بعدها منحت الخادمة أجازة ليومين وبقينا لوحدا عنايتها ذكرتني أُمِّي وأخواتي وجو الأسرة الذي فقدته في رحلتي، لم تمنعني من شرب كأس خمر مع الدواء الذي تحسب مواعيده، شيء في يتحرك وكفها تلامس جبيني بين وقت وآخر لمعرفة حرارة جسدي .

نحول جسمها ورشاقته خلقا التوتر في داخلي وتورد خديها واكتناز شفيتها وشعر رأسها القصير المموج بألوان مختلفة يدفني لبناء قصيدة جديدة وأنا استمع لها وهي تقرأ قصائدي وأنفاسها تشعرني باني أتجاوز غصتي .

دفعني للنوم بسروالي الأبيض الطويل وفانلة كم قصير بيضاء أصابها تجس أضلاعي وتمس عضلات صدري كانت ترتدي قميص إحدى بجاماتي لم تغلق أزرته العلوية فتهدل صدرها وتلبس أحد سراويلي البيضاء القصيرة أنفاسنا تختلط في جنبات الغرفة وان أعدت فراشها للنوم في الغرفة الثانية من الشقة .

نزلت كفها على بطني وهي تجرعني حبة وأدوية منتصف الليل، صوت موسيقى هادئة ينساب من التلفزيون انحنى تضع كأس الماء على الكوميدون وضعت كفي على كفها والعرق يتصبب مني .

قالت: لم تتصبب عرقا.

قلت: الحمى.

قالت ضاحكة: أمتني.

كنت أهصر كفها بقوة. جلست في الفراش قبلت جبينيها رائحة شعرها أدرك نشوة مغيبة؛ لم يزعجها تصرفي بعفويتها أمسكت بذراعي وسحبتني خلفها وبغريزتها أخذتني إلى الغرفة الثانية ولبيديتها تعاركننا؛ مع الحس المشترك تحررت من التوتر والقلق والشعور الذي فقدت معه كل أمل فأطلقت ألسنا لمواجهة اليأس وإذا بي اجتاح قلاعها في تجاذب خال من الضغط النفسي. لم أشعر بالخوف من الفشل .

في الواحدة ظهرا تنبهت من النوم استرجعت ما حدث غادرت الفراش لم أجد أحداً في الشقة شعرت بانقباض متوهما أنه حلم بسبب الخمر فجلست على أحد مقاعد غرفة التلفزيون أقيم الموقف بدون ضغط

ووساوس ليفتح باب الشقة كانت عائشة تحمل بعض المعلبات والخضار، لما لمحتني قهقهت بصوت عال ورمت علي منشفة حمام ملقاة على التلفزيون ودخلت المطبخ .

قلت: هل حدث أمر

قالت: نعم . . الذي بدد الأمور المترسبة في أعماقك.

قلت: يعني.

قالت: كل طرف من جسدي وبذاتي تفجر، انهمر المطر كما شلال معه سالت الأودية وأنساب الماء غدقا في صحراء امتدت إلى ما لانهاية.

دخلت الحمام الماء المنسكب على جسدي نفض قلقي ونحن نتناول الغداء اقترحت الخروج للتجول وحضور عرض مسرحي بعده نحتفل بتجاوزي وعكة الحمى بعشاء في مطعم أحد الفنادق ننعيم فيه بلحظة مرح مع الموسيقى والغناء.

سافرت إلى لندن مواصلا رحلتي العلمية ووجدت الموضوع الذي أبحث فيه فأنجزت هدي وعدت للرياض قبل نهاية سنة التفرغ بأيام.

في حفل خاص احتفل بعض الزملاء بعودتي وبديواني الثاني الذي وصلت نسخته منذ أشهر وتناقش الأصدقاء حول دراسة قدمتها زميلة في قسم البنات تخصصها أدب إنجليزي فتت النصوص وسلبتي وعيي الشعري ومقدرتي في كتابة نص يحمل قضية إنسانية وأن قصائدي مجرد وصف بلاغي ونظم روحه الشعرية غائبة عن مقارنة ظواهر الحياة البشرية وخصوصا علاقة الإنسان بالطبيعة، في مقارنة مع بعض النصوص الشعرية في الأدب الإنجليزي مستشهدة بما جاء في مقال لها عن ديواني الأول وتقبل الساحة الأدبية بصحافتها ومنتدياتها له .

ولما خلوت مع نفسي بعد عشاء دسم أعدته الوالدة تطرقت فيه إلى زواجي وحلمها بمشاهدة أحفادها مني خطر لي الاتصال بالزميلة التي جاء اتصالي متوقعا كما تقول لمناقشتها في ما جاء في الدراسة عن ديواني الثاني وتطور موهبتي الشعرية.

قلت: تتزوجيني يا سامية؟

لم ترد اعرف إنها تجاوزت الثلاثين منشغلة عمن حولها بأحلام ومشاريع معها كانت ترد كل متقدم للزواج حتى عرفت بالراهبة كغلاف مراوغ لوصف العانس.

قالت: نعم.

في سرية تامة حسب تخطيط الوالدة الذي اتفق مع هواجس سامية جرى كتب الكتاب في منزل أخيها رجل الأعمال الناجح وأخذتها إلى غرفة بفندق مميز بخدماته جاءت الليلة الأولى باردة وفي الثانية تغلب عبثنا على توترنا فافتحمت قلعتها فاتحا أبوابها ومشرعا نوافذها التي أغلقتها متناسية أنوثتها ونداء الطبيعة فتراكم عليها الغبار وأغصان وأوراق نبات متمدد جفت عروقه.

بعد أشهر ستة أعلننا زواجنا في الجامعة والمجتمع معها توقف تداول حكاية شذوذي واني مثلي غريب الأطوار في داخلي نزعة استبداد، لعلاقة مع فتى فلسطيني والده يعمل مديرا ماليا في شركتنا التجارية المتعددة الأغراض، في أيام الدراسة بالثانوية شاركني في بعثة توسط والدي له لمرافقتي معها فضل الاغتراب وبدل جلده، كانت متداولة ولم تصلني ولكن الزميلة والزوجة روتها لي وذكرت إنها تطرقت لها في مقالها منذ أربع سنوات عن ديواني الأول.



العرجاء

لم تلمس أن الأمر تجاوز حدود السيطرة، ولكن أن تحلم في منامها بذلك فهذا يدفعها إلى إعادة تشكيل ذاتها، لكن الرغبة تبرز تلك المشاعر التي لا شيء يملؤها؛ وهي التي شغلت فكرها وجهدها في تكوين صورة المرأة الجادة المنتجة والتي أولها من حولها تعويضا لعرجها وبقايا حساسية مفرطة من سن المراهقة سرعان ما تنخدش، وفقدتها لمسحة الجمال التي منحت أخواتها الأربع والأصغر أزواجا كاملي الصفات والخلق، فكرست جهدها للعناية بوالدها رجل الأعمال الذي أنهكه المرض فأصبح تحركه بمقعد ذي عجلات وسائق أصبح كأحد أفراد الأسرة.

الصباح في عملها الحكومي وفي المساء تقضي وقتها بين ردهات مبني مركز الخدمات الأسرية بالحي وثلاث ليال في الأسبوع تمارس الرياضة بين صالات نادي رياضي للنساء.

فاتحها رئيسها في العمل في الزواج في نهاية اتصال معتاد في شؤون العمل تطرق فيه عبر سؤال عن القيم الحميدة التي يتصف بها عضو الأسرة الجديد، تعرف انه متزوج ولديه أسرة كبيرة جاء ذلك بعد زواج أختها الرابعة وابتعث أخيها الثاني للدراسة في الخارج بينما عمل شقيقها الأول يحتم سفره المتواصل.

ناقشها والدها في مطلب رئيسها وموافقته أن تبقى في منزل الأسرة مع تحديد موعد لزيارته لقضاء بعض الوقت معها كزوجة، ترددت ولكن أمها أقنعتها بأن الأمر طبيعي لفتاة عانس وصلت الأربعين وأنه منتشر في المجتمع ومن حقها أن تنهي ذلك وقت ما تشاء.

قضت الليلة الأولى في غرفة بفندق، فيها دفعها زوجها لتجرع مشروب لم تستسغه إنما مع الحديث والعبث انتشى كل جزء في داخلها فلم تهتم بما حدث تنبهت في الظهيرة من خدرها فدخلت الحمام غمرت المياه جسدها ليفتح باب الغرفة كان زوجها تناولا الغداء في مطعم الفندق وفي المساء عادت لمنزل الأسرة.

قال السائق وهو يوصلها صباحا لمقر عملها: ماما من هذا؟

قالت: زوجي.

قال: مبروك.

ذات مساء تأخر الزوج عن الحضور في مواعده الأسبوعي، جاء هاتفه معتذرا أن أحد أولاده مريض وهو معه في المستشفى وطلب منها عدم الذهاب للعمل حتى يتناول الإفطار معها. في العاشرة صباحا حل متوترا وبقي حتى الواحدة ظهرا.

قال السائق: ماما هذا زوج مجنون.

قالت وهي تضحك على غير عادتھا: ليش. . !

قال: كلام كثير بطل !

عرفت أنه زار والدها في مكتبه التجاري. طلب منه مبلغا من المال كسلفية حتى ينهي بناء منزله الجديد في شمال الرياض يسدده على أقساط. أثناء حوار تجاوز فيه حدود الأدب .

على طاولة العشاء في مطعم منتزه خارج المدينة فاتحها زوجها عن ضائقته المالية وطلب منها أخذ قرض باسمها من البنك الذي تستلم راتبها منه بضمن الراتب. لما شعر أنها مترددة كمل مسوغات القرض وأخذها إلى الفرع النسائي لتوقيع الأوراق.

أخبرت والدها بالأمر ابتسم، لما طال صمتها اشتد ضحكها فشعرت بالاطمئنان .

في المساء وهي عائدة من المركز الرياضي فاتحها السائق الذي أنهى سنته العاشرة في العمل عند والدها برغبته في السفر لبلده. شعرت أن جزء من كيانها انفصل فلم تفتح أحدا بذلك.

قال والدها: السائق يطلب اجازته شهرين.

قالت أمها: حقه يشوف أهله.

قالت: وأنت؟

قال والدها: يقوم بعمله أحد العاملين بالمكتب.

لم تتم ليلتها، ولما جاء زوجها لم يلاحظ انشغال ذهنها وارتباكها، وفي طريقها الصباحي للعمل لم تنبس بكلمة وهي التي تثرثر عندما تكون في السيارة وقد غابت معالم الطريق، محذقة عبر غطاء وجهها الشفاف في مرآة السيارة الأمامية حيث يطل جزء من وجه السائق.

جهز السائق أوراقه وحصل على تأشيرة خروج وعودة من إدارة الجوازات لمدة ثلاثة أشهر كانت تتابع ذلك بصمت من خلال حديث والدها واستفسارات والدتها البليدة عن البديل الذي يستطيع تحمل طلبات المنزل والزوج المقعد.

قال السائق: بعد ثلاثة أيام السفر ماما فين الهدية؟

قالت: مافي هديه ليه مستعجل؟

قال: ماما أنت زعلان.

قالت: ليه زعلان أنا تعبان بس.

قال: ماما أنت لازم يتونس !

قالت: تونس كيف؟

في السابعة ليلا وهي في طريقها للمركز الرياضي بملابسها الرياضية غير السائق مساره، اتجه إلى طريق تعرفه، ولكن في هذا الوقت لم يكن مطلبها لم تنبس بكلمة حتى لاحت استراحة تملكها الأسرة في شرق الرياض، ترتادها نهاية كل أسبوع وفي المناسبات العائلية والأعياد تعرف أنها في هذا الوقت خاليه من الحركة .

قالت: هيه؟

قال: ماما أنا قلت لازم يتونس.

قالت: ما فيه أحد !

قال: ماما من غير زعل لازم يتونس.

فتح مدخل الاستراحة وادخل السيارة شاهدته ينزل من مؤخرة السيارة سلة بها قناني ماء ومشروب ترحلت من العربة، وقفت مرتبكةناولها قنينة ماء صغيرة تجرعت بعضها.

شل تفكيرها نسيت هاتفها القابع في محفظتها الصغيرة المعلقة على كتفها، أنفاسه حولها كون حديثه عن السفر غمامة بيضاء، انسكب ماؤها أوراق سوداء تنهمر عابرة فركض غيرها مبتهجا بالضجيج؛ أمسك بذراعها تحركت خدرة شيء في صوته يدفعها إلى الاقتراب أصابعه تعبت بشعرها أبوابها تفتح بابا باب ودرف نوافذها تصطفق بسبب ريح عاصف انبعث من داخلها .

في الحادية عشر ليلا عادت للمنزل أسرعرت إلى غرفتها تمددت في الفراش الظلام يحيط بها وصوت أمها وأبيها يصلها غابت عن الوعي نامت بملابسها وبعد عناء صحت على صوت أمها الغاضب.

بدلت ملابسها كانت الساعة العاشرة صباحا تأخرت عن موعد العمل مع كوب الحليب رن هاتفها كان زوجها يستحثها لوجود مشكلة حدثت في الدائرة التي تشرف عليها.

في السيارة وبعد تجاوز عدد من الشوارع وعند الإشارة الأخيرة التي ينتصب بعدها مبنى القسم النسائي الذي تعمل به اكتشفت إن الذي يقود السيارة السائق الجديد.



الخلاص

في مطلع السنة العاشرة على إدخالي مستشفى شهرار آاء من أأرأنا؁ إء ءعاأنا مءءر المسأشفأ ملكأبه وأأربنا أن أمة وأأنا أأرا ووقعا مأأر الأوأ الذي أأأر أوقعه أأس سناوا بعء أأاوأنا المرأ الذي أءألأ بموأبه المشفأ بسبب أعاأنا الأأشش وأالة اضطراب مأهولة معها كنت أصرع.

لما أأرأنا من المشفأ أأأرأنا أننا بءون أأ؁ فأنا وأنا أمة؁ ولما بلأنا الساءسة أوفأ والأنا؁ وبعء عام أأوأنا أمة وأنا أأنا مضاوأ؁ فأأرأنا أناأنا لرعاأنا أأنا كان زواأنا.

أأأنا سناارة أأرة إنا منأنا الأناأنا فنا أارة الشرقفة لأأنا أأنا شكله وناأنا من لا أعرأ؁ مشأنا على أأنا مأأنا إنا منأنا أأنا مأنا.

أأربنا رأنا عأاا ففأرأنا مءأنا الأنا المأنا أن البنا مأأنا منذ أعوام.
قال العأاا: أنأ أربنا.

أنا: كنت مسافرا وهذا بنا الأنا.

قال العأاا: وأهلك ونا؟

كنت أفأنا أأنا ملبسا الصأرة وأوراق هوبنا وملفأنا عن أأنا الصأنا؁ برز أأنا علىه شعار المشفأ؁ فأناأنا به ألفا رناأنا جزء من مكافأة أناأنا ببعض الأعمال أأنا المصأنا بعء أأاوأنا أأنا وأأنا من أأنا أأنا.

بعء شرب الأنا مع العأاا وأناأنا أأنا؁ وشنا فبناأنا من أعماأنا مأناأنا أسباب أأنا المشفأ. كانأنا أمة؁ فأنا شهدأنا مع أأنا على أأنا أأنا أأنا؁ كان أأنا بعء عام من زواأنا؛ وأأنا الأناأنا؁ كانأنا أأنا على وفاق مع ابن الأناأنا قبل زواأنا ولما أأناأنا الأنا الذي أأناأنا لها إأناأنا من أبنا؁ لم أأناأنا هذه العلاقة الأنا أأنا أأناأنا؁ فصاأنا أن أأنا من سهرنا مع

الأصدقاء؛ لأجدها في غرفة الضيوف مع عشيقها، وتكوم الناس لأجد نفسي ممددا في غرفة الحوادث بالمستشفى العام ملطخا بالدماء واتهام لم أتوقعه فأصبت بالصرع والتشنج مما أدخلني مستشفى الصحة النفسية .

عزمت على السفر إلى جدة بحثا عن حياة جديدة، في سيارة الأجرة خطر طرف من طفولتي لما تزوجت والدتي، عملت خادما في منزل تاجر تزوج للمرة الثانية من أرملة ثرية لم ترزق بولد فكانت ترعاني كابن لها وتساعدني على استذكار دروسي، وفي العام السادس من الخدمة استولى إخوتها على نصيبها من الإرث بما فيه المنزل الذي تسكن؛ فنقلها زوجها إلى منزله مع زوجته الأولى فتم الاستغناء عني .

في ثنايا ملف الأوراق عثرت على مظروف آخر بداخله عشرة آلاف ريال وورقة صغيرة مكتوب فيها (هذا نصيبك من ميراثي لقد بحثت عنك بعد وفاة زوجي وعرفت أنك بالمستشفى فقررت أن أكفل خروجك وأسلمك نصيبك حتى تبني حياتك من جديد .. عبير)

تذكرت أن مدير المستشفى قال أن أمي من كفلي لكن من عبير . ! قلبت أوراق الملف بحثا عن صورة تقرير الخروج لأجد أن الموقعة عبير وأمي اسمها نوف شيء في داخلي ارتبك ولم أتم جيدا بسبب الهواجس والأحلام.

في مدخل حي شعبي فتحت دكانا للمواد الغذائية ثم قمت باستئجار جزء من منزل في وسط حي مهجور وفقير تقطنه عمالة وافدة للسكن، وبسبب وعكة حمى لم أغانر غرفتي هذا اليوم، فضلت البقاء في الفراش ولما حل الظلام لم أشعل النور بحثا عن السكينة والهدوء.

صحوت على ديب وبصيص نور يتحرك وصوت غناء خافت ينساب بين جدر المنزل ورائحة بخور، غادرت الفراش؛ النور يعم الدار ورائحة البخور والغناء يأتي من المطبخ لأجدها تعد بعض الأكل والمشروب بثوبها الأبيض الذي أعرف مع غطاء الرأس ووجهها المبتسم. تصلبت أطرافي، تقدمت مني طوقتي بذراعيها، أنفاسها تعيدني للحياة، تذكرت إني كنت أنام في غرفتها عندما يكون زوجها في منزله الأول وأنها تقوم بتعليمي الكتابة وبتحفيظي جزء عم، وأردد معها آية الكرسي قبل النوم .



الفندق

في رحلة استجمام خمسة أيام إلى القاهرة ذات شتاء بعد توقيع عقد عمل مؤثر، عندما كنت أجلس في صالة استقبال الفندق الذي وجهت إليه سائق سيارة الأجرة، لفت نظري امرأتان وطفلة تتبادلان الحديث ونادل الفندق يناقشهما في طلباتهما، أحدهن وهي الصغرى بين وقت وآخر تلوح بهاتفها الجوال، وبعد ما يقارب نصف الساعة جاء رجل ومعه شابان انظما للمجموعة النسائية فتلهيت بشرب القهوة متربثا تحرك المجموعة.

ركزت نظري بعض الشيء على ملاحظتهم محاولا استراق السمع لتحديد هويتهم، جاء أحد موظفي الاستقبال يدعوني للغرفة التي تم حجزها لي طلبت منه إحضار حقيبتي من السيارة ونقدت السائق أجرته وهو يعلن استعداداه للبقاء في خدمتي .

في هذه اللحظة نفض النسوة ومرافقوهن عند حضور آخر عرفت من نادل الفندق أنه دليلهن الذي معه تتم أعمالهن، نست الفتاة هاتفها على الطاولة بسبب استعجال الآخرين واختلاط إشاراتهم التي توضح عمق المشكلة التي يناقشونها، قمت وأخذته مقلبا أرقامه وخطر لي الاتصال على هاتفني منه لمعرفة رقمه تركته مفتوحا لثواني مستقبلا إرساله ثم أغلقته واتصلت عليه في شغب مجنون وتركته بارزا على طاولتي، وإذا بالفتاة تعود للبحث عن هاتفها، تركتها قلقة ثم لوحت به لها أخذته مبتسمة .

صعدت لغرفتي ورتبت ملابسني وقضيت بعض الوقت في مطعم الفندق ثم عدت متأخرا لغرفتي، ونمت ليوقظني من النوم رنين الهاتف كانت العاشرة صباحا، سألتني عن اسمي وكيف وصل رقمي لها أخبرتها أنني الذي تركت جوالها له حتى يتعرف عليها، كما أخبرتها أنني لم أفطر وباسترخاء وسذاجة.

قلت: إن الوقت مبكر عرفت أن والدها مع زوجها يكملان تسجيل أخيها في الجامعة وأمها وأختها الصغرى في مطعم الفندق وأنها أيضا لم تتناول إفطارها .

حضرت لغرفتي سألتها عن نوع إفطارها وأنا ألوح بلائحة خدمات الغرف، فتحت ثلاجة الغرفة وتناولت قارورة الو سكي التي لم أفتحها، ضحكت وجلست على المقعد المقابل حول طاولة الغرفة وسكبت قليلا من

القارورة في كأس تجرعتة بسرعة، عرفت أنها تذوقت المشروب عندما كانت طالبة في الجامعة من خلال زميلة أمها فرنسية، تنبأهى بأن في منزلهم الكبير جناح خاص بالضيوف خزنته بها مشروبات متنوعة تفتح في المناسبات .

سألني هل تصب لي وهي تلوح بكأسها هزرت رأسي وخاطر غائم يقول: (أنني أحتاج فقط إلى الهدوء ودفن ذاتي بعد ليلة قضيتها مسهد) موافقا؛ فسكبت قليلا في كأسها وقدمته لي، جيء بالإفطار وبين الموسيقى الصادرة من التلفزيون الذي فتحته والأكل البطيء عرفت أنها سوف تبقى أطول وقت ممكن .

ونحن نشرب الشاي، أخذت تمز رأسها على أغنية أجنبية يبثها التلفزيون متفحصة ما حولها لفعل الصواب بينما كنت أمتع بظرفها وحراكها المرح لبعث لذة جديدة في شرايبي.

في ثرثرة تتجاوز حدود طاقتها لكي تصب شكواها أدركت أن ذلك سوف يكلفني صفاء رحلتي؛ هداً من استرسالها انفراج البرنس الذي ارتديت على ملابسي الداخلية أصابع كفها البضة بترف تلامس ركبتي عندها انتصبت واقفا منكرا حقيقة الموقف وخافقي يصطفق ريبة، أطبقت جفنيها، ولأنني أعرف الوجوه (رأيت وجهها تحت طلاوته الظاهرة حزن عميق) فصيرت قلبي الميت عطوفا وكما يطوي البحر جدولا منحدر إليه طويتها .

طلبنا شاي آخر وبقينا نتحدث حتى الثانية ظهرا ليرن هاتفها، كان والدها يخبرها بعودتهم، تمهلته بعض الوقت وفي الرابعة عصرا غادرت الغرفة شعرت بالخلج قاومت نوبة بكاء رددت وأنا أمسح دمعة انفطرت عنوة (لكن هي الحياة العمياء ووقائعها غير المحتملة) أخذت غفوة ثم دخلت الحمام وبقيت في المغطس طويلا استعيد نشاطي مفكرا في أمري فمع كل ما كنت عليه من فقدان للقدرة كنت أواصل السير بلا نهاية في مشاريعي التجارية وقد نسيت لغة العالم الذي أتيت منه (فانا ذات معطلة اجلس بين النهايتين البداية المعطلة والنهاية المعروفة والمحددة) وفي التاسعة ليلا أمن لي الفندق سائقا وسيارة للتجوال حسب برنامج سياحي أعده مكتب السفريات الذي جدول رحلتي، ولما عدت في الصباح وجدت عدداً من الاتصالات على هاتفي الذي تركته في الغرفة .

بقيت يومين أشغل نفسي بالتجول والتسوق ليلا والنوم نهارا، فأنا أعرف يوم موتي فأحببت كآبتي، اجتاحتني الهواجس فأخذت أحدث نفسي كمن تلبسه السحر وبلا حيلة وفي ذهول شعرت أنني لا أملك شيئا وقررت البحث عن من يشاركني ما تبقى من رحلتي فقادي تفكيري إلى ممثلة سينمائية مشهورة وجدتها في مطعم الفندق تتابع مع فريق عمل تصوير مشاهد فلمها الجديد الداخلية في الفندق .

في الرابعة عصرا وأنا أعيد تفحص أوراقى منتظرا اتصالا من أحد موظفي الفندق عرف رغبتى إذا بباب الغرفة يقرع كانت الفتاة، دخلت ولسوء الحظ عرفت أن سفرها بعد ساعات، طوقتها بذراعى وأنا على وشك البكاء تجاوزنا لحظة البوح في أتون تقارب لم يكن في الحسبان وهي مودعة طبعت قبلة على جبينى، ولما اختفت قلت وأنا أحرق في وجهي المقطب المرسوم أمامي في مرآة الغرفة؛ أمن الممكن أن يبلغ بي الضعف هذا الحد .

وأنا أبحث عن منشفة حمام حتى أدس جسدي في المغطس تحت وابل الماء متخلصا مما علق بي من حزن وكدر وجدت وشاحها المرصع بالخرز الملون على الأرض أخذته ودسسته في درج الكوميديون وغفوت في نوم عميق .

رن جرس هاتف الفندق أخبرني الموظف أن الممثلة التي أنهت تصوير بعض اللقطات تنتظرني في مقهى الفندق، جاء ترحيبها مزعجا ولكن تفاصيل جسدها الممتلى جعلني أتحمل هدرها وبعد تجرعها كأس المشروب الذي أحضره النادل نهضت أمسكت بكفها وسحبته خلفي في المصعد طوقتها بذراعى، كانت تقاوم بقسوة (غير أنى رغم أن الخوف ينبض في جسدي كنت أراهن على فتح مغاليقها) استمرت العبث فلامست صدرها المكتنز .

في الغرفة لوحث لها بقارورة الخمر تناولتها وتجرعت من فمها جرعات عطشى، أعرف أنها في مقابلاتها الصحفية تدعى أنها عذراء وتبحث عن زوج مناسب وأن قطار الزواج لم يتجاوزها إنما لم أترك مكانا في كيانها لم أجتاحه شبقها ومطالب بدنها توافق مع رغبتى في امتلاكها لنهني نشوتنا بعشاء متأخر أحضره نادل الغرف .

تناولنا الطعام ثم اتصلت بماتفها أخرجت من محفظتي مبلغا كنت قد عزلته في مظروف من مغلفات الفندق حسب طلب الموظف ودسسته في حقيبتها اليدوية.

في الثانية ظهرا أخبرني موظف العلاقات العامة أن موعد مغادرتي أرف ولم يبق على رحلتي بالطائرة الكثير جهزت حقيبتي ودفنت وشاح الفتاه في أحد أدراجها، وأنا انتظر السائق في صالة الجلوس وجدت الممثلة وفريق العمل يرتبون للقطعة جديدة جلست في كادر المشهد بجوار الممثلة أثرت بكلام غير مفهوم، ولما انتهى التصوير الذي لم يتجاوز دقائق لحت موظف الفندق يدفع عربة حقيبتي نحو باب الفندق الذي تقف في فتحته سيارة الأجرة لحقت به وأنا أردد بصوت منخفض؛ من قتل الأوراق سوف يحفر قبوري فأنا انتزع بعنف لقمة اللحظة الأخيرة متجاوزا حواجز الزمان حتى اركض في فضاء المكان .



الهيبة

الطائف مدينة السماء أقتلعها جبريل بعيونها وثمارها ومزارعها من الجنة وطاف بها حول مكة المكرمة ووضعها في مكانها فوق جبل غزوان حتى تكون ثمراتها وناسها حراسا للبيت العتيق الذي بناه إبراهيم عليه السلام وأسكن بجواره زوجه هاجر وابنه إسماعيل.

تبدل مكون المدينة المبني على التكامل الاجتماعي الذي تشكل ببناء السور في العصر الجاهلي في منتصف القرن الماضي، وبعد إزالة ما تبقى من السور المتهدم؛ لتضم النفوذ السياسي المبني على تميز المدينة بطقس صيفي خاص لم يسرق هذا النفوذ خصوصيتها التي كان أثرياء مكة يقصفون لهوهم في جناحها حتى لا يتضاعف الإثم .

وقلبها رأسا على عقب انتقال العسكر إليها فتبدلت خصوصيتها إلى خصوصيات متنافرة من خلال قيم ذوات الأنفار العسكريين لتوائم مع الشعور بالغرابة وقلق المنفى.

هذه الحال لم تنم في داخلي قدرة الانبعاث، فلم أبال بإشعاع التنوير الذي واكب التحولات فبقيت ذلك الطفل الساذج المتردد حتى وأنا أتجاوز العشرين من العمر ضيق الأفق فقير ماديا بمشاعر باهتة.

بعد سنة من حصولي على وظيفة حكومية بأجر يتوافق مع مؤهلي الدراسي المتوسط تشجعت والدتي على تزويجي بفتاة من الحي وافقت أسرتها أن تسكن في غرفة من منزلنا الطيني.

ومر عام فيه لم يظهر على زوجتي أن هناك ثمرة وليد قادم وعلامات حمل، فدب الخلاف، تكررت الفتنة في العام الثاني الذي فيه قمت باستئجار دور أرضي يحوي ثلاث غرف ومطبخ وصالة جلوس في بناية من ثلاثة أدوار تسكن الدور العلوي صاحبة البناية المسنة العاقر مع زوجها، والدور الثاني يقيم فيه معلم فلسطيني مع أسرته، يعمل بمدرسة في ضواحي الطائف.

في الشهر الثالث على استقلالي جاء خال زوجتي للإقامة في الطائف ومع تطلعه التجاري وفكره الانتهازي في التدخل انبت فروعاً جديدة لشجرة الخلاف الذي كانت تتدخل فيه والدتي لتقريب وجهات النظر، ولكن

الموت خطفها بعد وعكة حمى اختلف الأطباء في تشخيصها وهنا كان الطلاق.

بعد أسبوع من هجر زوجتي للدار جاءت كنت أشاهدها في مجلس أمي تتحدث كثيرا وتنشر المرح حولها تتواصل مع الجيران وتزوج أمي عنها أنها من قريتها التي ترقد ناعمة في جزء أخضر من تامة جبال السروات توفي عنها خالي بعد إنجابها لطفلة أخذها أهل زوجها الميت لما تزوجت آخر فرقته العسكرية انتقلت إلى الطائف مع باقي قطاعات الجيش.

والتحقت بالعمل كعاملة نظافة في القسم النسائي من المستشفى العسكري بعد أن وجد لها زوجها فرصة للعمل في المكان الذي يجرسه مع ثلة من الجنود، ولكن لتطلق في السنة الثالثة لعصيانها تنازل زوجها عن شيء من خصوصياته بعد تدخل رئيسه المباشر الذي شاهدها في ممرات غرف المرضى أثناء زيارته لزوجته التي تعسرت ولادتها فقد أغراه تبسطها وابتسامها وما تملك من جمال وترف في بدنها بملامستها ومحاصرتها بالهدايا التي شملت زوجها.

جاء طلاقها متوافقا مع انتقال رئيس زوجها لقطاع آخر، معه أمر بنقل زوجها معه لتكون تحت نظره واكتشفت إن زوجها أدمن تعاطي الحشيش وأن الرئيس الذي كشف أمره من خلال أخطاء وتجاوزات ارتكبتها بعد محاكمة جرى نقله لموقع آخر خارج الطائف ففقد زوجها مكانته، وبالتالي جرى فصله من العمل ليكون بعد ثلاثة أشهر طلاقه .

ولعلاقتها الجيدة داخل المستشفى ومن خلال بعض معارفها النازحين للطائف جاء زواجها الثالث من رجل بسيط له دكان في سوق الأثاث المستعمل، وبسبب الأتربة وجراثيم المواد التي يتعامل بها أصيب بمرض غريب بقي معه في المستشفى عدة أيام ثم واصل الرقاد في المنزل، مما أثر على الوضع المادي فقاومت المصاعب وأدركت مسؤوليتها .

في هذه الأثناء كانت والدتي ومن تعرف من الجيران يساهمون في تقديم العون لها وهي بالمقابل كانت تمنحهم خصوصية خدمتها في نطاق المستشفى الذي تتفرد بما تملك من روح مرحة وشكل جذاب يتقبل عبث مشاغبين يرتقي طموحهم إلى حدود انتظار الأكثر .

وذاذ ليلة والطبيب يعاين زوجها في المنزل زرع شقيق زوجها الشك في البيت الذي معه تطاولت زوجته عليها ودعمتها شقيقة الزوج العانس التي اختلقت قصة أن الطبيب أخذ أجرته العالية، شيء آخر غير النقود فباتت ليلتها وحيدة في المنزل وباقي الأيام لتسري شائعة في الحي أنها موبوءة .

تحفظت والدتي في حضورها ولكنها رقصت في ليلة عرسي ولم تهتم بما يدور فلم تنتكس روحها المرححة ولم تفقد مع السنين ترفها وظرفها ووهج الحياة داخلها لتبقى المرأة الجميلة ذات الفتنة الخاصة.

قالت: زوجي سجن منذ أمس.

قلت: وأنت.

كانت كما أعرفها منذ عشرين عاماً لم تؤثر فيها السنين ولم تفقد بياضها ووهجها.

خلعت عباءتها ونزعت غطاء الرأس ليتناثر شعرها الأسود الكثيف.

قالت: هل تسمح لي بالبقاء حتى أرتب أموري.

قلت: الأمر أمرك.

رقدت في مجلس النساء ولما نهضت في الصباح خارجا للعمل، لم أجدها أدركت أنها ذهبت للعمل ولما عدت وأنا أحمل غداء شربته من أحد المطاعم وجدتها نائمة في فراشها، شعرها متناثر. يغطي جسدها ثوب نوم حريري أحمر يبرز مكونات جسدها البض، ذراعها إلى الكتف مكشوف وجزء من ظهرها الذي يتمدد عليه خيط حتى كتفها .

تركت الغداء على طاولة الأكل في المطبخ ودخلت غرفتي ونمت تنبهت على حركتها فقممت كانت بثوبها اللدن تعد الغداء وتجهز براد الشاي جلسنا متقابلين تصدم عيوني بين وقت وآخر بصدرها المكتنز الذي يهتز مع حركتها وحديثها الذي استمر ونحن نشرب الشاي، عرفت أنها مكلفة بالعمل الليلي في المستشفى في السادسة خرجت .

وأنا أقف عند باب الدار حاملا الغداء تقدم مني.

قال: أنت منذر.

قلت: نعم.

قال: أنا زوج خالتك هذا الصباح أطلق سراحي بكفالة.

قلت: الحمد لله على السلامة.

دعوته للدخول فتحت باب المجلس مرحبا به، تركت الغداء على الطاولة ووجدتها نائمة وقد انحسر ثوبها عن فخذها وتناثر شعرها، جلست على مبعدة لتأملها متحرجا ملامستها حتى تقوم كانت ثواني مرهقة تعالت فيها أنفاسي مددت كفي أربت على كتفها العاري تحركت وفتحت جفنيها.

قلت: زوجك في المجلس.

قالت: من؟

قلت: زوجك.

كان زوجها السادس تركتها ودخلت غرفتي وحديث الاثنيين يصلني، نمت لأجدها تجلس على طرف الفراش والغرفة تشع بنور ساطع .

قالت: تشبه خالك.

قلت: أنا لا أعرفه.

قالت: نحول جسمه أصابع كفه كل ما فيك منه.

قلت: كيف مات.

قالت: نصيبي في الدنيا الذي مازلت أقاوم فقده.

قلت: والآخرون؟

قالت: حتى أبقى وفية له.

مددت كفي احتضن كفها الرابضة بجوارها فوضعت كفها الثانية عليها سرى في بدني تيارها الكهربائي، قامت وسحبتني خلفها لنتناول طعام الغداء الذي جهزته عرفت إنها اتفقت مع زوجها أن يأتي لأخذها بعد ترتيب أمر بيتها الذي أفلتته بسبب مطالبة صاحبه بأجرته المتأخرة وتكرار حضور أحد رجال الشرطة .

تركتها في المنزل لقضاء بعض المهام ولما عدت في التاسعة ليلا وجدتها قد أحضرت طعام العشاء وتجلس بثوبها الحريري الأحمر أمام التلفزيون كنت أقارنها بممثلة لفتت نظري في مسلسل عربي يتم بثه بعد أخبار التاسعة ليلا في القناة الأولى في زمن غابر .

بعد شرب الشاي تحدثت كثيرا عن زوجها السادس الذي تراه يشكل امتدادا للجدار الواقعي من كلام الناس، وعادت للحديث عن خالي وابنتها التي تزوجت منذ سنتين، حولنا غمامة بيضاء وتراويل ملائكة نورهم في عتمة الغرفة يتعمد علينا كفها تلامس كفي ونظرنا مركز على شاشة التلفزيون نام رأسها على كتفي أنفاسها تنصاعد صدرها مساحة من البياض تدفعني للركض، طوقتها بذراعي تلاقى رغباتنا دفنت وجهي في شعرها رائحتها العبقرة ترغمني على الاقتراب أكثر مدت أصابعها فأغلقت التلفزيون نور وهاج يتسلل من باب المطبخ يمر بجوارنا إلى البعيد السكون يلفنا وأنفاسنا تنصاعد متعانقة، كفها تتجول بترف على جسدي كل أبوابها تفتح ونوافذها تستقبل تسلي المرتبك بسكينة تجرفنا رياح عاصفة فاجأني ضحكها الصახب .

قالت: إنك هو.

قلت: من؟

قالت: خالك الآن أشعر إني فقدته.

قلت: أتخبينه بهذا القدر.

قالت: نعم روحه هي التي أبقيني صامدة.

قلت: هذا ما أراه.

قالت: واليوم تجدد فيك (وبصوت متهافت يقطر حزنا وتعبا) لكنه انسل من داخلي حتى يمنحني إذن الرحيل.

التحمننا من جديد ترفها وإحساسها بالفقد لم يترك للنوم مكاناً حتى اقتحمننا الإرهاق لأتنبه على صوت جرس المنبه جسدي مغطى باللحاف قاومت التعب ودخلت الحمام استعيد نشاطي بالماء، وفي العمل لم يهتم الزملاء بتأخري وأنا أنجز العمل المعتاد، وفي الطريق شريت طعام الغداء تركته على الطاولة متوهما أنها نائمة، فدخلت غرفتي ونمت لأنهض مرتبكا على قرع الباب كان زوجها أدخلته غرفة الجلوس واتجهت للغرفة حتى أبلغها بمقدمه لم أجدها عدت وأخبرته.

نهض وهو يدعك جبينه محدقا من بين أصابعه في وخرج، دخلت المطبخ كان الغداء في كيسه وصحنه الورقي قد برد، أعددت كوبا من الشاي وجلست أمام التلفزيون أتابع ما تبقى من أحداث مباراة كرة القدم مسجلة في الدوري العام.



العاين

تمت محاصرتي في المنزل بعد اجتيازي مرحلة الدراسة الابتدائية وفشلي المتكرر في المرحلة المتوسطة بحثنا عن رجل مناسب، وفي هذه القيود التي معها غدوت انطوائية وجدت المتنفس؛ عبر قريبي القادمة من الطائف الطالبة بالجامعة التي تنام عندنا هربا من السكن الداخلي، وحتى تقابل بعض أفراد أسرتها في زيارتهم للتسوق وعلاج مريض.

ذات ليلة تركت قريبي فراشها الممدد في زاوية غرفتي والتصقت بجسدي، شيء من الابتهاج تسلل إلى كياي فاعتدتا أعوام أربعة بوعي الأنا، وعند تخرجها أخبرني بأنها سوف تتزوج وتساfer للدراسة، بكيت طويلا فقدها.

في محل خياطة ومستحضرات تجميل لفت نظري إعلانه المتكرر في الصحف عن تطوير مهامه، التقيتها نظرة النعيم في وجهها، حسنة الخلق بضة منخفضة الصوت، تحدثنا كثيرا عن موديلات الملابس وطرق إبقاء البشرة حية وجاذبة؛ كان اقتحامها حياتي بدايته تدخلها في عراك اصطنعته مع عاملة تسرح شعري وتعلم أظفري، رفضت ملامستي عندما ألهبت أنفاسها شبيقي الساكن. فأكملت إعدادي لحفل زفاف مدعوة لحضوره، وهناك وجدتها فواصلنا حديثنا العفوي المباشر والصادق.

بعد عام من اجتياحها لجسدي متوهمة أنها أرملة. وان كان الجميع يعرف أن زوجها الموظف الحكومي الكبير في السجن منذ سنوات خمس لقضية سياسية فصل بسببها من عمله وأغلق منزله، وجرى التحفظ على حسابه المصرفي، معها تعرفت على مسئول كبير في الشرطة اتخذها عشيقته، ولما تطاول غياب زوجها أسست المشغل حتى تنفق على ابنها وتستثمر وقتها.

استغربت كرهى للذكور؛ ولم تستوعب أن أشعر بعقده نحوهم سببها حجر والدي ثم إخوتي علي، حتى لا أتزوج من خارج العائلة، ورفضهم مواصلة دراستي وفكرة الانتماء للجمعية النسائية الخيرية وزاد استغرابها أنني تجاوزت الثلاثين من العمر، فارغة لم أتمتع بلذة الجنس الآخر، فكنت أذكر أسماء بعض صديقاتي من محيط الأسرة.

ذات ليلة وهي في فراشي رن هاتفها النقال كان صديقها رجل الشرطة يجبرها بمقدمه، تجهزت للخروج فلحقتها أتوسل بقاءها، أخبرتني أنه يحمل أخبار سارة عن التحاق ابنها الحاصل على الثانوية العامة بالجامعة في الرياض.

لا أدري لم طلبت منها أن أرافقها ثم أقنعتها بدعوته للحضور فأنا أسكن بعد وفاة والدي في شقة رحة بالدور الرابع من بناية أمتلكها مع إخوتي، ويشغل أحدهم الدور الأرضي بمتجر لبيع الأدوات المنزلية وجزء من الدور الأول مكتب لإدارة أملاكنا؛ ولن يعكر سهرتنا أحد.

جاء صديقها بعد شرب الشاي والتبسط في الحديث، دخل الاثنان غرفة النوم وبقيت أمام التلفزيون وإذا بها تطوقني بذراعيها وأنفاسها تلفني تحرك نبضي، وأخذتني إلى الغرفة التحمت بي تهيج ما تبقى من كوامن تناسيت أن الغرفة رجلاً وفي عنفوان لحظاتنا؛ إذ به يفتحهم الحصن ويشرع أبواب المغلق فأخذت أبكي.

بعد أيام جاء اتصالها تعاتبني على غياب تلاطم فيه الحس المشترك مع اليأس، فأنا أعتبر نفسي مسئولة في تقبل الأمر كما أني مستعدة لتحمل اللوم، زرتها في المحل التجاري داعبتني بلامستها الطيارة لتسكن خوفي فتجاوزت هلمي وهي ملتصقة بي في سيارتها متجهين في أول زيارة لمنزلها.

تعودت إباحة جسدي لمن أجده عندها في لقاء تنزاحم فيه رغباتنا، متجاوزة رهاب الرجال فأصبحت أواجه إخوتي في مجلس الأسرة وأعارضهم في قضايا كنت لا أتدخل في مناقشتها.

توفي زوج صديقتي، وأنا أواسيها قابلت ابنها الذي أشاهده لأول مره منذ تعرفي عليها وأخبرتني أن صديقها رجل الشرطة عين سفيرا في إحدى دول شرق آسيا.

ذات صباح لمحت في مدخل العمارة فتى ملتحم يتصفح إحدى الصحف، أخذ يتابعني بنظره حتى ركبت عربتي وعرفت أنه يلاحقني، أمرت السائق بالتوجه إلى محل صديقتي التجاري أعرف أنها في هذا الوقت غير متواجدة، ولكن خوفي جعلني أزعم خلوتها.

قالت: أنها اعتادت هذه المراقبة في بيئة تجعل المرأة مسحوقة اجتماعيا.

جاءت وبدلت ملابسها خرجنا ركبت سيارتها وعدنا إلى شقتي.

سـمـيـة

نفتش عن بعضنا الآخر، نحدق في فضاء من الوقت نرى في كل يوم عاما؛ ونحس أن ما نخشاه في عظامنا هو الكذب ينثرنا عبر متاهات أزلية تأتي من الضياع حيث نموت ببطء؛ أي ومض أعمى يمزق لوعيي دونما قبل أو بعد أو متى لا يتخلى ولكن أقف منه على الجانب الخطأ من المرأة وهو يتدع أعاجيب البهجة المرتقبة.

متحذلق اعتاد الكذب وابتداع الحكايات المسلية التي تفضح حالته النفسية المهزومة بالإثم والضياع الذي ترسب في أعماقه لفشله، الإدغام في مجتمع يعامله بدونية وعلاقته الملتبسة بمن حوله؛ ومن هنا جاء ليكسب ودي وقد تخلى الجميع عنه، المرة الأولى حضر برفقة مندوب مؤسسة للنظافة والصيانة جرى التعاقد معها كمتعهد للنظافة؛ كمراقب على عمال النظافة في دائرتنا بالطائف بصفتي مديرا لقسم الصيانة، فأنا حاصل على دبلوم تمديدات كهرباء وتشغيل مكيفات من مركز التدريب المهني، وحجم العمل أكبر من مؤهلي في نظره.

وبعد شهر وبينما هو جالس يحاورني في العمل قال: انه قدم للعمل سائقا عند زوج أخته في مدينة مكة المكرمة فلم يطب له الاستمرار لعنت وقسوة الكفيل عليه وعلى أخته وقرر العودة لبلاده.

قال: لولا تدخل أختي التي سعت إلى نقل كفالتي لسيدة تعمل مطوفة للحجاج؛ كنت أوصل ابنتها لكليتها في الجامعة.

وفي يوم آخر طلب قرضا حتى يسدد قسط إيجار بيت أخته الثانية التي يسكن معها، فزوجها الذي يعمل ممرضا وسائقا بمركز طب أهلي يتحكم في نشاطه طبيب وافد وزوجته الممرضة راتبه لا يغطي حاجاتهم.

تكرر حديثه عن مشاكله وسوء الحظ حتى بعد استغناء متعهد النظافة في الإدارة عن خدماته بعد تدمير العمال المتكرر منه؛ فتنتقل في عدة أماكن، كان ينقل لي أسرارها ومعاناته وهنا دعاني لشرب فنجان شاي في منزل أخته، فاجأني الشكل، هيفاء ممشوقة رخيمة الصوت لونها الأسمر مائل للبياض، تغطي جسدها بثوب حريري لدن طويل، كمة الواسع إلى المرفق، لونه عشبي يوشيه خط زهور حمراء من الأعلى حتى مقاربة طرفه

الأسفل، يبدأ من فتحة الصدر والثاني من الخلف؛ لم يكن هناك أحد سوى ثلاثتنا، فزوج أخته يستلم دوره في المناوبة الليلية وسوف يبقى في العمل حتى الثامنة صباحا، ثم اختفت سمية ليتحدث عن كفيته التي قررت أن تنهي إقامته وترحيله.

طلب مني نقل كفالته ودفع رسوم النقل وأجرة تنازل كفيته التي اتصل بها وطلب مني مخاطبتها وأقنعته بالتنازل عنه، وتفاوضنا في قيمة الإجراء، عرفت أنني أكلمها من هاتفه فطلبت رقم هاتفها للتفاوض ومعرفة شروطها، كتبت شيك بالمبلغ في اليوم التالي وغاب عني طويلا.

قالت كفيته وأنا أكلمها صباحا من المكتب: انه مخادع !

قلت: ولم كفلته؟

قالت: حتى توافق أخته على ابني زوجها لبنتها.

قلت: وبعدين.

قالت: لما كفلته وأقام في غرفة حارس العمارة جاء أحد أقاربهم وتزوج البنت.

قلت: وولدك؟

قالت: وفقه الله بينت الحلال لكن.

قلت: لكن؟

قالت: الملعون حاول إغواءها وقال أحد الجيران: إنه رآها تخرج من غرفته.

قلت: وبعدين؟

قالت: لما عرف أننا كشفناه هرب.

وجاء صوته عبر الهاتف يخبرني بمقدم والدته للحج، وأنه استطاع إحضارها للطائف لقضاء بعض الوقت؛ وبعد أيام كان يجلس قبالي في المكتب لأمر هام، أخبرني أن موعد سفر والدته أرف ولا يعرف كيف يوصلها إلى

جدة لتسافر مع جماعتها، كنت أتوقع أن يطلب سلفة من النقود لتجهيزها، ولكن فاجأني بطلبه قيامي بالمهمة وأن أخته سمية سوف ترافقنا.

عند باب المنزل عصرا وجدته، ولما ركبت المرأتان وعفشهم عربتي اعتذر عن مرافقتنا بدعوى أن الرجل الذي يعمل عنده لم يسمح له، وأن أخته تعرف المكان، منزل شعبي في شارع بن لادن من حوار الطريق، عرفت انه يهرب من شيء؛ لما وصلنا جدة قالت: إنها سوف تبقى حتى تسافر الحاجة التي لم تشاركنا حديث الطريق، فاتجهت إلى البحر وأمضيت وقتي في متنزه ومطعم اعتدت زيارته كلما قدمت إلى جدة.

أحضر لي مشهداً موقعا بالتنازل ونقل الكفالة من كفيلته، ويسعى مع مكتب خدمات بجوار الجوازات لنقل الكفالة، وانشغلت بأموري لينبهني هاتفه من قيلولتي بأن جاره الذي يسكن الدور الأول من العمارة التي يسكن دورها الثاني سوف يسهر عنده، ويدعوني لمشاركتهم العشاء.

في الثامنة ليلا كنت أطرق الباب، وجاء صوته من عند باب جاره، كانت المناسبة غير معروفة، ولكن قال إن جاره لما عرف أن أخته غائبة فضل أن يستضيفنا.

قال: (وصاحب الدار في المطبخ يحضر الشاي) ما رأيك في الولد؟

قلت: أي ولد؟

قال: اللي في المطبخ.

قلت: شاب.

قال: بس زوجته هجرته.

قلت: ممكن يكون سيئا.

قال: بعد عام لم يفجر مكنونها.

قلت: غريب.

قال: أبدا الولد مثلي.

قلت: (مرتبكا) نعم؟

قال: ألم تلاحظ ثوبه الحريري الضيق وشفا يفه ووجهه؟

قلت: المعنى.

ابتسم ولأن الأمر مقزز شعرت بالغثيان، زاد قلقي وشعرت أن النقص في حالة الوحدة ينبغي تحمله خلال اللحظة، ففقدت اعتدادي بنفسي وبداي مليئتان بالغبار استأذنت، نزل معي حتى أوصلني للسيارة، عرفت أن أمه سافرت وأن زوج أخته غائب لإحضارها.

لم يتوقف عن الاقتراض ولم يخبرني بما تم حيال نقل كفالته، ولكن رجاني نقله وأخته إلى مكة حيث إن زوج أخته الأولى مريض ويرغب في زيارته، لما وصلنا مكة تركني مع أخته في المنزل وركب مع أخته الأولى لزيارة المريض في المستشفى.

لما أحضرت الشاي سألتها لمٌ تذهب معهما للمشفى؟ فابتسمت وهي تشير إلى الداخل لم أفهم أمسكت بكفي وأخذت فنجان الشاي الذي لم أتذوق؛ وسحبتني خلفها لأجد رضيعا وآخر في الرابعة نائمين؛ تلاققت نظراتنا وشيء تشكل في تلك اللحظة، معه اختفى الكون فاختلطت وتلاققت رغباتنا تداعى المكان فسقطت عبر اللاهثاية.

اعتبرت أن في الأمر إساءة، واجتاحني غضب جعل عظامي تصطك، لما عاد الجميع من المشفى عدنا للطائف وقد تيقنت أنه عرف أنني قمت بشيء، شعرت أنه يعنفني من غير أن استحق ذلك، التصرف كان سخيفا فابتسامتها حارة كقبلة والضياء يغمرها.

ماذا كانت تفعل وماذا كنت افعل؛ وسط هذه الخلوة الغرامية، فران الصمت الذي نقطعه ببعض الكلمات المبعثرة لإزداء الوقت ووحشة الطريق، بدوت مذهولا تحت وطأة سحرها؛ عرفت فيها إن أخته الأولى حصلت على الجنسية السعودية. وأن أخته الثانية سمية قدمت للحج منذ أعوام ثلاثة، وهي متخلفة بدون إقامة وأن زوجها لم يتمكن من ضمها لإقامته لرفض المركز الطبي منحه الموافقة.

بعد عام من الكذب عرفت أن من يدعي أنها أخته إنما هي زوجته وهو يرجوني كفالتها؛ فقد أعلنت وزارة الداخلية تعديل أوضاع المتخلفين من العمرة أو الزيارة والحج، فكان علي زيارته في المنزل لمعرفة المطلوب، جاءت وعلى وجهها ابتسامة صغيرة لامست بحدوء وثقة كفها كفي وتلاقت نظراتنا وهي تتداخل بنعومة في الحديث، طامسه تذبذب مع الخطر حتى تطوف في داخلي ذاتها ليتحقق اتفاقنا في حل مشكلتها، إنها تختبر صمودي وتمتحن ثباتي بعد أكثر من عام على مغامرة نسيت تفاصيلها شيء تسلل إلى أعماقي.

واصلت تهربي من دعواته للسهر أو تناول طعام سمية التي تحمله رسائلها لمعرفة أحوالي حتى كانت رحلة أخرى إلى جدة ترحلت فيها سمية عند جماعتها حيث قدمت والدتها للحج، وطلب مني إيصاله لمنزل أخته في مكة التي توفي زوجها منذ شهر.

قدمت واجب العزاء وتعرفت على ولدي المتوفى، الأول في المرحلة الجامعية والثاني في الثالثة متوسط وبناته الثلاث الكبرى قدمت من الرياض مع زوجها والثانية في الثامنة والثالثة في الرابعة، الأم في ثوبها الأسود يزيد من سمرتها وانكسارها، كل شيء حولي يشعري أن مرافقي غير مرغوب فيه.

شعرت بالقلق فقامت مغادرا، لحق بي ترافقه أخته إلى الباب، نحيلة بشرتها السمراء تمنحها طاقة تتفجر أنوثة وغواية، شددت على كفي ممتنة زيارتي، لحت وأنا أصهر كفها ابتسامة صغيرة على وجهها، أخرجت من جيبي بطاقة تحمل اسمي وأرقام هاتفي قدمتها لها تركنا أحوها مقتحما الشارع ليقف بجوار السيارة، نهمهم بكلمات مبعثرة نستعرض بفضول تتغصن ملامحه بلحظة صفاء في أمرها.

بينما كنت أقوم بعمل رن هاتف المكتب لم اعرف المتحدثنة وبين الاعتذار والتردد عرفت أنها زينب أم بكر، أيضا لم اكتشف من تكون وجاء صوته يخبرني إنها أخته جاءت لقضاء أيام في الطائف وترغب في لقائي لأمر يخصها.

كانت أكثر بهجة وهي تحدثني بأن ابنها بكر تخرج من الجامعة، وأنها تبحث له عن عمل وان ابنتها المتزوجة سافرت مع زوجها الذي انتهى عقده مع كفيله ورجع للبلاد لفتح مكتب خدمات عامة طال جلوسنا للعاشرة ليلا ولما هممت بالمغادرة شعرت إنها تخفي أمراً فلم اهتم.

جاء كما هي عادته، أخبرني حاجته لقرض مالي، ورن الهاتف كانت أم بكر همست تطلب مقابلي، ترددت وأمام نظراته أخرجت من جيبي نصف المبلغ الذي طلب فتركني أوصل حديثي جاء إصرارها مريبا فلم أتوان من إخبارها بموافقتي.

قالت: أنتظرك الرابعة عصرا في المركز التجاري بالشارع العام.

قلت: لن أتأخر.

لما أوقفت عربتي أمام المتجر المغلق لصلاة العصر لختها تخرج من شارع جانبي، فتحت باب السيارة لها تلفتت حولها وركبت لم تنبس بكلمة حتى غادرنا الحي كشفت وجهها. لا أدري لم شمت عرقها بدلا عن عطرها، ولم أتنبه للأصباغ التي تلون وجهها تطاول الصمت فتوقفت عند بقالة إحدى محطات الوقود لشراء مثلجات ومكسرات، ولما عدت كانت قد تخلصت من عباءتها فبدا صدرها الصغير وبنطالها الفضفاض الفاخر، وأيقونة صغيرة معلقه بسلسلة من الذهب تتدلى على فتحة بلوزتها البيضاء.

لم يعينني التفكير فاتجهت إلى ارض امتلكها في شمال المدينة بمخطط الغرفة التجارية في حي الحلقة الشرقية قمت بتسويرها اخزن بها أدوات كهرباء ومعدات سباكة؛ لمتجر في شارع عكاظ تشاركني فيه عمالة وافدة ترخيصة باسم أمي. وبناء غرفة بمطبخ وحمام بشكل مبعثر حتى أتمكن من بناء منزل العمر عليها، ترجلت وفتحت باب السور حتى أدخل السيارة، ولما توقفت عند مدخل الغرفة ركزت نظري عليها اعرف حتى آخر نبضة في قلبي أن ما أفعله لم يكن الصواب ابتسمت؛ حملت مشترياتي ودخلنا الغرفة التي تناثرت محتوياتها بين تلفزيون صغير حوله أربعة مقاعد بينها طاولة وصحف وكتب وملابس وفي ركن انتصب سرير نوم مفرد.

جلست على المقعد المزدوج فجلست بجوارها أشعلت التلفزيون كانت أخبار الخامسة تابعا مجرياتها ونحن نهمهم بجمل متقطعة وجاء فاصل غنائي.

قلت: المطرب الذي يعني المفضل عندي.

قالت: حتى أنا.

قلت: أغانيه تدعو للرقص.

قالت: سوف ارقص.

أخذت تتثنى على أنغام الموسيقى رقصها المثير بدل رتابة وتحفظ المكان؛ وأنا أحضر المنلجات والمكسرات أغلقت باب الغرفة واقتربت منها أمسكت بكتفيها فرفعت رأسها أنفاسها تصهري واندمجنا في قبلة طويلة، العرق منا تصبب، تدافعت في أعماقها ولما هدأ عراكننا أغمضت عينيها وهي تغمغم بكلمات لم استوعبها.

سبقتني إلى الحمام، سمعت الماء ينسكب؛ أخرجت زجاجة مشروب مسكر أخفيها في مكان آمن بين قناني ماء في براد متهالك بالمطبخ انتصبت على الطاولة بعد تجرعي من فمها قطرات أعادت الاستقرار إلى ذاتي المتوترة؛ ولما فتحت باب الحمام ترتعش وكأن الموت يهددها تلمع ابتهاجا بسوادها، دثرتها بملاءة سيرير مطوية بيضاء اللون صقلت سمرتها وشكلت تكويناتها الجسدية، راسي ممزق من الهواجس أتبع المياه والرياح الهادئة.

قالت: لمن المكان؟

قلت: لي.

قالت: وهي تدعك ساقبها وهل تقيم هنا؟

قلت: اسكن في شقة بعمارة أمتلكها مع أمي في وسط المدينة.

قالت: وهل هناك شقق أخرى؟

قلت: نعم ثلاث مؤجرات.

قالت: لم لا تؤجر أحداها لأخي وتستفيد من خدماته؟

لم أرد مستمعا لرنين هاتفني فالأصدقاء يبحثون عني. أعرف أنهم يرتبون للقاء احتفالي بعودة أحدهم من رحلة عمل خارجية؛ أهملت الرد عليهم مكتفيا بتأملها مترقبا تجرعها لكأس أعددته حدقت فيه مليا ثم ازدردته مبتسمة، ظننت أخيرا أنني لن أستطيع أن أحتمل الحياة، أو أطيق الناس وأخوالي يرفضون الاعتراف بدور أبي في حياتهم فهو حضري مجهول النسب. بينما هم ينتمون لقبيلة وجماعة تملك الأرض والاسم؛ تربض

مساكنهم بين الجبال في قرية يفصلها عن الطائف أكثر من مئة كيلومتر، يمر بها الطريق السياحي المزفت المتجه إلى بلاد زهران وغامد، كنت اشعر بالخجل فلم أشجع والدتي على اختيار زوجه من بينهم تاركة الأمر لي فقد أجد بين رفاق العمل من يرحب بي؛ فأنا أتنفس بعمق وقوة حتى أتجاوز الاضطرابات التي تموج في أعماقي.

قلت: اتصالك جاء فيه أنك تحتاجيني في أمر.

عرفت أن ابنتها المسافرة لم يناسبها الوضع وترغب في العودة لكن زوجها يرفض وتطلب مني مساعدتها.

قلت: هل ابنتك سعودية؟

قالت: نعم ومولودة في مكة.

قلت: وزوجها؟

قالت: ابن خالي جاء للدراسة في الجامعة الإسلامية بالمدينة.

ليقطع جرس الهاتف حديثنا، كان أخوها يبحث عنها، في الطريق وعدتها أن الحل قد يكون بيدي إنما يتطلب اتفاق ويحتاج إلى وقت.

قالت ونحن نقترّب من مسكن أخيها: هل امتزجت سمية؟

السؤال المفاجئ أجم لساني، حدقت في ثم ابتسمت؛ سؤالها عاد لينظم نفسه داخلها، صلحت غطاء وجهها وتدفرت بعباءتها ولما وقفت أمام بوابة المركز التجاري التي شرعت تعج بالمتسوقين الباحثين عن حاجاتهم في ليلة شتاء معتدلة، غابت فيه بشائر الفرح والحياة اللاهثة المتفصدة عرقاً للانقسام والتكاثر بسبب زمن توزع بين الفاقة ونداء مجهول المعالم؛ أمرتني بالوقوف أمام بوابة المنزل فسمية وأخوها يعرفان أنها معي وينتظران موافقتي على سكنهم في شقة من عمارتي.

تكرر اتصالها الذي عرفت معه أن أحد الأمراء كان يقنص في بلادها استعان بزواج ابنتها في تجهيز رحلته، فلما اطمأن لسلكه استقدمه لرعاية إسطلب خيوله والإشراف على مزرعته في الدرعية.

كما عرفت أن المرأة التي تكفل أباها توفيت وان أباها نقل كفالته لصاحب مدرسة أهليه بالطائف متزوج من ابنة المتوفاة.

هنا أخبرتها بإخلاء إحدى شقق عمارتي لسكنى شقيقها.

قالت: لكن سمية من يومين أنجبت ابنا الأول.

قلت: لم يخبرني أخوك.

قالت: انشغل بعمله الجديد الذي لن ينجح فيه.

قلت: اعرف ولكن سكناه في الشقة يجعله يستقر نفسيا.

قالت: من؟

قلت: أخوك غريب الأطوار.

قالت: هل عرفت أنه أعراي بمعاشرتة فلما كشفه زوجي هم بترحيله.

قلت: معلومة جديدة.

قالت: اعرف انك ترعى أمك العجوز.

قلت: أجل ومعظم وقتها عند أخوالي في القرية.

بعد سنوات خمس من الحذر جاءت سمية لم يتغير فيها شيء، إنما زادت بهاء وضياء، اهتمت بخدمة والدي؛ عنايتها خلق نوعا من العطف في أعماقها.

وفي الليلة الثانية لسفر والدي إلى القرية حيث تشعر بانتمائها وحربتها بين المزارع ومكانتها بين أقاربها؛ جاءت سمية تتفقد حاجاتي، كانت تقف في فتحة باب الشقة تنتظر إجابتي، كانت تبدو لي وقد تغيرت كثيرا متبقة توهج تملك قوتها وحضورها في وعي.

اقتربت منها وسحبتهإلى الداخلأغلقتالبابزادتسمنتهاوتشكلجسدها نداوةوطراوة. تذكرت
امتزاجنا أول مرة، أشعلت نيران رغباتها، أثرت شبقيا واستجمعت قواي فتخالطت مطالبنا، حصرت نفسها
ضمن بوتقة تشظت سعادتها فتفطرت لحظات شغفة.

قالت: آه كم أنا متعبة.

قلت: كنت مذهولا تحت وطأة السحر.

قالت: عليك أن تحترس.

قلت: ساعديني وحاوولي أن تفهمي أكثر لا أحتمل الجهد العقلي.

قالت: انك تهذي.

قلت: لا تخافي.

تشكلت من الملاحظات المعتادة التي لم تحمل شهادة حب متسلط عليها لكن الرغبة تبرز مقدار الجفاف
الذي يمتح من نسيج النار اللاهبة واللمعان الخادع دفعها بعد تجاوز شعور انتابها بأنها منقسمة على نفسها
إلى البقاء بجوار رجل فقد ظله.

قالت: هل أصلح لك شاي؟

قلت: نعم.

دخلت الحمام ولما انسكب الماء على جسدي دندنت مترنم بأغنية من أغاني مطربي المفضل، ولما فتحت
الباب لمحتها تضع براد الشاي على الطاولة في غرفة التلفزيون كانت تدندن ذات الأغنية.

قلت: حتى أنت؟

قالت: نعم.

قلت: تعشقين مطربي المفضل؟

قالت: مصادفة فقط.

الله اعلم أي قصة نسجها ذهنها لما لامست كفي العابثة مؤخرتها عند الباب وأنا أمرر كفي على شعرها المتناثر لثوان فارغة، العرق يخز حاجبها بينما أصابعها الباردة تقوم بدسه تحت منديل أصفر موشى بالخرز الملون تلفه حول رأسها، ضغطت طرف المنديل على شفيتها.

قالت: وهي تحدق في فضاء الدرج هو يفضلها.

قلت: وغيره.

قالت: توقعت أنك تمارس الفعل الشاذ.

في تجليات أمي التي تطفح على السطح عندما تجدني أتابع باهتمام مشاهد فلم أجنبي تعرضه إحدى محطات التلفزيون همهمت، أن معمر لولا لونه الأسمر يشبهني كررت هواجسها بصوت مرتفع، فتوقف اهتمامي وركزت نظري عليها لتأمل تجاعيد الزمن وشعرها الأبيض المغطى بشال أسود لم يكن يشبه أي شيء.

قلت: معمر.

قالت: نعم انه أنت في طفولتك.

وارتفعت أنفاسها خفضت صوت التلفزيون حتى لا أزعج غفوتها التي تطول حتى أنني سهري؛ فأقودها لفراشها.



أسكت يا الخبل

سنحت فرصة اللقاء، الذي معه أعلن مطالبي التي اخترلتها بعد مشاورة رفيقة الدرب في مطلبين، منحة أرض لبناء منزل لسكن العائلة، وأمر علاج لابني المعاق يخفف وطأة المصاريف.
وأنا في طابور السلام، شاورت بصوت مسموع الذي أمامي، أيهم أهم العلاج أم السكن، لكزني الذي خلفي وهو يقول: أسكت يا الخبل سلم وامش.



السور والكتب

عندما تمدد السور حائلا بين فرحي بالنجاح وغدر غسان الذي مزق روحي؛ وقفت في نافذة غرفتي الغارقة في الظلام أتأمل الأشياء التي كنت أراها بيضاء شفافة، فتحولت إلى الفراغ، التردد التخبط وتحسس الفروق. سورنا المحيط بالمنزل أجده اليوم أكثر علوا، كتي وأوراق المبعثرة على المكتب والمرتبة حسب فهم الخادمة في أدراج دولاب الكتب بالغرفة لم تعد تثر اهتمامي وقد أجابت بجياء على أسئلي.

شعرت بالحزن الذي معه توقفت عن الرقاد عارية في فراشي؛ عندما كنت صغيرة عرفت روحي. وعندما كبرت اكتشفت جسدي: الحب للروح والشهوة للجسد فمنحته ثقافتني ووعي وقدمته لغسان بتوحيدي الخاص بسره ووجده وقلبي ومعه بدأت الأمور تتداخل؛ أخرجني صراخه. الأكبر في فضاء منزلنا الكبير، يزف خبر تعييني معلمة بمدرسة في ضاحية تبعد عن الرياض خمسين كيلا.

في الطريق إلى المدرسة كنا أربعاً ثلاث معلمات جدد، تباينت ألواننا انتماءاتنا الاجتماعية ثقافاتنا، وسائق أسمر اللون تعاقداً معه على نقلنا للمدرسة، ذات اللون الأسمر يسم الرابعة أخته سعاد تعمل موظفة إدارية بالمدرسة منذ عام، تطبع الخطابات وكشوف الطالبات على الحاسب وكل ما يتعلق بالمدرسة التي شاركت في تأسيسها.

اعتدت أنفاس زميلاتي كما لم أقاوم بهجة تعانق أصابعنا كتعبير نزق وثورة شبق ليلي في المقعد الخلفي للسيارة، في كل مشوار نقطعه، كان غسان يعربد في داخلي، لم تصل ثرثرتنا في الفصل الدراسي الأول إلى الغوص في ذاتنا، حتى جاء يوم عدنا فيه من المدرسة في التاسعة صباحاً وقد أنجزنا عملنا فسمحت مديرة المدرسة لنا بالخروج قبل انتهاء وقت الدوام، قالت أحداً لم لا نقضي الوقت المتبقي في التسوق.

اعتذر السائق عن انتظارنا وسعاد عن مشاركتنا جولتنا الحرة؛ ونحن نتجول تذكرت أنني نسيت حقيبتني في السيارة، ارتبكت كثيراً فبين أوراق صورة غسان مع برج إيفل، فرحنا ونحن نتجول ثم نشرب القهوة في مقهى المركز التجاري خلق الأمان.

مريم تتجلى . . كانت تأتي مع صديق وهي ترتب لمشروع زواجها، راشف من منهل الحب الذي سكبها عليها، ولما وصلا مرحلة التوحد أخذها إلى منزل أسرته المسافرة لحضور مناسبة في جدة. . لا تدري كيف انقادت إنما تحكمت أنفاسه وقبلاته في لحظة عناق في جسدها وسالت الرغبات فكان الغرق.

ولما لم أجد من الكلمات ما يعزيها؛ طفا غسان على السطح كنت جري لأتسلق عامله، جملة رصيدي نشرات وكتب صغيرة تتحدث عن النار منتظرة رقدة موتي، وعن الحياة أبحث من خلالها عن نفسي المتنقلة بين الظلام والنور تحت رعاية أمي وأي ونشاط ثقافي بالمدرسة والكلية نمت فكري، وبمشاعر صافية ونقية يسوقني قلبي صوب مغامرة مبهمة . رسمت كل شيء بمهارة والخروج عن النص يعني تفلت حياتي مني الواحدة تلو الأخرى؛ أخذ يوجج اللهب في بدني فاعتدت الرقاد في فراشي عارية، أتحمس شفاهي وأداعب جسدي بأصابعي.

قالت مريم: لم أفقد شيئاً برحيله، فأنا متفوقة في الدراسة وبجانب أمي الأرملة الغنية بروح العطاء ودهشة الأمومة؛ التي لم تتزوج حتى تحافظ على تركتنا وارثنا من أبي. راتب تقاعده الوظيفي يفي ومنزلنا الرحب فيلا حكومية في حي الملز الجديد حصل عليها والدي بصفته أحد كبار الموظفين، أنا أحد أولئك الهائمين على الأرض والبنيت الوحيدة مع ثلاثة ذكور ابنتان لدراسة الطب والهندسة في أمريكا، والثالث دخل الجامعة . . سوف يتخرج السنة القادمة.

في الصباح عرفت إن حقيقتي اقتحم سرها، لم ارتبك واعتبرت الأمر يندرج تحت مسمى العادي ما دمت لم أفقد شيء مدركة أن التفاصيل سوف تورق، في نهاية الفصل الدراسي الثاني اتفقنا على أن نبقي في مدرستنا وأن نسهر معا ليلة في كل شهر بالمنزل أو في أحد المطاعم، فكان الاتفاق على أول لقاء بمتنزه ومطعم عائلي في طريق الثمامة، جاءت رباب لأخذي بسيارة أسرتها كنت أرتمي (بجامة) نومي.

بعد شرب الشاي مع والدي أخذتها إلى غرفتي، جلست على طرف السرير؛ أخذت أحد أثوابي من خزانة الملابس ودخلت الحمام حتى أبدأ ملابسني كان الباب مواربا حتى لا ينقطع حديثنا، وأنا شبه عارية فتح الباب توقفت عن الحركة كانت رباب تحديق في جسدي، اقتربت اكتشفت بشرتها الناعمة وشفيتها الرقيقتين، كانت جسدا رطبا وجائعا. تنداح في الذوبان بينما يظهر الثلج نيرانه حولها؛ نهنا جرس الهاتف كانت مريم ترشدني للقسم الذي تم استئجاره ورقمه حتى يسمح حراس البوابة لنا بالدخول، في السيارة لم ننس بكلمة.

لم نلاحظ الوقت ونحن نتجول في المتنزه نطارد بعضا بين الأجهزة والألعاب، وانشغلنا بالتعليق على من يصطدم بنا من رواد المكان وملاحقة بعض الشباب لرسم مغامرة قد تنتهي بمغادرتنا وعودتنا للمنزل. تذكرت غسان أنه أخذني ذات مساء إلى مكان شبيه بما أنا فيه تدفق مشاعر وحديث عن الحرية والحياة، كان لقاء عاديا كنت متوترة والدم يجري في عروقي متعثرة في حمى حلم يسير العزلة يتباطأ في تقدمه عبر الفراغات وهو يسير باتجاه هدفه؛ لم نتحدث فيه عن شيء ذي أهمية.

وأنا في فراشي استعدت ساعات يومي، كل ما أعرفه عن رباب أنها زميلة عمل، لكن غسان المتخصص في الحاسب وتجارة الأجهزة الكهربائية في شركة والده، جال العالم لتوقيع العقود ومعه كنت أسافر بخيالي ومشاعري. وهو يحدثني عن المدن التي يزورها، وجسدي يصارع رغباته وصوته يرن في أرجاء غرفتي عارضا أمامي برامج ومعرفته؛ أخذني إلى أسواق ومراكز تجارية لم أدخلها من قبل، وأهداني ملابس جديدة يفرض ذوقه الذي صقلته رحلاته واختلاطه بثقافات العالم علي، أنفاسه تلهب وجهي وتوقد فتيل زجاجة الرغبة في جسدي شفتاه جذوة من نار، أغمض عيوني لأستسلم لم يلتهمني ولكن أيها الخافق مهلا فقد مزق روحي اجتاحني فتناولت على السور الذي يحجب الفضاء. ونمت مشاعري الصغيرة.

غفوت وأنفاس رباب تعطر المخدة. أتقلب كي أطير مناسبة إلى سهول البنفسج، صحوت من النوم على صوت منبه الساعة ليوم مدرسي جديد؛ كانت رباب وحيدة في المقعد الخلفي .

قالت سعاد: وهي تراقب الطريق مريم سوف تتأخر للعاشرة.

في غرف وممرات المدرسة طاردت نظرات رباب الهاربة، ولما لحنا مريم قادمة انفجرنا في ضحكة طويلة ومرتفعة، وفي العودة تبادلنا حديثنا المرتبك الماجن بهمس، الذي معه احتجت سعاد المنتصبية كما خيال المأته في المقعد الأمامي.

قالت مريم: بصوت خافت كنت في إفطار عمل تأجل عشر سنوات.

جاء اتصال رباب في الساعة ليلا تخبرني أن مريم كانت مع ابن جيرانهم المبتعث للدراسة في أوروبا وتأخرت عودته كثيرا.

أثار الاتصال لحظة هروب من المنزل ومن الجامعة رتبته مع غسان ليوم أناسي الطبيعة العذراء في العصر الحجري، كان التعري الكامل ونحن نتبادل الحديث أمام التلفزيون المغلق في انتظار الإفطار الذي طلبناه من مطعم يعرف رجاله الشقة، رن جرس الباب فغطى غسان جسده بالدثار وأنا هربت إلى غرفة النوم، انتظرت إغلاق الباب لمغادرة الفراش الذي رقدت عليه مغمضة العينين وإذا بأنامله تتحرك بهدوء ونعومة فوق جلدي مقتربة من مواطن الجنون، اخضرار واسع وعميق يفتقه ذهني وهو يتسلق الأشجار يبحث في الشقوق، فأغلق جفني حتى تكون هذه اللحظة صلاتي.

تعرق جسدي والتهبت أطرافي، دخلت الحمام فأنهال الماء البارد مسكنا روعي ووجيب قلبي وأنا أتمدد في الفراش والساعة تشير للحادية عشر³ ليلا، عاودت الاتصال برباب ردت أمها فارتبكت وجاء صوت رباب مبتهجا.

في لقائنا الشهري كنت أول الواصلين لمنزل رباب أخذتني لغرفتها عرفت أن مريم وسعاد قادمتان، طوقتها بذراعي التصق صدرها بصدري والتقت شفتانا في قبلة تقطعت معها أنفاسنا كانت المرأة تعكس صورتنا وقد اندغمنا في جسد وأحد.

قالت رباب: إن زوجها المسافر منذ شهر عاد البارحة لكن لذتها تتجلى في جسد أنثى تشاركها طراوتها فترطب مسامها، البداية شكلته معلمتها في المرحلة المتوسطة؛ وطفح على السطح مع زميلة في كلية الآداب بجامعة الملك سعود، وهما في الفصل الأول من العام الدراسي الثاني هاجرت مع والدها الأستاذ الجامعي إلى أمريكا بعد توقيفه عن التدريس والكتابة في الصحف بسبب مواقفه السياسية الحرة ووعيه بحقوق الإنسان، في وطن تملك الدولة مصادر الثروة ولا تفصح عن مقدار الدخل، وتعلن المصروفات تقديريا حتى يتم حجب الدعم عن الخدمات التي فشلت في مواكبة النمو السكاني، ولما نشر مقالاته في صحيفة لبنانية حقق معه وفصل من الجامعة بعد اتهامه بالعمالة واعتناق الشيوعية فافتقدتها.

قالت رباب: تقدم ابن عمي منذ ثلاث سنوات لم أقاوم وان لم أشعر به وهو يمزق جسدي فحبست مشاعري حتى تتد نبضاً لم يتفتح وألد ابنا الأول بل زاد انكساري الداخلي مع قدوم ابنتي.

وها أنا أستحضر معلمتها بصوتي وبضحكي وهيب أنفاسي، جاء صوت الخادمة يخبرنا بوصول مريم، حدقنا في المرأة نتجاوز توتر الق الخلوة.

قالت سعاد: اليوم طلقت زوجي الذي لم يدخل بي.

قلت: نعم؟

قالت مريم: سعاد ثلاث مرات تزوجت وتطلق.

قالت سعاد: كل واحد فيهم يهرب قبل تذوق العسل.

قالت رباب: أكيد وأحد يحبك عامل لك عمل.

قالت سعاد: يا ليت بس يتقدم.

قلت: بصراحة من فض الخاتم؟

قالت سعاد: في قصر الأمير العبيد كثير والزوار لهم مطالبهم.

قالت مريم: يعني السور المطوق بالحراس يبيح كل شيء.

قالت سعاد: كانت لنا أسماء مفردة وألقاب تتفق مع تشكّل البنية في القصر، اسمي العصلاء.

قلت: وبعد العتق وإصدار صكوك الحرية.

قالت سعاد: لم نغادر القصر حتى توفي العم وتفرق الأبناء والبنات، كان نصيب أمي مرضعة كبرى البنات منزلا شرته العمّة.

تناولنا العشاء وشعرت بتعاطف مع ولد و بنت رباب ضخ في داخلي هاجس الأمومة، وتجاوزنا الهدوء لتتحدث عن حكايات أخرى هي جزء من حياتنا فتخيلت غسان يجلس بجواري يهمس في إذني: كفي عن خوفك لم يحصل أي اتصال فأرتعش وبواصل حديثه الهامس: من شاهدك تدخلين الشقة . . ما حصل أمر

عادي . . الحب جنس وفراش وعبره تتم الصفقات. ومن خلاله تحاك المؤامرات، توقف عن الهمس وسعاد ومريم تهماان بالمغادرة تعرضان علي توصيلي للمنزل.

في العام الرابع تم نقلي لمدرسة داخل مدينة الرياض، أخي الأصغر بعد تخرجه من المعهد الصحي توظف بوزارة الصحة فرع مكة المكرمة، ثم انتقل عمله إلى إدارة تعليم البنات بمدينة الرياض ومن خلاله تم نقل الباقيات سعاد مريم رباب وبقينا على تواصلنا.

قالت سعاد: عبر الهاتف إن أمها ماتت أوصلني أخي الأصغر لتقديم التعازي عرفت انه يدل الطريق، في العودة كاشفته وبعد جدال.

قال: بين وقت وآخر أزور أخوا سعاد.

قلت وأنا اضحك: وسعاد؟

قال: نعم . . هي تجربتي الأولى.

قلت: وغيرها.

قال: لم تنجح

قلت: تعرف أنك شقيقي.

قال: نعم وتذكرك بخير.

في لقائنا الشهري بمنزلنا لم أناقش سعاد في الأمر، ومريم تكمل تفاصيل نتف من حياتها، تذكرت غسان في آخر لقاء لنا، جاء كل شيء مصادفة، كنت أنتظره في الشقة أجلس أمام التلفزيون، بعد

مهاتفة المطعم لإحضار سندوتشات ومشروب فواكه مشكل مترقية قدومه، فتح الباب ليطل وجه غريب ترافقه امرأة لم يفاجئه وجودي، تجاوزاني إلى غرفة النوم، تفجرت مشاعري لها وأنا أسمع همسهم فغادرت الشقة؛ لم يتجاوب المصعد لطلي فهبطت درجات السلم.

في تلك اللحظة كانت فرقه من رجال هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع رجلي شرطه تغادر المصعد. لتقف أمام باب الشقة الذي كان مندوب المطعم يطرقه، سرت على غير هدى في الشوارع والأسواق؛ ولما شعرت بالتعب أوقفت سيارة أجرة وعدت للمنزل، قاومت أنين الخافق وجوع جسدي. بجلد ذاتي ورتق ثقب أحدثته في ثوب التواصل الأسري؛ وقد وعت والدتي هواجس روحي وشتات فكري واستوعب والدي حالتي النفسية وانشغلت بدراستي فتخرجت من كلية التربية؛ والتحقت بالعمل وتوقف وجيب قلبي وتناسيت طقوس الرقاد في الفراش عارية.

قالت مريم: أخي المهندس طلب مني أخطبك له.

قلت: وهل يعرف عني شيئا يدعوه لذلك؟

قالت: من حديثي عنك اشتعلت الرغبة فيه.

قلت: كل شيء.

قالت: أخي مطلق ولم يرزقه الله بالذرية.

قلت: عقيم.

قالت: أبدا الفحوصات خلال زواجه الأول الذي استمر سنوات أربع تثبت العكس.

قلت: وهل يبقيني سنوات أربع ثم يطلقني.

قالت: الأمر في حكم الغيب.

ولما لم أفدها بشيء جاء اتصاله، تحدث عن تجربته التي انتهت ويشعر أنني الأقرب إليه من خلال حديث مريم، تواصل اتصاله وتم الاتفاق على أن يكون الزواج مختصرا وبدون حفل عام تردد ثم وافق، جاءت ليلتنا الأولى في غرفة فندق، واستمرت خلوتنا أيام عشرة نتجول في الشوارع ثم نعود لوكرنا، لم ينقطع عن حديثه ولم أمل من ترسله ولما ضمنا منزله لم أشعر بغربة وقد خلت الغرف من أصوات الآخرين.

في العام الثاني جاء ولدي سعد وقبل أن يكمل عامه الأول تعرض زوجي لحادث سير أثناء مهمة رسمية يتابع فيها إنشاء مبنى حكومي في مدينة الجمعة. كانت الإصابة قوية لم تمهله سوى أشهر، وأثناء مراسم العزاء جاء صوت غسان مواسيا تماكنت نفسي وسلمت سماعة الهاتف لأخي الأكبر تقبل المواساة التي طالت وهو يرمقني بنظره، لا أدري ماذا قيل ولكن مع ركض الأيام شعرت أن أخي يجئ شيئاً لم أسمع لمعرفته.



صايد المسافرين

رشحت لبرنامج تدريب من قبل إدارتي لمدة خمسة أيام، في الطائرة راجعت جدول المهام واستذكرت عنوان المركز الذي يتولى البرنامج والسكن، فلما توقفت الطائرة في مكانها تأخر فتح الباب مما أزعجني بعض الشيء، متذكرا أيام السجن عندما تم احتجازي، عاما كاملا قضيته في الظلام بسبب وجود رقم هاتفي في جوال أحد دعاة التكفير من الخوارج، وعند بوابة الخروج تلقفني رجل في منتصف العمر نحيل القامة أبلق، هامسا بجاذبي لسيارة توصلني للمكان المطلوب، ترددت في الرد لكنه أمسك بكتفي مبتسما وهو يقول: لن نختلف على الأجرة.

ناولته حقيبي الصغيرة وسرت خلفه، لما أدار محرك السيارة قال وهو مبتسم: لو تم توقفنا عند نقطة التفتيش قل للشرطي انك ولد عمي.

ترك كفة ترتاح على فخذي بود، تجاوزنا نقطة التفتيش وسألني وهو يراقب الطريق زيارة عمل.

أجبت نعم لمدة أسبوع لتطوير الأداء في العمل، سألني وقد رفع كفه ملوحا بسبابته نحو المدينة التي لاحت منازلها لديك مكان محدد، تأخرت في الرد أتأمل ما حوли وقد تملكني الخوف باحثا عن الحافر المطمئن .

قال: غريب ممكن أساعدك السكن والمشاور حسب ميزانيتك، السكن المريح والخدمة المناسبة التي معها تستوعب درس التعليم، نبش بكلمة غريب ذاكرتي فأنا نفس يوجعها الحنين .أحمل اسم خالي الذي رعى والدي بعد انضمام والدي المبتعث للدراسة في لندن لجهة سياسية معارضة فسحب جوازه، معه أضافني خالي في قائمة أولاده حتى لا أفقد حظي في الدراسة، أنامله تتحرك على فخذي وشرع شيء في داخلي يرتج.

قلت: في كامل يقظتي ما عندي مانع حسب المعقول.

قال: اتفقنا لكن أنت فنان واللا عليمي.

قلت: أضع إصبعي على جرحي وما يمنع أتعلم وأصير فنان.

اتصل بهاتفه النقال عرفت أنه يكلم امرأة، سأل عن مكانها وهل أحد في البيت، التفت نحوي فوجدت الروح التي تسير أغوار القادم تسير أمامي.

قال: المشوار أجرته خمسين ريال وهذا خارج أجرة السكن والخدمة كم يوم الشغل؟

قلت: أيام خمسة.

رد اتفقنا السكن مئة ريال والخدمة خمسين كأنك في فندق.

وصلنا المكان ضغط زر الجرس ثم أدخل المفتاح في الباب وسبقني إلى الداخل، أدخلني غرفة أثاتها بسيط طلب مني الجلوس وهو يجلس على مبعدة.

قال: سوف نرتب لك غرفة معتبرة أنت في بيتك.

قال: سوف أترزق الله وأنت ارتاح وفي الصباح الساعة السابعة أوصلك للمركز.

ودخلت علينا امرأة بيضاء الوجه تحمل إبريق الشاي ويجواره سلة خوص تحوي أنواعا من البسكويت.

قال: مزنة نور العيون تقوم بالواجب وأكثر، مددت كفي مسلما شعرت بنداوتها وبياضها وقد غطى بدنها ثوب فضفاض أحمر توشيه ورود صفراء.

تناول كأس شاي وبعض البسكويت ونهض دخل علينا طفل في الثالثة وطفلة في الثامنة أحاطاني بعبثهم. غادرت المرأة الغرفة وبادلت الطفل والطفلة الحديث، اكتشف اللحظة انتظر تبدد ظلال زمن خسيس، التصق الطفل بي فأخرجت من جيبي ورقة عشرة ريالات ناولته اياها فتردد في أخذها، سحبته وقبلته على خده ودسستها في كفه، اقتربت الطفلة مرددة (وأنا) فأخرجت ورقة أخرى مدت كفها فسحبته نحوي قبلت خدها فرمت شفتيها، عندها دخلت المرأة ضحكت وهي تراني محتضنا الطفلة.

قالت: الغرفة جاهزة.

كانت الغرفة في الدور الأول بجوارها حمام، فتحت الباب ودخلت علاقة الملابس خلف الباب جلست على طرف الفراش أجس ليونته، خرجت وتركت الباب مفتوحا، لتعود بالحقيبة كنت ممددا في الفراش بثوي.

قالت: عندك غيار للنوم.

قلت: سوف استحم.

خرجت فخلعت ثوي وبقيت بسروالي الداخلي القصير. فتحت الحقيبة وأخرجت بيجاما النوم والمنشفة. دخلت الحمام، كان الماء منعشا ولم أجد صابونه ادعك بما بدني فلم أهتم وإذا بالباب الموارب يطرق كانت هي ومعها صابونة وقارورة شامبو.

لما عدت للغرفة نشطا وشيء يدفعني للترقب، السجن لاح يسوقني صوب المجهول ينسل من تلقاء نفسه؛ فأفتح باب الغرفة سمعتها تحادث أخرى لم يطل حديث الاثنتين، خيم الصمت على المنزل والساعة تشير إلى العاشرة ليلا، عبر الحدس بطبيعته وظروفه جاءت كما أسطورة فشعشع العمر حتى الشمال.

قالت: هل أنت بحاجة إلى أكل وشراب؟

كنت أحدق فيها مكتشفا تقاسيم وجهها.

قلت: ماذا تودين أن نفعل؟

سألته بثقة ورقه، غير أنني لم أدر ما إذا كان علي أن أصدق اللحظة، لم أفكر في احتساب الأمور، أستنشق عطرها وعرقها، جاءت حركتها مفعمة بالحنان وهي تخبرني أن العشاء جاهز، والجميع ينتظر.

عاودني هاجس الضياع الذي معه أحلم بأني في ميادين خربة لا أحد فيها وأتردى في هاوية لا قرار لها، في الصباح تنبهت من نوم عميق عليه وهو يمرر كفه على جسدي .

قال: نمت وارتحت؟

قلت: نعم.

قال: انهض حتى أوصلك للمركز.

تأخرت في المركز مكملا التسجيل وشراء نسخ من المحاضرات وجدول البرنامج وعرفت أن من بين اتفاقية المركز والإدارة السكن في أحد الفنادق بغرف مشتركة مع دارسين آخرين، شريك في الغرفة لم يصل تذكرت الحبس الانفرادي والأصوات المزعجة حتى لا أنام.

أشتعل جرس هاتفي كان سائق العربة، يسأل عن حاجتي أخبرته أنني سوف أهاتفه فأنا في جولة يعدها المركز للتعرف على مشروع البرنامج، في العاشرة ليلا كنت اقرع الباب ولما دخلت.

قالت: إذا سوف تبقى معنا؟

قلت: نعم.

قالت: خذ مفتاح للباب لو صارت لك مشاوير.

بعد غروب شمس اليوم الثاني لم أجد أحدا في المنزل، طفا على السطح يوم خروجي من السجن كنت قلقا على أمي لما وصلت قريتنا لم أجد لها في الدار فأسرعت لمنزل خالي لم يرحب بمقدمي ؛ ولم يطلب مني الدخول، لكنه قال بصوت غليظ أمك ماتت وأوراقها عند جاركم إمام المسجد، اتصلت على هاتف السائق.

قال وهو يضحك: الجماعة في مشوار وسوف يتأخرون لكن تبحث عن ونسك أبشر، على فكرة فيه أجنبي ريح طيبة وأغلق الهاتف

دخلت الحمام وأخذت ادعك بدني الذي أنعشه الماء البارد وأنا أنشف جسدي كان جرس الباب يرن، لبست سروال البيجاما على عري وفتحت الباب كانت شقراء كاشفه الوجه متلفعة بعباءة خفيفة .

قالت: ألا يوجد أحد.

قلت: نعم.

قالت: إذا نتعارف.

وأنا أغلق الباب تخلصت من العباءة وغطاء الرأس فانسدل شعرها، مهدت لدخولي عالمها ودفعي للغوص في بحرها، سمعنا حركة في المنزل بحدوء فتح باب الغرفة كانت مزنة ألقى علينا السلام وأشعرتنا أن العشاء جاهز، ابتسمت ابتسامة طفيفة بعثت بعض الحسد الذي تحس به، وطلبت أجرتها قدمت لها ورقة مائتي ريال دفنتها في صدرها.

قالت: أعط الغجرية خمسين ريال كروتها.

لبست بيجامتي وأنا أخاطب الفراغ الذي تلبسني؛ لا يمكن للواحد أن يغير نفسه ويتجاوز التوتر الطاعني الذي يبعث القسوة في الملامح.

في اليوم الثالث جاء البرنامج مختصرا بسبب اختبار التقييم، فخرجت في العاشرة صباحا تناولت ساندويتش وكوب قهوة في مطعم المركز، تدفق معين الذاكرة تخرجت من المرحلة المتوسطة ولم أوسع للمرحلة الثانوية فطال مكوثي بالمنزل، عندها توسط إمام المسجد بولده الموظف حتى يبحث لي عن عمل فكان في المدينة، فأخذت اجتاز الطريق بين قريتنا والطائف مع رفاق في العمل، وجماعة من الدعاة يقيمون حلقات ذكر وتناصح في المساجد وبين الجبال وفي الأودية، ومعها كان السجن. أخذت سيارة آجرة إلى المنزل لم يكن هناك أحد دخلت غرفتي ونمت مع أذان الظهر كانت مزنة السهل الحسنة الخلق تهزني بوجل.

قالت: متى وصلت؟

قلت: من العاشرة.

قالت: كنت أتسوق الولد معي والبنت في المدرسة.

أجلستها على طرف الفراش وأخرجت من تحت المخدة خمسمائة ريال دسستها في كفها

قلت: خمسون أمانه من البارح.

لم أكن سعيدا في هذه اللحظة؛ لم أكن سعيدا في هذه اللحظة، ولم يكن في مقدور مزنة إلا أن ترى في رغم هشاشتي رجلا مصرا على انتصار ذكوره . . ! لماذا أفسدت كل شيء قاومت انفجار اليأس.

قالت: الغدا جاهز ملفي والبنت في الطريق .

بعد المغرب ونحن جلوس أمام التلفزيون نشاهد مباراة في كرة القدم رن جرس الباب فأسرعت الطفلة للباب ولحقتها مزنة التي عادت قائلة جيراننا سوف يذهبون لمنتزه العاب والبنت والولد (بيون) مرافقتهم.

قلت: وأنت؟

قالت: أجلس إذا لم يكن عندك مشوار.

قلت: سوف أكتب بعض التقارير المطلوبة.

قالت: إذا اعد القهوة حتى تستوعب.

سائق التاكسي جاء بعد صلاة العشاء فبادلني أطراف الحديث ثم اختفى للراحة، ولما جاء الجميع بدلت مزنة ملابس الطفل والطفلة وأمرتهم بالنوم، قبلني الطفل على خدي ووقفت الطفلة أمامي بثوب نومها القصير تأملتها وسحبتها نحوي قبلت خديها ثم قرصت إذنها، اختفى الجميع بقيت مع أوراقتي، وشاشة التلفزيون ولما انتهيت في الواحدة بعد منتصف الليل جمعت أوراقتي واتجهت لغرفتي.

قبل شروق شمس اليوم الخامس اليوم الأخير الذي يبدأ برنامجه في العاشرة نبهتني مزنة من النوم.

قلت: بدأت أشعر أنني في داري.

رفت جفونها ومطت شفيتها أرغمت نفسها على الابتسام، إنها تسيطر على مشاعرها بشكل أفضل ومع النظرة المنسدلة والمتقدمة تشنجت أصابع كفي على كتفها، كل شيء فيها يرتعش، أتدقق في ألرائحة الطيبة، المكان الزمان ولعثمات أشياء لا تنسى، استقرت في أعماقي تطرد أشباح الظلام وسجن الواحدة والوقت الذي يلتهمه الأرق والفقء، أنفاسها تتعالى حتى هدأ حراكها وسكن نبضها .

قالت: عليك الاستعداد للخروج.

كانت الكلمات تخرج بصعوبة من بين شفيتها، بدلت ملابسني تألق رنين الهاتف كان سائق التاكسي يخبرني انه ينتظرني بسيارته. خرجت لم يكن موجودا حدقت في ساعتني قلقتا وإذا هو يطل من طرف الشارع.

ونحن في طريقنا للمطار أخبرني انه تبقى علي دفع أجرته على تأمين السكن مع أجرته للمشوار، كفه تبيض على فخذي لفت نظري عروقها البارزة وبياض ثلاثة أصابع وجزء من ظهر الكف بسبب البهاق، شعرت بانكساره وهو يتناول المبلغ ويدسه في جيب ثوبه لحت أن كفه ترتعش وأنا افتح الباب مغادرا السيارة أخرجت ورقه مائتي ريال دسستها في كفه ابتسم. وأنا آخذ بطاقة صعود الطائرة لحته مازال واقفا عبر زجاج المطار لوح بكفي لا أدري هل شاهديني.

رجل الشرطة يدقق في هويتي وبطاقة سفري والآخر الجالس عند جهاز الفحص يحقق في مبتسما، كان يحمل تقاسيم وجه سائق التاكسي لكنه هنا ممتلىء مائل للسمره بينما البياض يوشي ثلاثة أصابع في كفة اليمنى وجزء من الظهر.

نداء الصعود للطائرة يتوالى وأنا أندس بين الركاب في صالة المغادرين ولأني على الدوام اختار التأويل الأبعث جاء خيال الصالة؛ باحة السجن لم يسمح لنا بالتجول والحركة .



فميفسا s

توافقا عند الباب في الدخول.

واختلف الطريق في ممرات معرض الكتاب.

وتوافقا مرة ثانية عند الباب في الخروج.

اقتربت وأخذت الكتاب الوحيد الذي أقتني.

وقفت.

وتوقف.

أخرجت من كيس ورقي نسخة شرقتها من الكتاب ذاته.

وفي فضاء الشارع المضاء تشكلا جسداً وأحداً قيدته في مكانه رغبة اثنين كل واحد له وجهته.



فرشاة إله الرعد

عندما حملت شهادة التخرج من الجامعة مشحونة كما عنقاء ملتهبة بجناح يلامس الماء وجناح يبلغ السماء بقدر كبير من الفعل الذي في إمكاني التحكم فيه، فقد ابتدعت طريقة تصنع الكائنات الحية في داخلي، أنفسيها بطريقة تسمح بظهور العيوب حتى يتم إصلاحها وفق قانون خاص للمقاومة، كانت هدية الأسرة زوجا لم يفكر في تخصصي أدب انجليزي، ولم يمنع اشتغالي بتنمية هوايتي كفنانة تشكيلية وأنا أرصد جملة استخرجها من الذاكرة عندما أتوقف من التعب (آه أيها الرجال البائسون الذين تحطمون نوعكم بالذات من خلال تلك المسرات المراد منها إعادة الإنتاج، فكيف يحدث أن هذا الجمال المهلك لا يجمد شهوتكم المتوحشة ؟) فأستعيد نشاطي لمواصلة سحق روحي في الألوان وفرشاة تعانق بياض اللوحات.

إنما لم يشغل نفسه بتحقيق رغبي في العمل في بيئة تتسم بالمنافسة الشديدة، غير مبالية بالنزيف في الأدمغة التي تعيق دخولها المعتك متطلبات معقدة تفرضها رعاية وهمية تراه خلل في طموح المرأة. فكنت أقدم خلاصة معرفتي بين وقت وآخر في تقديم درس لغة الإنجليزية وأحيانا تربية فنية في مدرسة أهلية تعمل بها شقيقة زوجي.

ذات مساء جاء زوجي متهلا فقد عاد من بعثة للدراسة صديق طفولته، فكان حريا عمل حفل عشاء بهذه المناسبة، جاء الضيف مع زوجته وابنتيه، الكبرى في العاشرة والصغرى في الرابعة؛ أثار الغربية في حديثهم وملبسهم، الأم برغم تحفظها شغلها لوحة رسمتها تأخذ حيزا بارزاً من غرفة الجلوس.

بعد أيام أخبرني زوجي برغبة صديقه في مساعدة طفليته بالحضور معهم في دراستهم حتى أساعدهن على اعتياد الفضاء المدرسي، كانت ابنة العاشرة تقاوم ما حولها وفق تحرك حجارة رقعة الشطرنج، وأجدها بمهارة اللاعب تعرف وجهة كل حجر، تقرب أكثر مني لتشاركني خصوصياتي، وذات مساء وأنا أساعدها في حل واجباتها المدرسية اقترحت أن تكون موديلاً أرسمه في لوحاتي القادمة؛ فاتحت أمها في ذلك، لم تعترض على الفكرة.

لما اكتملت اللوحة زرعت الأم على خدي قبلة طويلة وهي تحمل اللوحة لتعلقها في غرفة نوم الابنة، ولتطلب مني بصوت هادئ وطريقة خافتة الإيقاع لشخص أمضى وقتنا طويلا يتحدث إلى مطلبه بصرف النظر عن

الدافع لرسمها؛ لم أتردد في إعداد لوحة جديدة وجاءت لحظة البدء لمناقشة الشكل والحالة التي تتشكل فيها لفضاء رحب من التواصل.

هنا طفا على السطح أحداث تجاوزتها في رحلتي الدراسية، وعنوانتها في لوحات بفرشاة اله الرعد. تلون فضاءها صديقة مفترضين أننا نهمهم ونحن نضبط نغمة حياتنا على ترددات نبوءة معرفة الروح الصحيحة. جاء اقترابها عنيفا في المرحلة الثانوية بعد انتقال المعلمة التي تعشقها لمدينة أخرى فكنت البديل الذي مارست معه لعبها؛ بذاءة تلذذي يثير شغبها ويدفعها إلى إيثاري بعنايتها وحراستي من الأخريات فخلقت ونحن في الجامعة نوعا من التواصل الرومانسي بأخيها الذي يعيدني للمنزل من الجامعة عند تأخر والدي، لم يتجاوز في النقائنا في مقهى ومطعم في لحظات مختلسة الحديث عن أحلامنا وهمومنا الجامعية.

ذات مساء وزوجي مسافر في مهمة عمل جاءت، لتحول المهوبة الخاصة لدي إلى انجاز أدركت أنها تعرف كل شيء عني وعن تأخر الحمل واستشعار مخاض الولادة وصمت زوجي، فأنا في مخيلتها الأرض القفر، كانت تحمل كتاب شعر يحوي رسوماً مختلفة تتواكب مع مضمون كل نص، وقد ثنت طرف صفحة تحمل صورة امرأة تفاصيل جسدها المكتنز تتجاوز إطارها.

تستعين بمساعد لها لتسهيل مرورها ببسر ودون مساءلة إلى مرحلة دقيقة لشخص تراه مطلع، والعارف بما يتعامل في أعماق محاوره؛ ونحن ندخل المرسم وقفت أمام اللوحة البيضاء المعدة للتشكيل وتناثر الألوان، ثم التفتت نحوي كانت نظرتها تائهة في البعيد وكأنها في مكان تنتظر الصانع الأزلي المقيم في الغابة الزرقاء.

قالت بنبرة مطيعة: أين أجلس؟

قلت: (وأنا أسحب معطف الرسم حتى لا أُلطخ ملابسني بالألوان) هنا.

اقتربت مني تساعدي على لبس المعطف، أنفاسها تلفحني، توهمت أن شفيتها تدغدغ مؤخرة رقبي فازددت بهجة، عدت ضمن صبية يلعبون في غابة غناء متناسين القوانين وقد جمعت التين الشوكي أشدو بأغنية أحب ترديدها. سمعتها ذات يوم فحجبت كل الأصوات؛ توقفت عن الحركة اكتشف شيئا أعمق في عقلي بصوتي فابتعدت وهي تتشكل.

قالت: ابنتي تحبك.

قلت: إنها رقيقة وتدفع من يتعرف عليها إلى عشقها.

قالت: كانت الأثرية في مدرستها هناك.

أكملت ربط حزام المعطف وشرحت لها كيفية الجلوس، وأنا أنثر شعرها تجلت صورة صديقتي التي أحتفظ بعديد من صورها الفوتوغرافية واللوحات المختلفة التي كانت تمنحنا خصوصيتنا التي انقطعت وأنا في المستوى الثالث من الجامعة بسفرها المفاجئ مع والدتها المريضة للخارج فانقطعت أخبارها.

كانت مغمضة العينين تتنفس بهدوء وكفها اليمنى تتصلب على طرف المقعد بينما الكف الأخرى الرابضة على فراغ المقعد الذي كنت أتمدد عليه عند التعب تتحرك ذهابا وإيابا تنتظر الحركة الأخرى، جلست بجوارها تعانقت كفينا على المقعد لاصق كتفي كتفها، التفتت نحوي طوقني بذراعيها كل شيء فيها يبكي.

تأخر اكتمال الصورة وتناثرنا في فضاء المدينة كل ما نفعله يتجدد في زيادة مساحة انشغال زوجي وزوجها، وإلى استراحة صغيرة في شمال الرياض حملتنا سيارة أجرة خاصة (لموزين) وأنا أنصت لغيابنا بحثا عنما ينبغي الآن أن يولد في ذاتي التي بعثت. سبحنا ومن الإرهاق نمنا وإذا بصوته يدعونا للعشاء.

قالت: صديق من أرض الغربة.

قلت: كيف؟

قالت: انه من هنا رجل أعمال ومعني اسمه الحركي يثير الانتباه.

ونحن نجلس حول طاولة الطعام عرفت أنه يملك المكان وأنه تعرف عليها في حفل المعهد الذي درس اللغة الانجليزية فيه أثناء دراستها في بداية اغترابها وتكرر سفره كاسبا التأهيل في برامج ودورات تنمي هواياته ومشاريعه التجارية.

يتساقط مطرا وتتجاوب ضربات قلبي مع حاجات لا تتغير في أن أقضي من هذه اللحظة حاجاتي وفق الأنا متجاوزة النظر عن ستلحق به السعادة ومن سوف يرث البؤس، فالسعادة لذة والبؤس ألم، واللحظة لم تترك

سبيلا للتصرف، فعلي اعتبار اللحظة قيمة ذاتي المناسبة فأنا الآن ربح مشاعر عارية كنت أنحني بحريق مضاعف لميلاد جديد في كون باهر.

وفي العشاء الثالث شاركني في رسم لوحة جاءت الفكرة فيها عبر ريشتي كما أتخيل اللحظة وبريسته كما يتخيلها، معها تحولت الاستراحة إلى مرسوم بديل . ولما اكتملت اللوحة جاء احتفالنا متجاوزا المتخيل، لم يكن رجلا ممزقا بين امرأتين، بل نحن الثلاثة نشكل حالة صعبة غير أنها تأتينا بالسعادة؛ تحدثنا أكثر مما ينبغي لم أفكر في احتساب الأمور؛ رأيتها كيف استسلمت بوهن كانت مفعمة بالحنان ودافئة.

ولما طال سفره في رحلة عمل شعرت بقلق في انعدام القدرة على التعبير مغيبة الوعي من فرط الاستغلال الذي لم تواجهه. والاستنزاف القهري بسبب خلل هيكل القوة في داخلها مما يعني انجرافها للقاع، فأخذتها في جولة بأحد الأسواق ثم جلسنا بالمقهى ليقترح طولتنا من آثار عجبنا، ابتسم من غير أن يلاحظ انزعاجنا.

قال: كنت أراقب تجوالكم .

قالت: لم؟

قال: لفت نظري تعانق كفيكما.

قلت: وما شأنك؟

قال: أنتما عاشقتان وأنا عشقتكما.

جاء صمتنا متوافقا مع استرساله في الحديث واكتشاف مخزون كل واحد، ليس فيه ما هو كئيب أو خفي يفرض الاقتراب منه بحذر. دفع حساب القهوة وبسكويت البيت فور غادرنا السوق عربته الفارهة لم تغير من وجهتنا وحديثنا فلم يعد هناك ما يتوجب التفكير، طالت الطريق بسبب إشارات السير وازدحام الطريق وفي جنوب المدينة وعبر شوارع ضيقة شديدة الظلام فتح مدخل سور تغير لونه بفعل الزمن لندخل (استديو) خاص غرفة ومرسم يتوسطه حامل يحمل لوحة لم تكتمل ولوحات متناثرة على الجدران، ومكومة على الأرض في تشكل بديع لنبع يضم كل الأحلام والأشكال التي تنتظم الحياة التي أعيشها متجاوزة النسيان في

تقاطعات طريق مفتوحة وواضحة سرت فيها لا شعوريا ذات مرة في الفجر تسوقني دمدمة ولعثمات لأجد كل شيء، أحيي المكان والزمان فتعانق النور في داخلي زارعا أشياء لا تنسى.

جلست وجلست حول طاولة تداخل لونها مع بقع أصباغ تراكمت بعفوية، وجاء حاملا زجاجة مشروب لم تفتح وثلاثة كالفراش. على المقعد المقابل وسكب قطرات من المشروب تجرعت كأسيا كانت المرة الأولى التي أتذوق فيها الخمر؛ وتجرعت كأسها، أشعل التلفزيون كانت قناة موسيقى غريبة، قامت ترقص شاركها الرقص وشاركتهم بالتصفيق.

كل شيء فينا يتداخل ولما تنبهنا للوقت اتصل بهاتفه فجاء من أخذني وصديقتي لما دخلت المنزل وجدت زوجي في الفراش. تمددت بجواره التصق جسدي المبتل بجسده عاد تصبني المتبلور عبر مناهات أزلية تهيم بها روحي منذ جاء الكون فقد حزرت الحقيقة.

عرفت أن صديقتي وهي تمبظ من السيارة تعثرت فساعدها السائق الأسود على فتح الباب وفي المدخل المعتم وهو يتفحص مفصل قدمها المتألمة ضاجعها مراهننا على السكون الذي اكتشف أهميته؛ وتركها في مكانها لتجد الخادمة التي أنسلت من غرفتها في سطح المنزل لأخذ ماء بارد من ثلاجة المطبخ تقف فوق رأسها فساعدها على الصعود إلى غرفتها. شعرت ببعض الاستياء أهو الامتثال ألقسري أو الخضوع الذي يجتر المرء عبره هزائمه الخاصة وفق التصور الساذج والمضلل. غير أنه كان طفيفا إلى حد انه فاجأني هذا الإحساس البليد.

اكتملت الصورة التي اعتنيت بألوانها ولفتت فنياي نظر صديق زوجي الذي نقل إعجابه بموهبتي زوجي، فقد امتزج عملي بالمعرفة ووصلت نفسي باله ممزوج بالمطر معه ذلك الرضا الضروري من أجل أن تشكل هذه التجارب الأكثر اهتماما بالاتجاه الوصفي شعورا مستقرا في زمن متحرك، فجمعت حصادي بفرح الأمان التي معها تجاوزت جوعي.



المكيدانة

باختصار هذا ما حدث؛ كنت كما هي عادي في العاشرة ليلا في مقهى خارج العمران أمج دخان الشيشة وأراجع قصة جديدة متعسرة ولادتها؛ وإذا بما قبل أن تتجاوز مجلسي تلتفت نحوي قائلة: بشع واختفت في الظلام. . !

استفزني قولها ولكن عدت أضح مواقف شخصيات القصة ونادل المقهى يعيد إشعال رأس الشيشة؛ لتعود قائلة: كم أنت بشع. ؟.

لحقها نظري حتى جلست مع ثلة، على مبعدة ضحيجهم أطفال نساء رجال يعكر المكان، وإذ بثلاثة أشباح يتجهون نحوي ويشبعوني لكما ولطما أنقذني النادل وبعض الرواد .

حاولت تجاوز قلقي والمجموعة بهرجها ودمدمتها تغادر المكان، تنبهت من النوم على جرس الهاتف كانت هي أخذت تضحك مطالبه بزيادة مساحتها في القصة، تذكرت أن أوراقى نسيتهها في المقهى .



الباب

تلاشت كقطعة ثلج تعرضت للشمس؛ شعرت بالخوف من أنفاسها المتلاحقة أغمضت عينيها وبدأت تعود للحياة.

قلت بملع: حنان. . ماذا حدث؟

قالت بصوت خافت: لا أدري . . !

أخذت تفرك أصابع كفيها وتشبثت بالعباءة تغطي شيء في داخلها تعرى، غادرت العربة لم نلاحظ أن الباب الأزرق المغلق بسلسلة وأقفال صدئة للمنزل المهجور والذي اعتدنا الوقوف عنده حتى تنزل في الشارع المتعامد مع الشارع الذي ينتصب في وسطه منزل أسرتها موارد.

اختفت في عطفة الممر الفاصل، انفرج الباب بعض الشيء كانت تبتسم فتعثر انطلاقي.



الدوام انتهى

أخذ مكانه على الكرسي الذي قدمه مرافقه العجوز، تلفت حوله وهو يتحسس الحقيبة الجلدية التي يحتضن،
نفض متأففا همس في إذن رجل الشرطة الذي ينظم دخول المراجعين غرفة الموظف فشرع الباب.

صرخ الموظف: لا يدخل أحد. وأحد المراجعين يغادر الغرفة.

انتصبت الحقيبة الجلدية فوق المكتب، رمق عقارب الساعة المنصوبة على الجدار، نفض رافقه الموظف حتى
الباب؛ وغادر المكتب أمام عيون رجل الأمن وتوجس باقي المراجعين.

والساعة تشير إلى الثانية والنصف صرخ رجل الأمن في المراجعين (الدوام

انتهى).

أخذ يتابعهم وهم يغادرون أماكنهم، دخل المكتب أغلق الباب بالمفتاح مد يده فاتحا الحقيبة، دوى انفجار
هائل هز المبنى انفتح على إثره باب المكتب؛ قصاصات أوراق تتلاعب في الفضاء وعينان انفلتتا من
محجريهما تصطدمان بالجدران.



تربص

طلبت مني شقيقتي مساعدة زميلتها في العمل بتسجيل ابنتها في المدرسة الابتدائية، وكان علي أن أوصول الاثنتين والطفلة للمدرسة لأخذ أوراق الكشف الطبي؛ وفي اليوم الثاني للمراجعة اعتذرت شقيقتي عن مرافقتنا.

الطفلة بثوبها القصير تجلس بجواري في المقعد الأمامي للسيارة وأمها في المقعد الثاني خلفي مباشرة، لما ترجلتا أوقفت العربة بعيدا عن بوابة مبنى المركز الطبي في ظل شجرة وارفة وتحجب جزء منها حاوية قمامة كبيرة.

فتح الباب الجانبي للسيارة امرأة متحجبة أخذت تتفحصني ثم جلست بجواري، سحبت كفي وتخللت أصابعها أصابعي، رفعت الغطاء عن وجهها ودست أحد أصابعي في فمها تمصه توقف تفكيري؛ لا أدري كيف تجمدت أطرافي ولم أقاوم أو استجب لفعالها.

زميلة شقيقتي التي أنهت أوراق فحص ابنتها كانت تقف تراقب ما يجري تنبهت المرأة فانسلت خارجه لتختفي في بوابة المدرسة المحاذي للمبنى الصحي.



خروف العيد

أوقف زوجي العربة في منحى بجوار سوق بيع الأغنام القابع بين تلاع الردف ونزل ليشتري خروف العيد، أخذت في تأمل الفضاء واختلس النظر لمراقبة الأغنام في زرائبها المتهرئة.

لحى رجلا بين العربات التي أمامي رفع طرف ثوبه وأخذ يتبول، شعرت برغبة تقليده فترجلت من العربة، تلفت حولي ثم جلست بجوار العجلات الخلفية يسترنى الباب الأمامي المشرع.

فجأة إذ بفتى في الثانية عشرة من عمره مكشوف الرأس يقف أمامي، ملمت ملابسي وأنا أضحك دخلت العربة، وتركت الباب مفتوحا جثا عارضا أشياء صغيرة يبيعه في كيس نايلون أسود، كان جميل الطلعة، شعره الأسود الناعم تنفرد خصلة منه على جبينه، في حديثه عجمة واضحة.

جذبتة من كفه التي مدها لتشجيعي على الشراء، زرعت قبلة طويلة على شفطيه الطريتين؛ استكان في حضني لحظات دسست فيها ورقة الريالات العشرين التي أخرجتها لشراء المناسب من بضاعته في جيب ثوبه؛ ثم انفصل جامعا أشياءه ليختفي بين العربات.



كم هي الكرة الأرضية صغيرة

وأنا أفقد كل شيء جاء سفري بدون تخطيط انسياقا مع الحركة التشارؤية التي غمرتني ذات لحظة، ففي أعماقي (بندول متأرجح ما بين البنى الاجتماعية المتشعبة والمغترية) برغم من نضج الوعي الذي معه: أقوم بخلق الأداة اللازمة للتغير وفق قدرات وطاقات تبني الفرص من أجل تفعيل جزء مقاوم في داخلي؛ مرافقا لأخ زوجتي السابقة، في زيارة لشقيق زوجتي ووالدته التي تراجع مستشفى في لندن.

لم أهتم بتوديع ابني مازن ذي السنوات الأربع، فقد كنت في مهمة عمل لمدة ثلاثة أسابيع، دورة في برنامج تدريبي في إحدى الجامعات البريطانية بالتنسيق مع معهد للغات وتطوير البرامج رشحني له مدير الإدارة التي أعمل بها رئيسا لقسم مالي.

كانت الرحلة والحجوزات تسير سلسلة مما أغراني من خلال مكتب السفريات حجز مقعد للسفر إلى القاهرة في طريق العودة للوطن، بعد أيام ثلاثة من انتهاء البرنامج، كنت في القاهرة أبحث مع سائق سيارة أجرة خطفني من المطار عن سكن تتوفر فيه الخدمات السياحية وقد نسيت اسم فندق تردد كثيرا في أحاديث المقهى بين الأصدقاء.

أمام مغريات السائق وتحقيقا لجزء من مطالبتي التي كشفها تبادلنا للحديث أثناء الطريق، وإنها زيارتي الأولى؛ كسب ثقتي كعلاج مثلي وفق توازن بين القدرة على التدمير الذاتي والصمود المذهل على إنجاب خاصية الرفض، كانت الشقة التي أدخلها معد³ لزائر مترف بغرفتيها وصالتها ومطبخها، وعبر موقف أحفظ عينيك وكل الجميع لي: تدخل المشرفة على بعض شقق العمارة للترحيب وعرض خدماتها.

في اليوم الثاني أعدت الحياة لهاتفني الجوال ووجدت عدداً من الرسائل من الأصدقاء وزملاء العمل، لم أهتم بها فأنا لم أفق من لحظة غياب ذهني خلقته المشرفة على الشقة فقد شعرت أن ثمة شيء ما ليس على ما يرام في صمتي وتصرفت من هذا المنطلق، هنا وجدتي سائح لدن تجرب فيه صنوف الضياع الذي يبحث عنه.

كانت نبيلة كريمة في معرفة عوالم القاهرة وليلها السري الذي تشكل مع زجاجة مشروب معتقة من خمارة تنتصب في طرف الشارع بضوئها الخافت المائل للحمرة وروادها المحدودين وتقدير امرأة على أنها غير ذكية، في حين أنها تتميز بالذكاء في ضوء حاجات مجتمعها وخصائصه، وأخرى طرقت الباب تخزن لفائف الحشيش في صدرها الذي لم تهتم بعريه وهي ترقص.

جاء اتصال عارف النائب الإداري للمدير العام يخبرني أن أحد الزملاء في القاهرة لزيارة عائلية تعرض لوعكة صحية وهو بحاجة إلى مساعدة ليقوم المستشفى المرقد فيه بإكمال الفحوصات، ولما ورد اسم الزميل لم أجده في دائرة المعروفين.

وأنا أركض كمشروع تحرر من القيود بحثا عن المعرفة فتحة لي الوجود الباطن بحثا عن الجوهر متجاوزا دهشتي وتفصيلها المتخيلة، في ممرات المستشفى باحثا عن موظف العلاقات العامة، جاء صوت إحدى العاملات لنجدتي فأخذتني إلى غرفة المريض، كل شيء فيه يوحي بأنه تجاوز لحظة الأمان في إرهاق جسده.

رحب بي عندما قدمت نفسي له وعرفت أنه وصل القاهرة منذ شهر لزيارة ابنته وقضاء إجازته الرسمية مع زوجته وطفليه وأخته وزوجها، لتدخل فتاة في الرابعة عشرة من العمر ترتدي سروال جينز وقميص ولادي مزركش بشعر قصير وصدر ناهد.

أشار نحوها وقال: ابنتي ثريا.

قلت: أهلا .

قالت: (بلكنة مصريه) حياك الله.

قال: ثريا مع أمها زوجتي السابقة.

قلت: مصرية؟

قال: نعم إعلامية معروفة تعمل في التلفزيون مديعة أخبار.

وفتح باب الغرفة ليدخل رجل وامرأتان.

قال: يوسف زوج أختي وهذه أختي سارة وهذه زوجتي أعرفكم بضيبي زميل في العمل.

قلت: فاضل عرب.

تبادلنا الحديث وزودتهم بعنواني ورقم هاتفي وقررت الخروج معه، طلب مني إيصال ابنته لسكن أمها.

في سيارة الأجرة جلست بقربي في المقعد الخلفي، ران الصمت أولاً ثم انبثق عن حياتها وعلاقتها بوالدها وعرفت أن الجميع سوف يغادرون بسبب انتهاء أيام الإجازة ومرور أسبوع على انتهاء مدة استئجار الشقة، لم تتوفر فيه السيولة المالية لتسديد أجرة المستشفى.

كانت ثريا تتحدث وكفاها تقبعان بين فخذيها (كل ما كان للعبد كسباً فالحق تعالى قائم به لا العبد، ولكن فيه ظلمة المكسب فأفهم) رمقتني وأنا أختلس النظر فقامت بمد كفها اليسرى وربتت على فخذي، قمت بوضع كفي اليمنى على كفها فالشوق يسكن باللقاء والرؤية والاشتياق لا يزول باللقاء.

قالت: أين تقيم؟

قلت: في شارع القناة.

قالت للسائق: اتجه إلى القناة.

قالت: رقم العمارة كام؟

قلت: لا أذكر.

قالت: ولونها؟

وإذا بنا نحاذي العمارة التي عرفتها من خلال الحديقة المقابلة لها، ترحلنا ودخلنا لنجد المشرفة تقوم بأعمال النظافة، رمقتنا بقلق وتوتر، تبسمت ثريا واقتربت منها لتساعدها في نقل بقايا سهرة، كل ما أتذكره فيها أول كأس وخيال راقصة لم تجد من يصفق لها ودخانا يتعالى معه كل شيء اختفى.

كانت ثريا تدس قارورة المشروب بما تبقى منها في الثلاجة، وصغير غلاية الماء يرتفع لتقوم نبيلة بصنع كوبين من الشاي قدمتها لنا مع بسكويت وفستق ومكسرات مملحة.

رن الهاتف الجوال كان عارف يستطلع الأخبار، شرحت كل شيء وأنا أدقق النظر في تقاسيم وجه ثريا وذلك الحريق الجاف في العينين؛ ونبيلة صاحبة الابتسامة المدهشة تلوح بيدها مغادرة، عرفت أن علي مساعدته في حل مشاكل الزميل المالية والصحية وتأكيد حجز عودته مع أسرته وتسديد فروق الحجز بسبب التأخر في السفر.

قالت: ها ممكن.

قلت: نعم.

قالت: (وفي نظرها ومضات تحد) تحل مشاكل والدي؟

قلت: نعم.

هنا وبشكل مفاجئ قفزت من مكانها لتتبع في حضني تزرع قبلاقتها على خدي وجيبي، لجمتني المفاجأة وتزايد نبض قلبي وتصيب عرقي، ولما استكان رأسها على صدري؛ أخذت أتأمل اللحظة مررت أصابعي على ظهرها لينبعث من شفيتها تأوه أكثره بكاء: ثم غرزتها في شعر رأسها.

قلت: هيا أوصلك للمنزل.

قامت بتكاسل وسارت أمامي، عرفت منها أين يقيم والدها وزوجته وهي تغادر العربة دسست في كفها بعض النقود رفضتها وأمام إصراري أخذتها حتى تتمكن من زيارة والدها ومقابلتي، زودت السائق بالعنوان وهناك وجدت الزوجة والأخت والأطفال.

عرفت تكاليف العلاج ومتأخر إيجار الشقة وموعد الحجز للسفر، واقترحت وأنا اكتشف توتر الأخت كمن تشاجر للتو مع آخر (فتخيلتها مثل أناس يسبحون خارجين من سفينة غارقة) أن عليهم الانتقال من شقتهم إلى إحدى شقق العمارة التي أسكن، حتى أتابع سفرهم عن قرب ولما هممت بالمغادرة كانت الأخت ترافقني للمصعد.

قالت: أقسم لك أنه في وسعك الاعتذار.

قلت: لا أجرؤ !

قالت: هذه حماقة . . لماذا أقلقك بكل هذا.

قلت: هذا ما يبدو لك في هذه اللحظة.

ابتسامتها حارة وجنتاها تتوردان، في نظرها عدوية (قسماؤها قسماات زنجية) والضيق يغمرها، كانت تسمع صوتها وقد وجدت نفسها وحيدة، كم أنها سهلة تلك الانبثاق الجميلة الفارغة من التصنع الكريه والخبث الذي يخدع صاحبه .

قالت: أجل . . كنت بغیضة أعترذر.

قلت: ستجعليني أشمئز من نفسي.

قالت: تعرف ما عليك أن تفعل الآن؟

وهنا نتصرف بتهذيب مع شخص (وان أخذ في النفس أمر ما كالصورة فنعدم الكلام إلى مجرد عن المادة الذي هو الأصل فلا بد وأن تبقى) ما حتى تتابه حالة انعدام؛ دعوتها للعشاء فلم تمنع أصبت بنوع مقلق من النرجسية والانبهار بذاتها وتفوقها، وفي الوقت ذاته فقدت الإحساس بالمكان والقدرة على فهم واستيعاب موقفها، تصرفها غير المتناسك ناجما عن روح غنية معقدة .

لقد سقطت خارج إطار الزمن وقد خلا عقلي من تيار الحذر فما حدث قطرات جاء أثرها في اكتشاف ما حصل في الماضي. الروائح هنا ليست نسائم الطائف التي يصعب تحديدها فقد تحولت الشقة إلى فردوس من العطر الشدي، كان باب غرفة النوم يفتح، وأطل وجه نبيلة المبتسم والزاهر بالقوة المنعشة المانحة للحياة.

زرت الزميل في المستشفى أخبرت الطبيب بموعد سفره فلم يمانع وان نصح ببقائه في المستشفى حتى موعد المغادرة، رتبت السفر للجميع غير أن زوج الأخت كان على عجلة فقد عاد قبل الجميع؛ معه انتقلت الأسرة إلى شقة في العمارة التي أقيم بها وأمنت لهم سيارة أجرة تقلهم لزيارة مريضهم والتسوق للسفر.

في صالة السفر بالمطار تحول المسافرين إلى سلعة وفق تغير حالة الأشياء فخلعت عليها خواص سحرية تقلب الممارسات ذات الصلة رأسا على عقب، وهنا جاء النداء لدخول الطائرة فتحرك الجميع وبقيت منتظرا إغلاق باب الطائرة لأتنبه على صوت أنثوي

قالت: الأستاذ مسافر؟

قلت: (وقد غبت عن الواقع) نعم.

قالت: ورحلتك؟

قلت: لقد نمت جيدا.

تركته معلقة السؤال التالي وغادرت المطار في سيارة أجرة لم ينبس قائدها بجملة، فأدركت أنه احترام انكساري وذلك المطر الخفيف يتسرب إلى أعماقي فأهمهم (أعرف جيدا أنه لا يمكن لأحد أن يريح أبدا) ليصلي صوته لتحديد هدفي، نبيلة بجسدها الممتلى ووجهها الباش احترما صمتي وفق معايير وقيم اكتنزتها لمواجهة التصرف الفعلي، أعدت العشاء وفي ساعة مغادرتها خرجت بصمت.

قدمت عند عودتي مستندات مصروفات أسرة الزميل للنائب الإداري الذي ثمن موقفني، وأنا أستأذن للعودة لمكتبي.

قال: هل قابلت زوج أخت زميلنا؟

قلت: لمرة واحدة في المستشفى.

قال: وجدت شرطة المطار في حقيبته حشيش.

قلت: كيف؟

قال: نعم كيف وهو الآن في السجن.

غادرت الغرفة مهمهما هذا حقا يوم من تلك الأيام التي يرتكب فيها حماقات، ليرن هاتف مكتبي على صوت لم أميزه.

قال: الأخ فاضل؟

قلت: نعم.

قال: سلامات متى عدت.

قلت: منذ شهر.

قال: الم تعرفني؟

قلت: آسف . . إنما أتشرف بمعرفتك.

قال: زميلك يحيا.

قلت: يحيا من.

قال: مريض القاهرة.

تواردت الخواطر أعرف أنني انهزمت، لا جدوى من المقاومة فظلها المتبقي ضئيل للغاية ولا يترك لي أملا في خوض المعركة للنهائية.

قال: أنا في المبنى انتظري.

وصلتني رائحته وهو يسأل السكرتير إذن الدخول؛ ليطل بجسده المعروف ووجهه الحليق وبدلا من أن تلتقي كفانا احتضني مرددا عبارات الشكر والامتنان وفق لعب الأدوار بعيدا عن الاستنباط المنطقي ضمن منظور التفاعلية التي تناسب الموقف.

قال: متى تشرفنا؟

قلت: أين؟

قال: بالمنزل.

قلت: حسب الظروف.

قال: في نهاية الأسبوع عندنا مناسبة عائلية.

قلت: والمطلوب؟

قال: بعض من الزملاء وأفراد الأسرة أنتظر حضورك برفقة ابن العم عارف.

تتقاذفي الرغبات الجامحة في الصراخ كان الطفل الذي تأخر دخوله المكتب بسبب مرافقته للسائق ابني مازن فيحي زوج أمه وهي في السيارة تنتظر؛ التصدع تشكل فالذات ترفض أن تموت وان تخلقت في أعماقي جوانب خاطئة كرد عن فعل قام.



المتاهة

تذكر العينان الكابيتان والشفتان الدانية من شفتيه، صادف أخيرا شيئا حقيقيا إنها الثورة، همهمت: أن الثمن سيكون باهظ؛ وبدأنا نبصر النهاية التي نصعد نحوها.



الحلم

تنفس بصعوبة محموما وكان الفضاء باردا، وهنا جاءت تذكركه بحبه العذري تطرق الحدود الشائكة، وعاد بذكرياته منكبا على حزنه العفن.



مفاجأة

هي صورة في غاية الحسن تناجيه في الغيب، تتعدى إلى الحس المعلوم باحثة عن لذة خاطفة؛ لا تعرف إلا به مؤكدة كلاهما وأحد.



استبداء اللحظة

ليست العزلة سلعة قابلة للتفتت يمكن استهلاك أجزاء صغيرة منها، كنت ملتصقة بجسدي أحسست بألم لاذع قطع نفسي وأنا منفصلة عن الجميع.

الهوة السحيقة تشكلت مع رحيله المفاجئ، تمتد كم أنني بئسة ماضينا ومستقبلنا وأفكارنا مستقبل طفلينا مرام وممدوح الخاص، ها أنا بلا روابط مهجورة أتأمل ذاكرة اقتحمها الموت وزمن مشاغب أقاتل بعنف حتى أكسب وده.

بعد انتهاء أشهر العدة وانصرام أيام العزاء، عبر النقطة المؤلمة وفاة زوجي في حادث سير اثر احتفالية ملتبسة؛ ووسط صمت من حولي المخيم على همهمة أصوات بعيدة ومجهولة عدت لمنزل الوالد.

تعود ممدوح ومرام دلال أمني ومداعبات أخي فهد العشق المقدس لوالدي بسبب علته المجهولة والدائمة، منذ كان في الرابعة عشرة من العمر والجهد والهزال الشديد وإصابة العمود الفقري وهو في المرحلة الثانوية عندما انقلبت حافلة المدرسة الخاصة التي يدرس بها في رحلة لمجموعة من الطلاب لمعلم تاريخي في برنامج ترفيهي للمدرسة، فأنكب على شئونه متجاوزا الوهن بنجاحه التجاري وإحساسه بقدرته على التنافس وتجاوز العواصف باشراقات دعاء الوالدة وحدها الخاص.

استيقظ الرجل في داخلي ذات مساء، وبقواري يجلس فهد نتابع مباراة في كرة القدم بين فريق النادي الذي أشجع تقليدا لزوجي المتوفى؛ وتجاوبا مع زميلاتي في العمل، وانبثاقا من ذاكرة تلميذة في المرحلة المتوسطة شكلتها معلمتها.

. لا . . لا . . سيكون الأمر مريعا.

. (الفتت نحوي بصوت خافت . .) وأنا أيضا.

. الهزيمة مرة.

ربضت كفه النحيله على فخذي اخترق لهبها قماش سروال البجامة القطني فتوقف انفعالي، كان يرتعش نهض وتركني انتظر عودته ولكن المباراة انتهت ودخل طفلاي في فراشهما وشاركت أمي والخدمة العشاء وغسل أطباق المطبخ؛ ثم تمددت في فراشي وقد أرهقني التفكير في أسباب هزيمة فريقتي منتظرة اتصال الصديقات عابثات ومناقشات حالي التي أشعر بنوع من الفضول حيالها؛ وقد ارتبطت بجميع القيم التي أتمسك بها متجاوزة الخوف الذي تملكني وغص به صدري؛ قرع باب الغرفة كان فهد يدعك كفيه؛ وجلس على طرف السرير.

- أنا أحبك.

- وأنا أيضا حبك.

- أتعلمين لم أفرح كثيرا بخسارتك؟

- كيف!

- لم لا نشجع فريقا وأحدا؟

- (وأنا أقف قبالته ضاحكة) آه! لذلك بدوت مريبا!

- ليس صحيحا.

لامست برقة جبينه فأغمض عينيه، مشاعر مختلطة تنازعني في الحديث عنه فهو يصغرنى بأعوام خمسة قارب الثلاثين ولم يتزوج، فكلما تقدمنا لمساعدته هرب حتى توقفت والدتي معلنة عن عجزها مبررة أنه قد يكون عنده أسباب نفسية، أشعر بمعاناته، جلست على الأرض توسد رأسي ركبتيه في محاولة مشاطرته اضطرابه.

أهدابه الطويلة أحبها وإشباع لحواس شرسة رفعت رأسي كان يحدق في سحبتة من مكانه ليجلس بجواري على الأرض ويجذر فطري التفت نحوه وقبلته على فمه عندها أصبحت عيناه قاسيتين كالحجر وأنفاسه إلى جانبي تتصاعد، تحرك وغادر الغرفة نمت في مكاني.



الأخت الثالثة

لما جلست قالت: ماذا قدمت حتى استأثرت بعشقتك !

قلت : ماذا لم تقدمه مضحية حتى نكون الواحد.

ولم تغادر حتى بذلت كل شيء، وارتسمت على وجهها الموشى بشقرة لاهبة ابتسامة نصر؛

وأنا أجمع أوراقي وملابسي عائدا عثرت على حزمة نقود تجاوز إجماله تخميني وبطاقة تمني.

شعرت بالهزيمة وأني كنت في سوق النخاسة .



الركض عبر أزقة الزمن

بعد تسويق وتردد كانت موافقتي سبب توقف انهمار دموع والدي التي أتعبها جسدياً ونفسياً إضرابي عن الزواج، فلما سمع الجميع موافقتي بعد أربعة أعوام من عودتي من رحلة دراسية ووظيفة تتفق مع تخصصي تجولت معها في مدن وقرى متفرقة حتى كان استقرارني بالرياض.

ونحن نناقش مواصفات الفتاة المطلوبة والتي تقارب عمري الأربعيني جاء التركيز على واحدة من الأسرة تأخر زواجها بسبب إصرارها على إكمال دراستها الجامعية والعمل.

وهنا كان استئجار شقة للسكن وتأثيثها بالفرش والمقاعد وجهاز التلفزيون وأجهزت المطبخ الرئيسة على أن يتم شراء المستلزمات عند الموافقة وحسب مطالب العروس.

في هذه الأثناء كنت اختلي بنفسي في الشقة لملاحقة مباريات كرة القدم في كأس العالم التي تذاغ عبر قنوات التلفزيون المشفرة.

ولم ألاحظ أن الشقة المقابلة لشقتي بها طبيب عربي وزوجته وابنته ذات السنوات العشر حتى سمعت صوتاً أنثوياً ذات ظهيرة يستأذن الدخول من الباب الموارب وعمال التمديدات الكهربائية يوصلون أسلاك مكيف الصالة التي أجلس بها.

كانت جارتني تبحث عن هاتف به خاصية الصفر لتتصل بجوال زوجها الذي تأخر ومعه الابنة التي انتهت يومها الدراسي فقدمت لها هاتفي وتواصلت مع زوجها، وقد لفت نظري جسمها الرشيق وشعر رأسها القصير والمقصوص (قصير تواليت) كالرجال.

انتهت واستأذنت اتصالاً آخر، وتبادلنا الابتسام استئذانا ولما تناولت الهاتف منها كان ساخناً وكفها ساخنة، سرنا نقاوم الاعتذار ونخاتل السؤال عن الحال حتى الباب وانتظرت حتى دفعت باب الشقة ودخلت.

انتهى عمال الكهرباء من انجاز عملهم وجلست أتابع لقطات مكررة لأهداف مباريات أمس وقد نسيت إن الباب لم يغلقه العمال لأجدها تقف على راسي وبين يديها طبق به قطع حلوى وبسكويت، لمحت ارتباكها فضحكت.

- جاء زوجي وابنتي.

- الحمد لله.

- وهذه الحلوى سبب تأخره.

تناولت الطبق وخرجت قمت بإغلاق الباب وتمددت لأخذ دقائق راحة ولكن قرعاً خفيفاً على الباب نبهني، كانت هي والابنة يستميحان مشاهدة المباراة التي سوف تبدأ بعد دقائق وفيها يمثل منتخب بلدها فريقاً حملة الجميع الصعود لادوار متقدمة، وقبل سماع موافقتي جلستا.

رن هاتفي يدعوني للحضور فخرجت ولم اهتم بالاثنتين، كانت والدتي التي تعرضت لنكسة صحية تنقل للمستشفى وهناك طال انتظارنا حتى كمل الفحص ونصحنا الأطباء بجلوسها أربعاً وعشرين ساعة للمراقبة فرافقتهما أختي الكبرى.

في العاشرة ليلاً عدت لشقتي ابحت عن الخلوة وعن متابعة باقي المباريات فوجدت قنينة عصير فواكه وطبقاً آخر به حلوى وقطعة كيك وقنينة ماء صغيرة تبقى نصفها.

في الواحدة وأنا أستعد للمغادرة أخذت أعيد ترتيب المقاعد وحمل الأطباق وآثار يوم كامل من الحركة، ولما فتحت باب الشقة وجدتها تقف في باب شقتها ترتدي ثوب نوم ناعم قصير يكشف كتفيها وجزء من صدرها، لم تتحرك فاقتربت منها حاملاً الطبق الذي تركته، تناولته مبتسمة ودعتني للدخول.

الشقة معتمة وضوء أحمر خافت ينساب في كل مكان، وفي مواجهة الممر باب مفتوح وسرير نوم خال تعامد نظري مع نظرها على الباب المفتوح، كانت تحقق برنامجها، عرفت أن الابنة راقدة في غرفتها وأن الزوج بالمستشفى وأنها الآن هي من يريد قضاء دقائق متعة تبحث عنها بين وقت وآخر.

استمتعت بمفاتنتها وحراكها، لم أجد صعوبة في الدخول في كل مكان من جسدها، ولما توقفنا نستعيد أنفاسنا.

- تصدق لم أبحث عن الكثير؟

- وأنا كنت قلقا.

- لم القلق؟

- شيء لا أتحكم به.

كانت امرأة بلا قضية إنما عندها هدف محدد، تريد فقط أن تكون أقل خوفاً، ووجدتها كتلة من المفارقات رخيمة أنيسة بمتعة البراءة الأولى؛ لتنبه على صوت جرس الساعة التي لا ادري أين، رافقتني إلى الباب الذي لم تغلقه حتى قفل المصعد بابه.

انقطع حضوري للشقة بسبب تدهور صحة والدتي، وتناوينا في البقاء في المستشفى، وفي هذه الأثناء التقيت بالفتاة التي اختارتها والدتي عند زيارة والدتها لوالدتي ومرافقتها، وفي الممر اقتربت منها شاكرة زيارتها وأمام نافذة الممر المطلة على فناء يضم مواقف السيارات ومقصف وجبات سريعة ومشروبات يبيع باقات الورد وعلب الحلوى لزوار المرضى توقفنا فرفعت الغطاء عن وجهها لتسمح لي بمشاهدته عن قرب، تميل للسمرة نحيلة الجسد طويلة القامة ترتدي فستاناً حديثاً ضيقاً وبعفوية أهملت طرفي العباءة لتنتفح حتى أكون صورتي عن شكلها.

في اليوم السادس صممت على الذهاب إلى الشقة، وأنا أفتح الباب فكرت في طرق باب الشقة المقابلة ولم أتشجع، كانت الساعة التاسعة ليلاً والظلام والمطر والبرد يحيط بكل شيء، فأشعلت الأضواء وتركت باب الشقة موارباً منتظراً حراك المكان، وإذا بصوت رجل يستأذن كانت جارتي وقد تهدلت العباءة المزخرفة على الكتف وزوجها وابنتها بعد عشاء في أحد المطاعم تبادلنا التحية أعتذر الجميع عن قبول دعوتي.

ولم يمر وقت طويل وإذا بالباب يقرع كانت الطفلة تحمل قنينة عصير فواكه وطبق حلوى ويسكويت تناولته منها ومررت كفي على رأسها وتابعتها بنظري وهي تدخل شقتها.

نمت في مكاني لأتنبه على الهاتف كانت خطيبي تدعوني لمقابلتها، جاء اللقاء في السادسة عصراً كانت تنتظرني في مكان عام أوصلها إليه سائق أسرتها وعلامة التعريف حقيبة يد خضراء وزنبيل عليه علامة محل

تجاري معروف حتى لا يلفت بحثنا رجال الحسبة ومرافقيهم من أفراد الشرطة؛ وفي عربي وبعد أن غادرنا موقف السيارات تقابلت كفانا وفي مقهى بمركز تجاري توقفنا.

- دعوتي للتعارف أكثر.

- هذا مشجع.

- وعلينا عدم التسرع في القرار.

- اجل.

وتشعب الحديث فالحاضر يدغم ذاتين في واحدة، لم يكن هناك خيار؛ ليرن هاتفها، وهنا طلبت مني إيصالها إلى المكان الذي أخذتها منه وان اقترحت عليها إيصالها لمنزها لم توافق فوالدتها وإحدى قريباتها في انتظارها بالمكان الذي أخذتها منه.

انشغالنا بمرض والدتي والبحث في مناسبة الفتاة التي اختارتها أمني وأسرتها زرع القلق والجدال بين إخواني وأخواتي وقد تنافس الجميع في إيجاد البديل المناسب.

بعد اتفاق مع شركة دوايب المطابخ جاء موعد التركيب الذي تأخر فسبقتهم إلى الشقة انتظر وصول عمال النقل والتركيب، وأثناء حركتهم أطلت جارتي محببة ووقفت أحدث معها، كانت العاشرة صباحا، تتناول قهوة الصباح دعيتني للدخول والهاتف يرن رفعت السماعة كان الآخر يحدثها وهي تحدد بي معلنة عن ترحيبها بوجودي، ولما أغلقت الهاتف طوقتني بذراعيها وجلسنا ملتصقين؛ امتصت الحياة مني وزرعت في داخلي تألق اله الحب، منازحة بكل وجدها وشبقها إلى مرحلة خلق صور جديدة من العشق في لحظة اندغام مع شقشقة عصافير الصباح وصوت حركة المارة والسيارات في الشارع.

انتهى العمال من مهمتهم وكان علي تسليمهم باقي أجرتهم، ولما بقيت وحيدا في الشقة جاءت تحمل طبق الحلوى والبسكويت وقنينتي عصير الفواكه، جاء حديثنا عادي فقد تجاوزنا الانبهار.

وفي اللقاء الثاني بخطيبي لم أكتف بتعانق كفيما فقد أطبقت على شفتيها في قبلة طويلة لم تقاوم استسلمت حتى شعرت أن أنفاسنا تقطعت فتركناها وقد كنا داخل سيارتي التي تقف في ظل شجرة وارفة بعيدة عن الأنظار.

- هناك أمر.

- خير.

- اعرف ان الوالدة مريضة وإنها تبحث لك عن زوجة من اجل الأولاد.

- كل شيء بأمر الله.

- أنا معك.

وعرفت إنها في زمن سابق أجرت الفحص الطبي للزواج بعد أن تقدم لها أحدهم وجاء الفحص أن صحتها جيدة وان كانت تعاني من بعض العيوب الخلقية منذ الطفولة، أهمها ضيق المهبل الشديد، ولكن من ناحية الحمل عقيم بسبب خلل في المبايض والتصاق داخل الرحم وأشياء أخرى اكتشفتها بعد تخلي من خطبها عن إكمال مشروع الزواج، كانت مصارحتها ايجابية وتمنحني فرصة التفكير.

- هل أمك أخبرت والدتي؟

- لم تفكر في ذلك.

- ولماذا؟

- لا أدري.

اتفقنا على إبقاء الأمر سرا حتى تغادر أمي المستشفى وأوصلتها إلى منزلها وداعبتها برغبتني في الدخول واقتحام غرفتها .

خرجت والدتي من المستشفى منهكة وبقينا حولها نرحب ونستقبل الجيران والأقارب مما أنساني الهروب إلى شقتي، كما جاء تكليفي بحضور برنامج تدريب لمدة خمسة عشر يوماً خارج البلاد، فرصة للنقاهاة والتفكير في مصارحة أمي بشأن الفتاة التي اختارتها زوجة لي.

ولما عدت تريت وأخذت طريقي لشقتي وهنا كانت المفاجأة وجود ساكن جديد في الشقة المقابلة أسرع إلى مكتب العمارة فأفادني بان الطبيب في إجازة من العمل ويسكن في الشقة الساكن الأساسي، أخته الأستاذة الجامعية وزوجها المرافق الذي يعمل مندوب مبيعات في شركة تجارية للتوريد والعلاقات العامة وعرفت ان الطبيب يقيم في سكن المستشفى وأن زوجته تأتي وقت الإجازات وهي تعمل محررة بصحيفة معروفة كمدير تحرير.

لم أتوافق مع هذه الأخبار فأخذت أتجول بسيارتي في الشوارع ثم قادتني إلى مطعم ومنتزه خارج المدينة يلتقي فيه الأصدقاء لقضاء الوقت ولعب الورق .

وأنا في طريقي للشقة تذكرت اسم المستشفى الذي يعمل به زوج جارتني فهو مشهور وبه خدمات طبية فندقية تجاوزت في بعض الحالات التصور الحالم، وأنا أسير على غير هدى بين الممرات كنت أجد ممرضات وعاملات من جنسيات مختلفة رشيقة ومظهر خلاب وعلى محياهم ابتسامة تدعو إلى الاطمئنان والبحث عن كلمة طيبة .

- الدكتور جمال .

- نعم .

- اجث عن الدكتور جمال .

- اخذ إجازة .

- يعني سوف يرجع .

- إذا ولدت زوجته .

- نعم؟

بعد عشر سنوات حمل وإجازة مفتوحة وان علامات الحمل اتضحت وبما أنها في الأربعين وكلما زاد عمر المرأة قلت نسبة حدوث الحمل فلا بد من رعاية خاصة إذا أثمرت العلاقة؛ وهنا كان الرحيل الذي معه إبقاء الإجراء في نطاق الحلم، ولجت الشقة وتركت الأضواء تشع ولم اهتم بالتلفزيون الذي يحمل فوق ظهره صحناً وردي اللون صغير الحجم، وبجواره قنينة عصير فواكه فارغة .

في الحادية عشرة ليلا رن هاتفي كانت أختي تخبرني بانتكاس صحة والدتي، وأنهم في طريقهم للمستشفى، لم أهتم بإطفاء النور ووجدت جارتي الجديدة ومعها مجموعة من الرجال والنسوة عند المصعد، الجميع راقب خروجي من الشقة.

- هل أنت الجار الجديد؟

- وانتم؟

- نحن هنا منذ عامين؟

- شهر. . إنما كان في الشقة آخرون؟

- نعم شقيق الدكتورة.

وعرفت إن الدكتورة التي تعمل بكلية جامعية في قسم البنات كانت في إجازة دراسية أثناء الصيف، معه سكن الطبيب وزوجته التي جاءت في إجازة عمل لقضاء بعض الوقت الدكتورة كبيرة في السن وجسمها المكتنز يشع بياضا والأخريات والآخرون يتفاوتون في العمر وتباين الملامح ولون البشرة.

دخلت والدتي غرفة العناية المركزة ثم لفظت أنفاسها وبعد انتهاء العزاء أخبرت أختي الأكبر بفحوصات خطيبي وقرار الأطباء استحالة حملها.

- من؟

- زينب بنت الخالة نوف.

- هذه تزوجت.

عرفت أنها حصلت على بعثة للدراسات العليا وتوافق ابتعاث آخر من أقارب والدها فكان زواج تسهيل السفر وإكمال الابتعاث، شعرت بالضيق إني أشبهه كالكامش الذي عاد خائبا من رحلة الوصول إلى الخلود ومع غروب الشمس وأمام باب شقتي وقفت مترددا بين الدخول والمغادرة وحولي حركة سكان العمارة وتراكم الأطفال، ولحنتها ملتفة بالعباءة تخرج من المصعد، حدقت فيها وهي ترفع الغطاء عن وجهها تدقق في أرقام الشقق ولما وجدته أراقبها تبسمت، عندها فتحت باب الشقة وتركته مواربا وجلست في العتمة أحرق في التلفزيون وشع نور انفتاح الباب.

- لم أجد أحداً.

- نعم؟

- أخي وزوجته.

كانت في زيارة لشقيقها، زوجها غادر قبل أن يتأكد من وصولها، دعوتها للجلوس جاءت كماء السماء؛ تلفتت حولها تقوم ثم تفتتها الطائشة في حضور مجهول وكأن شخصا يسوقها ليخلصها من شبح في الخارج كان يركض وراءها.

- لا يوجد أحد.

- وأنت.

- مشروع لم يكتمل. . لا أدري لماذا أحببت هذه المدينة!

- إنها رغم تعددها تزرع السلوان.

- وتأني من الضياع.

شرحت لها وضعي أنفاسها أرواح بشر لا تعرف الرعب الضاج بالعزلة، تركتها لإحضار أكل ومشروبات من مطعم مشويات وفلافل اعتدته، ولما عدت كانت تجلس أمام التلفزيون ثم نهضت ترقص على أغنية انبثقت

عبر الشاشة فالرقص يفجر عقدنا الخفية؛ تناولنا لقيمات وتجرعنا بعض القطرات من المشروب شعرت بارتعاشها ونزقها.

- سوف يأتي في العاشرة.

- من؟

- أبو ميسر.

- زوجك.

- وصغيري ميسر الحياة المتواصلة.

عرفت ان الطفل ذا السنوات الثلاث مع أبيه الذي أخذه إلى مركز ألعاب الأطفال في سوق تجاري يقتني من محلاته احتياج الأسرة من الغذاء، وحتى تزور أخيها؛ تذكرت جاري وحملها وخطيبي التي لم تنتظر ردي.

صدرها الصغير لفت نظري وبياضها المائل للشقرة أهب أفكاري وفي التاسعة والنصف استعادت الهدوء ورن هاتفها كان زوجها ينتظرها عند باب العمارة وهي خارجة لحت ابن شقيقها ذا السنوات الخمس ينسل من المصعد فهبطت مع الدرج.

أعلنت الإدارة التي أعمل بها عن برنامج تدريب جديد لمدة عام فتقدمت له وتوافق اختياري مع آخرين من إدارتي ومن دوائر حكومية أخرى، ذكور وإناث في مدينة أوروبية وأخرى أمريكية، وبما أنني جربت أمريكا سنوات الدراسة الجامعية فكان اختياري للمدينة الأوروبية لندن مع معرفتي بصعوبة المعاش اجتماعيا وسياسيا فقد كان تحد جديدًا، جاء سكني وفق ترتيبات المعهد المشرف على البرنامج وبعد اكمال التسجيل وإعداد جدول البرنامج قررت إدارة النادي العربي بالجامعة التي تضم الكلية التي ندرس برنامجنا بين جدرانها استيعابنا في اللجان؛ وكان الحضور اللافت خطيبي التي لم يؤثر على تركيزها وقوفي أمامها، عرفت أنها أكملت عامها الأول وأن زوجها هجرها بعد ستة أشهر وقد انضم إلى مجموعة معارضة لم تتمكن من توحيد صفوفها في الداخل كحركة احتجاج اجتماعية بشأن مطالب الإصلاح والتغيير التي يمكن الحصول عليها بالتفاهم والحوار

؛ فتحولت إلى جماعات انشقاق سياسية توزعها الأثنية الطائفية المذهبية والعرقية القبلية؛ تطالب بإصلاحات سياسية واقتصادية في الوطن وفق أجندة بريطانية تتقاطع مع المصالح الأمريكية .

- ستجعليني اشمئز من نفسي.

- نعم؟

- لن ارغب في وجود أي كان معنا.

- لماذا؟

- لجرحي القديم الذي دمك جف عليه !

وتركتها مع مجموعة من الطلاب لمناقشة اختيار أعضاء مجلس إدارة الجمعية التي تشارك في نشاطها العلمي؛ ولحق بي أحد أعضاء البعثة وجلسنا على مقعد في حديقة عامة تقبع بين السكن والجامعة يائس حزين ومعرفة كاملة كنبوءة حالة لموضعه الروح.

- ستتمكن من مضاجعتها في نهاية الأمر.

- تلك اللؤلؤة السمراء؟

- نعم.

كنت أعاني من فراغ غامض . . ماذا عساها تريد .؟ إنني أجد الخلاص في نكران نفسي، فالدم الذي يجري في أعماقي مسموم، الأمر يتطلب عملية خلق كاملة فقد تلوثت عيني ونفت الصيديد سمه في قلبي، أغرق في وهم لم يتحدد إطاره ولم اسع إلى تجاوزه، عالمي الداخلي لم يسع لبعث تجربتي الذاتية والتعبير عنها بلغة واضحة .

وفي الصباح وأنا أستعد لمغادرة غرفتي للجامعة وجدت ورقة صغيرة تحت الباب (هذه الليلة سوف أحضر إلى غرفتك في الحادية عشرة والنصف . . خطيبتك) ذلك الشعور الملتبس الذي استقر في داخلي جميع أفراجه صارت الآن تخفي طعما غير مستساغ، فوجودها بعث في لذة لاذعة.

- أتعرفين ماذا فعلت اليوم؟

- ماذا فعلت؟

- لما أنهيت كلمات رسالتك . . فكرت بالموت.

- وبعد؟

- تذكرت حياتي المحمومة والمعقدة.

وتوقفنا عن الحديث كنا نركض نحو اللحظة التي استعصت وذلك الجوع الممتد لكل شيء خلفنا؛ أشكل معها صيغة أحلامي كما الآخرين، وكل ما أتذكره أن حلمي كان يسير معي في الشفق، وفي لحظات انتشار ظلي ببطء على الجدران وأنا أركض بحثاً عن شيء أسطوري.

دفنت وجهي في صدرها أستمع لنبضات قلبها وأستنشق الرائحة الطيبة؛ ناصت للحديث المرسل بالحكمة والمغفرة أستجدي البقايا المشتعلة من طموحات عالمها الدوار وقد استنفذت السنين ذاكرتي، فلها طريقة سرية تكفي لمعرفة أن دائرتها الوسيعة المطوقة تضم الكل وقد تبلغ الكل .

وعند مدخل مكتبة الجامعة انفصلنا، ودع أحدها الآخر بكلمات مقتضبة؛ لأجد مرافقي في إعداد بحث الموضوع الذي نشترك فيه مع باحثين من جنوب إفريقيا ونيوزيلندا يناقش ما تم الانتهاء منه لتكون المراجعة بوجودي.

- رائحتك عبقة.

.....

- لقد ضاجعتها أخيراً أنها رائحة الأرض.

.....

- لقد قتلت الأوراق.

- أنا رأيتها تسقط.

كان يسترق اللحظات لينفس عن اكتشافه باللغة العربية أمام صمت مرافقتينا وانشغالهما بتدوين الملاحظات وصياغة ورقة العمل وتوزيع المحاور عند النقاش واحتفلنا أربعتنا في نهاية الأسبوع الأخير، بالتقدير المتقدم في مطعم الجامعة ثم في غرفة الإفريقية التي قدمت جسدها قربانا للمناسبة؛ النيوزلندية الساخنة مثليه وتميل إلى الذكورة مبررة حيويتها وزهوها، وان تمكنت من اكتساح حصونها والركض في ساحاتها كما حصان بري انفلت لجامه عنوة من يد مروضه، بعدما لعب المشروب برأسينا وقد علا شخير مرافقي وكذلك الإفريقية التي سكن حراكها، ولما عدنا لرشدنا كان الصداع يحطم رأسي والشقراء ترمقني بتوجس ثم أجهشت بالبكاء.

- هل انتهينا

.....

- هو الوداع لزمان مليء بلاشيء.

نوبة من نوبات الضعف التي تنتاب القلب، واصلت البكاء متكئة إلى كتفي لا يمكن تصوري ونظرات زميلي القلقة والإفريقية المبتسمة فأحسست بنفسي خسيسا، ومعها أصبحت عيناها قاسيتين، واستعادة وعيها تحول البكاء إلى حشجة، احتضنها مرافقي وغادرت الغرفة مع الأفريقية.

بينما أراجع بيانات أوراق إجراء في المكتب رن الهاتف كانت خطيبي السابقة التي عادت، تدعوني لموعد عشاء مذكرة بما يقوم به المحبون في الغرب عند الموعد الأول .



مشكلة

كما هي الرؤيا شعرت بما تقف في وسط الغرفة، جاءت كما كانت عندما أوقفني رجال الشرطة ولم يتبق على الطائف المدينة المكان والناس سوى مائة وخمسين كيلومتر، سيارتها ارتطمت بحاجز الطريق الأسمنتي في محاولة من السائق تجنب الاصطدام بقطيع من الأغنام انبثق فجأة، زوجها المكلف بمهمة عمل في مكة المكرمة دفعها إلى مشاركته الطريق.

ترددت في نقل الاثنين فأنا عائد من الرياض بعد فشل إقناع زوجتي الثالثة التي اختارتني لمظهري بعد معرفتها بفشل تجربتين ان يستمر زواجنا الذي لم يكتمل عامه الأول.

لما دخلنا الطائف في الثالثة صباحا البرد والضباب يركضان في الشوارع الخالية، أقنعتها وزوجها بقضاء بقية الوقت في سكني المكون من غرفة وصالة جلوس ومطبخ أكن فيها منذ شعرت أنني مختلف، زهد في أشياء كثيرة من الموجودات.

مع ارتفاع صوت المؤذن ينادي لصلاة الظهر، لم يكن هناك أحد فقلبت هاتفي الجوال الذي توقف نبضه بسبب انتهاء البطارية، كنت أرقد على الأرض في الصالة أمام التلفزيون وخلفي دولاب الكتب التي تشاركني قلقي.

هنا أشعر أنني أملك نفوذاً معه أصرف النفوس وكشف العلوم التي تعسر على الآخرين، فوجدت لنفسي الخطوة التي تتجاوز الذلة ولا تشعر بالحاجة، دخلت الحمام وانسكب الماء على جسدي، بدلت ملابسني وخرجت مع ارتفاع صوت المؤذن يقيم الصلاة، وفي المكتب طرح رئيس القسم بعض الأسئلة وقد استفسر رجل أمن بالهاتف عن وجودي.

قبل انتهاء الأسئلة وإكمال باقي ساعات العمل، تذكرت هاتفي النقال فتشت جيوبي وتذكرت أي ربطته بالشاحن لإعادة الروح إليه.

تذكرتها كانت رفيقة باقي الطريق منذ شهر، ترتدي قميص بيجامتي البيضاء المخطط، يغطي نصفها العلوي وجزء من وسطها، طرفا القميص ينفرجان عن سرها وسروالها الداخلي، بشرتها السمراء لا تفصح عن أنها تجاوزت الأربعين، نظارتها تزهو، اقتربت من مكاني لينبثق من جدران الغرفة شعاع أبيض تتطاير فيه فراشات وندف بيضاء وقصاصات ورق ملون.

مرآة الوجود تختصر انتظاري وتطلق نقاء أعماق الكشف التي حبسها الذوق لانعدام الفكر الصحيح، قررت وحركتها توجد الحرارة أن تشعره بوجوده حتى يختار بملء حريته، إنما هنا عليها أن تفعل، رفت جفونها قليلا ومطت شفيتها، شعرت بغصة في حلقي، لا لم يكن من الممكن أن أستسلم لهذه الرؤيا التي قد ترك على الفور في الفم طعما زائفا.

تجاوزت رد فعلي الأول؛ أحاول إقناع نفسي أن حقيقة اللحظة البسيطة الخوف لا الظروف المصاحبة، كنت أعرف أن التفاصيل أكثر شناعة، والزمن مغالطة كبيرة والعطاء والمنع تتم وفق المقام الذي معه جاء التشكل.

أنفاسها تلفني وحديثها يرتقي بنا إلى حالة اندماج وينساب نهر النور صاعدا مع تصاعد أنفاسي، رن جرس المنبه فتحت عيني، النور يشع، قميص البيجاما معلق مع باقي الملابس في المشجب، جلست على طرف الفراش خالي الوفاض واتجهت إلى الحمام لفت نظري برودته والبخار المتصاعد من الجدران كما الضباب.

في المكتب ناولني المراسل مغلف قال ان رئيس القسم تسلمه، فتحته كانت صورة صك المحكمة بطلاق زوجتي الثالثة، ورسالة غير موقعة من رجل أوصلته ذات يوم يخبرني أنه ميت منذ عام ستمائة وستة وخمسون، عندها تذكرت أنني غير موجود ولم يعد أي شيء يفصلني عن نفسي .



متآكلا بالصمت

في رحلة قاسية تشكل وجها متآكلا بالوجع، ومع الغضب هام في شوارع المدينة الراقدة في أحضان جبال السروات جسدا متآكلا بالصمت، تزوج وطلق في عام وأحد نعتته بفاقد الرجولة؛ غير أنها لاحقته وهي في الشهر الثاني من العدة بأنها حامل، مع شكه لم يقف أمام تسجيل ولدها باسمه.

احترف أعمال كثيرة موظف حكومي سائق سيارة أجرة وحارس في مركز تجاري تعدد أنشطته وقود هوايته في الرسم ويرفض اعتباره فنان تشكيلي وان بعض شخبطاته اختارها أصدقاؤه لتكون تعريفاً لكتب أصدرها النادي الأدبي .

وجاءت ذات مساء كان يقف في بوابة القادمين في المطار باحثا عن راكب ينقله، تلفتت حولها ثم جلست في مقاعد الانتظار وخلت الصالة من المسافرين، تحركت على الرصيف قلقة اقترب منها شيء دفعها للسير بجواره ركبت بصمت السيارة.

عرف أنها قدمت لتشارك في عزاء أختها التي ماتت بعد معاناة مع المرض، طلبت رقم هاتفه لتسهيل نقلها حتى عودتها لمدينتها ومنزلها في الشمال.

في اليوم الثالث جاء اتصالها أوصلها للسوق لا يدري ماذا تريد، بعد تجوال طال عادت، عرف إنها تبحث عن شيء فقدته؛ الرابعة عصرا اقترح تناول فنجان من القهوة في منتزه في أعلى جبال المدينة، لم ينتظر إجابتها فاتجه غربا لم يكن المقهى بعيدا .

في الصباح وهو يهم بمغادرة الدار جاء اتصالها، كانت ترتب سفرها في مكتب الطيران أكدت رقم رحلتها، ولفت نظرها حفاوة الموظف، عرفت هوايته فأصرت على زيارة مرسمه، ارتبك غير إنها حاصرته تجولت بين رسوماته وألوانه شعرت بالرعشة أمام وجه فتاة تشبهها وطفل ملامحه غريبة .

قال: زوجتي وابني.

قالت: نعم؟

قال: طليقتي.

وهو يوصلها طلبت منه قبول دعوتها للعشاء، فرحلتها في العاشرة ليلاً تحول هو المضيف نصب طاولة الأكل بين لوحاته وعلب الألوان، بعد المغرب جاء هاتفها تجول بين شوارع المدينة وأزقتها المظلمة في وجودية مدمرة؛ في الثامنة كان الاثنان يجلسان على مقعدي الطاولة، نهضت تفتت كآبة الغرف المعتمدة ولتعلن البؤس الذي يمتصها لاحقاً بنظره .

تجاوز انهزاميه وتذمره باحثاً عن الحب شاطرته جنونه في إثبات وجوده ورجولته مع تخل عن عقلها معرية قشورها لتغوص في أيام طفولتها انه الماضي الذي ينتقم من كل شيء، تمرغ في داخلها إلى حد الموت.

في المطار دخل معها إلى صالة المسافرين، تناولا مشروباً بارداً والمذيع يعلن توجه المسافرين إلى بوابة السفر شدت على كفه لتمتص واقعه ومشاعره، ليبدأ المرحلة الثالثة من حياته.



البقاء على مقربة

اجتزت عامي الجامعي الثالث بتوافق معنوي ومادي، المعنوي شهادة تقدير من القسم الذي أنتمي له، ودرع بسيط من جماعة النشاط الثقافي والرياضي بالكلية.

ومادي حققه والذي في بداية الأسبوع الأول من إجازة الدراسة حيث أخذني إلى وكالة سيارات في الطائف وقام بشراء سيارتي الأولى.

جاء الصيف هذا العام حافلا بالنشاطات الاجتماعية والثقافية التي أسهمت في بعضها، وكان حفل زواج أحد أقاربي مناسبة غير عادية، فقد جاء وأنا أستعد للعودة إلى الرياض لترتيب انطلاق العام الدراسي الرابع.

كنت أفكر بالسفر بالطائرة وحمل السيارة عبر وكالة نقل السيارات، غير أن تفكير أمي بهاجس سفر فلانة عممة العريس المقيمة في الرياض عند أولادها، وفلانة شقيقة العروس المقيمة في الرياض حرك في تجربة السفر برا.

توافق الجميع على الفكرة وانطلقنا ثلاثتنا بعد غداء في منزل أهل العريس، في الرابعة عصرا كنا نغادر الطائف الأرض والناس؛ في المقعد الأمامي بجواري فلانة الأولى عممة العريس وفق حدس خاص، وفي المقعد الثاني وبالتعامد معي تجلس أخت العروس.

وبعد خروجنا من الشوارع الموشحة بأسماء من الماضي وأشجار تين ذابلة وحدائق ورد بكماء والجبال توشحها شمس الغروب الصفراء توقفت أزود سيارتي بالوقود ومعرفة حاجات مرافقتي من السوائل والأطعمة، ولما عدت للسيارة اكتشفت تبادل الاثنتين أماكن الجلوس.

انتصفنا الطريق والظلام يخيم، الإسفلت يتمدد أمامي وأنوار السيارات العابرة والقادمة من الاتجاه الثاني يشاركانا الحديث المتقطع وعلامات القلق والإرهاق، لتطل أنوار مقهى وموتيل مسافرين فكان أن حجزت غرفة لمرافقتي ورتبت إحضار عشاء وشاي.

أوصلت مرافقتي للغرفة التي تفقدتها معهما وخرجت حتى تمارسا حاجتهما بحرية، ولم ألاحظ وأنا اجلس على أحد مقاعد المقهى أتلذذ بمج دخان سيجارتي وتجرع كوب الشاي؛ أن أحدهما تقف في نافذة الغرفة ترصد حراكي.

جاء عامل المطعم يخبرني أن العشاء الذي طلبته معد، أخذته إلى الغرفة، تباين ترحيب مرافقتي كان ملتبسا فقد قرصهما الجوع، البنية الجسدية للثنتين متقاربة، وقد ارتدت أحدهما فستاناً يبرز ثراء صدرها؛ والثانية ترتدي بنطلوناً داكن اللون وعلى الوجه غطاء شفاف.

وأنا أقف عند الباب لمعرفة حاجتهما جاءت مطالبتهما ان أبقى لمشاركتهما العشاء، كنت أجلس بين اثنتين تباين هاجسهما وتزداد رغباتهما وضوحاً وتعلقاً مع قلق لم أهتم به، ولحسن الحظ دائماً ما تعطيني الأقدار تعليمات تكون قد تم تنفيذها بالفعل في أكون أخرى.

لم أجد السياج المعنوي الذي تشكل مع العباءة السوداء وغطاء الوجه القاتم طيلة الطريق، لتحل ببساطة اليقظة والانتباه وهما في نظري يعنيان الأمن والاطمئنان، انتهينا من العشاء وشرب الشاي وحديث متقطع لتقول فلانة التي لا أدري وهي تسأل عن مقدار أجرة الغرفة وثمان العشاء إنني أمثل لها رغبات كامنة في جسدها اليبس الذي معه وقفت الأخرى منصتة ومتقمصة للتظاهر بالأخلاقيات، وفي أعماقنا أشجار مكر وشر؛ يقن بمدى فرادته.

ساد الغرفة عتمة وزاد إشعاع الضوء القادم من فضاء اختلطت فيه بذرات الحياة، الأخرى تقف في النافذة ترمق الأفق ثم غادرت الغرفة وأنا أتعارك مع من تسعى لامتناس الحياة من جسدي؛ جاء انتصارها ديمة هطلاء متجاوزا تجاري العذراء ففجرت الساكن الذي قاومته بوعي مجهول الهوية وبوجد ونكهة تكشف فيها أنواع اللحظة.

كنت أعرف أي مندفع، إنما كانت هناك لحظات يتوق فيها نفاذ الصبر لاعتیاد الانفجار، وبما أني معزول بسبب دراستي أملك صداقات معدودة تشاركني عادات كثيرة تنمي مواهي وطموحي العلمي، ومن هنا جاء تخرجي وطلب الجامعة أن أكون أحد أعضاء التدريس بحلم الابتعاث واكتشاف الجديد.

وافق والدي على تواصللي العلمي، وحتى تكسر أمي حاجز الخوف شاركتني عدة أسابيع من تشكلي الجديد، وفي يوم عودتها طلبت مني وهي تنسوق أن أحقق رغبتها في زيارة قريبة انقطعت أخبارها حتى تطمئن على صحتها.

كانت الصديقة عمه قريبي فلانة الأرملة التي شاركتني الطريق ومن كانت بجسدها المعروف لحظة انبثاق أكتمل عناصره، التقت كفانا ونظرنا المرتبك لتتحول ابتسامتنا الصغيرة إلى ضحك صاخب توقفت معها أمي عن الكلام.



سبات عميق

لم فكر أن الحلم الذي تكرر أخيرا يتجسد حقيقة في يوم من نجوم سعد الذابح وقد لف الرياض الغبار ووسم اللون الترابي كل شيء، أنه الفراق المطلق في لحظة غرق في سبات عميق إذ لم يعد هناك أحد.

كنت أنتظر مقدمها في إحدى زوايا مطعم عائلي اعتدنا ارتياده للحديث بعيدا عن الأخباريات في هم تلبسنا؛ ننشد الحب الذي معه فجرا نهض بقلب يطير بعيدا عن عقاب الندم وضعف عندما تلاحقنا الحبيبة.

تأخرت فتشاغلت بالعبث بجوالي ومجلة علمية وجدتها على الطاولة التي سبقني إليها النادل فطلبت فنجان قهوة واستأذنته ترك المجلة حتى حضور مرافقتي.

وجاء صوتها عبر الحاجز الذي يفصل الطاولات تتحدث كثيرا ومرافقتها تمهم وتضحك بصوت مرتفع، ولامسني انزعاجها من شيء يمزقها كان مع توافق جسديهما هناك جزء يغمرها بالخوف والوجع ويدفعها إلى الابتعاد عنه.

رن جرس الهاتف وتوقف الحديث، طال الرنين وتوقف ثم عاد ليتوقف فقد رد أحدهم، شعرت أن هناك حركة قادمة رصدت الممر، أحدهما تتحدث بصوت خافت هي ترمقني بنظرة فارغة من علامات الاستفهام.

تركت مكاني ولحقت بها سبقتي إلى المغاسل والحمامات، وقفت بجوارها أتأملها رفت على شفيتها ابتسامة ألفت التحية، بعد فراغها من الحديث تطلعت في المرأة تعيد تشكيل وجهها.

عدت لطاولتي، هنا لمحت الأخرى، كل شيء فيها يدفعني إلى الاقتراب منها ومشاركتي طاولتي فقد مللت انتظار صديقتي.

قالت: وأنا تركتني صديقتي.

قلت: نعم استمعت لطرف من حديثكما.

قالت: حديث أنثى.

قلت: ليس هناك ما هو أكيد سوى ما نلمسه.

قالت: لم يعد في وسعي التركيز.

اكتشفت أنها أنا بكل عقدي وهمومي، توقفنا عند العمل وأيام الدراسة والزواج وأتت صديقتها مرتبكة خائفة، فقد تعرضت لحادث سير تخلصت منه بأعجوبة، وصديقها يحل إشكاله مع رجال الشرطة، تركت الجميع وأخذت سيارة أجرة.

لم تعتذر صديقتي ولم يبق من الوقت كثير، ونحن نستعد ثلاثتنا للخروج، اتفقنا أنا أقوم بدفع فاتورة المطعم على أن توصلاني للمنزل وتبادلنا أرقام الهواتف والأسماء.

وأنا أتمدد في الفراش بعد تفقدي ابنتي ذات السنوات الثلاث منتظرة اتصال زوجي المسافر في مهمة عمل خارج الرياض لمدة يومين رن الهاتف كانت رفيقة المطعم.

حدثني عن صديقتها المنحوسة وباحت بألمها الذي تراه نادراً عرفت أنها تدفعني للاقتراب أكثر وأني أذكرها بزميلتها في الجامعة وأيام الدراسة وأشياء أصبحت كل حياتها.

قلت: وأين الألم؟

قالت: فيه

قلت: من؟

قالت: زوجي !

عرفت أنه يسحقها بقوة وأنه يمزقها في الفراش ويلغي وجودها الإنساني والجسدي في البيت ولا يحترم خصوصياتها بفعله غير الطبيعي، كنت أضحك من استرسالها، عرفت إنها لم تكمل عامها الأول كزوجة في شهرها الرابع، تزوجت قبل التحاقها بالعمل في منتصف الفصل الثاني من العام الرابع والأخير في الجامعة، لم تفكر أن عليها أن تحسم أمرها بشكل نهائي، إذ لم يكن لديها سوى سلسلة من الهموم الأسرية الصغيرة.

مع الوقت شعرت برغبة في لقاء الزوج، لم تعترض ولم تنفر من فكري فقد وجدت في شيئا مما فقدته في صديقتها، هم مشترك و فراش لم يعد شريكه يشكل همنا شعرت بالدم يحتقن في وجنتيها، انتشرت على وجهها عذوبة ملائكية، رتبنا بصمت اللحظة، كنت عندها مارسنا عبثنا قبل مقدم صديقتها، اختلط عرقنا كان الوقت نسيم من الفرحة المترع بالراحة والسكينة. فغاصت أناملنا في أجزاء تعودنا مداعتها عندما نكون في خلوة وقد جمع الخيال.

أوصلني للمنزل تقطع الحديث بيننا في السيارة أنا في المقعد الخلفي وهو يسترشد العنوان شعرت بنزقه.

قلت: توقف حتى انتقل لجوارك.

لم يرد، أعرف الطريق طويل والمنزل خال، زوجي سافر وابنتي عند أمي، أغالب الخوف ونحن نقترّب من المنزل أشعر بالعبء لا أحس بانزعاج فقد أخذت على نفسي اقتحام التجربة بأمانة وعلي البحث عن التركيز المطلوب بصرف النظر عن كل شيء.

قال: نعم.

قلت: حتى تسمع صوتي ونصل.

توقف عند محطة بنزين فترجلت ودخلت البقالة وشريت قنينتي عصير وعدت جلست في المقعد الأمامي، هو اللجة والأبهة وأنا الوردة الكاملة الشذى، ووصلنا تريت حتى افتح الباب تمهلث أبحث عن المفاتيح ترجل ووقف بجواري.

قال: الا يوجد أحد؟

قلت: نعم.

قال: قد تكون هي الساعة.

قلت: تماما كالحياة زائفة.

قال: الوقت.

قلت: لحظة ممتازة هي انتصار كامل للذة روحية.

وأنا أدخل المفتاح في فتحته أمسكت كفه بكفي تساعدني على إدارته، ولما انفتح الباب سبقني داخلا، أضاء النور وهم بالخروج دعوته للتريث حتى نحيل انتهاك اللحظة إلى حلم وومض هائم في متاهة تلهفي للمعرفة، وكنت أخزن في ثلاجة غرفة النوم الصغيرة علب مشروب بيرة بنسبة مرتفعة من الكحول يحضرها زوجي من مهندسي الشركات الأجنبية التي تنفذ بعض المشاريع لإدارته.

قلب العلبة قبل أن يفتحها ليعرف محتواها ورمقني مبتسما (هو مستوى الحدس الذي قد تبهره البدهاة، وإشراق النور الرباني)، وقد تخلصت من العباءة وأبقيت الخمار ملفوفا على راسي يغطي شعري، سروالي الجينز يحدد معالم جسدي والفانلة القصيرة ذات العلاقات الشفافة تعري صدري وتكشف بطني وجزء من ظهري، تجرع العلبة وتجرع ما تبقى في علبتي واقترب أكثر، كنت أتراجع في انبثاق توازن بين التضحية وأناية الاكتشاف، وكان كلي يستدعي نفسا مجردة فلا انطباع في الخيال وقد اختلط اللون والشكل وغاب المكان.

أنفاسه تلفح عنقي أترقب اكتمال اللحظة واندغم في أعماقي تحطم زجاج روحي وانتشرت أطرافي وبعض التعب يراود في الأفق حلم البداية، تماويت شهاباً تخلت عنه السماء وكان كبرفة بنقش غيبي مترعة بلذة تتعدى الحس، آتية من مكان بعيد مجسدا وعياً لم أفكر به، عشته في أمكنة وأزمنة مختلفة وكشلال انسكب في داخلي.

عندما رن هاتفه تخلى عني بعدما طرح كل سبب وتجاوزت كل علة؛ وسمعته وهو يغادر الغرفة يقول انه في الطريق، نمت كما لم أتم منذ شعرت بوجودي.

هاتفني مليء بالاتصالات والرسائل، زوجي يعتذر عن العودة فقد يحتاج العمل ليوم آخر وصديقتي تعتذر عن اتصالها لسفرها المفاجئ برفقة والدها لحضور مناسبة عائلية في جدة حيث سبقتهم والدتها، ومديرتي في العمل تكلفني بمراقبة الدوام لأنها سوف تغيب لظرف عائلي، وصديقتي الجديدة تقول في رسالتها هل مزقك؟ وعدد من علامات الاستفهام.

في المكتب تخيلت أن المكان أكثر بهجة وضياء، عجزت عن تفسيره، وفي المساء وصديقتي الجديدة تدعك كفي بحثا عن الإمداد والإلهام وقد ارتفعت بصيرتها فوق المكان والزمان بمشاهدة الحياة الأبدية بتجلي نعيم

السر الإلهي. وتستنشق رائحتي تحثني على الحديث عن تجربتي مع زوجها، كانت أكثر نشوة وألق وأنا أحتضنها مدللة على أن التجربة نادرة.

تأخر زوجي لليوم الثالث هاتفه مغلق، في الخامسة عصرا أخي وأمي عند الباب توجست الشر زوجي تعرض لحادث سير وهو بمستشفى حكومي في العناية الفائقة معاملة تغييبها أربطة وأجهزة تنفس صناعي.

انتقلت إلى المنزل القديم عدت لغرفتي المغلقة فتحت كتي وكراسات الدراسة وعبث أيام التخرج من الجامعة، ابنتي في رعاية والدي، السائق وعاملة المنزل تبدلت مسئوليتهم فالسائق مع زوجي بالمستشفى وتغييب عن العمل المؤقت، جاء مع انقطاع صوت رفيقتي المطعم.

صديقة الطفولة ومرحلة اكتشاف الجسد وغواية اندغامي في العمل لم تعد تتحدث عن حبيبها الذي توقفت اتصالاته مع نهاية الشهر الثالث على انتقال وظيفته من الخارجية الى دبلوماسي في أقصى الشرق، كما أنها وهي تزورني تشعرني بأني ابتعدت عنها ولحت أي لم أدعها إلى غرفتي التي تحتضن صبوتنا.

أشياء كثيرة تبدلت لم أعد أدركها ولم أهتم بعناية شقيقي بملبسه وحرصه على خدمتي وهو يقترب أكثر من صديقتي وجارتنا القديمة التي يعرفها طفلا وفتى تمازحه وتلاحقه في ممرات الدار وهو يختلس النظر لمعرفة ما يدور بيننا حتى تخرجنا من الجامعة وانتقال أسرتها إلى شمال الرياض وتأخر زواجها وقدرتها على إقناع أسرتها بفكرها.

وهي تعلن سرا أنها تزوجتني وتخونني مع بعض الصديقات، إذا غبت وترجي الوقت ومن تلتقي بهم في المناسبات العامة.

ذات مساء وقد أدركت أن زوجي يموت، عرفت أن أخي تجول في حصون صديقتي عندما حضرت لزيارتي أثناء قيامي ووالدي بمعاودة زوجي، وتأخرنا في العودة لشراء بعض الحاجيات، جاءت صديقتي وقد رتب أخي اللحظة، اعتذر عن مشاركتنا الزيارة، كان ينتظرها عند المدخل أخذها إلى منزلي المغلق وهناك شرعت أبوابها قدمت له كل شيء حدثته عن مغامراتنا واكتشافنا حياتنا وكيف نقضي ساعات اللقاء.

غاب أخي في رحلة مع الأصدقاء هربا من مواجهتي، وقد أخبرني صديقتي بما تم في تجل تفسر ترديدها (فالخلق وجودهم خرج من عدم بفضل حب متبادل وبالحب يوجدون الآن) وإنما نامت هذه الليلة في فراشي مرتدية إحدى بجاماتي الحبرية حسب اختيار أخي الذي تفجر في أعماقها مستعيد ذكرى أول قبلة طبعها على خده ذات مساء؛ بعدر إنها كانت عندي تواسيني في مصابي، لم أحتج فقد اعتدت نزواتها وتجارها.

توفي زوجي وجاءت صديقة المطعم وزوجها لمواساتنا، اكتشف أقاربي أن زوج صديقتي ابن أرملة من أسرتنا انقطعت أخبارها بعد أن هاجر زوجها للشمال كرجل أعمال وهناك توفي فتزوجت من مساعده وعامله الأثير وتربي ابنها مع أولادها وبناتها من زوجها الجديد.

صديقة المطعم قررت تطليق زوجها، إنما تنتظر اكتمال أوراق ابتعائها للدراسة في لندن وهناك تنهي حياتها الزوجية، عرفت أنها تعاني من عيوب خلقية ناقشتها فلم تقنع دفعتها إلى تجريب معاشره السائق الذي ضاجعني ذات مساء بعد مداعبتي لزوجته التي لم تقاوم فتدفقت فوق جسدها العاري ليدخل راقبنا حتى انتهينا لم أشعر به وهو يخرق مساماتي برائحته وعرقه الذي لطخ جسدي كان في حراكه الخائف جذوة خامدة لم تشعل فتيل حواسي.

في البدء رفضت بكيف يتسنى للروح أن تخلص نفسها من عبء ما، ثم أمام إصراري وبكلمات مقتضبة.

قالت: أني لا أكاد تفهم إمكانية السعادة.

قلت: ثمة من يمكن ان يتاح له أن يسعد؟

قالت: والنوايا؟

قلت: الحالم والحلوم التراب والنار.

قالت: التراب؟

قلت: كما نظرية الوظيفة البنائية.

أرسلتها مع السائق وزوجته الخادمة لتنظيف منزلي وجلب شيء من ملابسي، وبعد انتهاء الاثنتين من إعادة ترتيب بعض أثاث المنزل دخلت صديقتي الحمام والماء ينسكب على جسدها، طلبت من الخادمة تدليكها، انتقلت الاثنتان إلى الكنب القابعة في الممر لمواصلة التدليك ودعك جسدها الملتف بروب الحمام بمربط يزيل الرائحة، وهنا دخل السائق محملاً بالعشاء تركه على طاولة الطعام في المطبخ واتجه مع صوت الاثنتين اتكأ إلى الجدار وطرفاً شفتيه يرتجفان بعصبية، خبأت وجهها بيديها وقلبي يدق بقوة. تتراخي ثملة تستحضر الوجه الذي أحبته. في فمها طعم ملح. النور يعم المكان؛ تدفق في أعماقها أشعرتها بالنشوة رائحة عرقه وجسده غرقت في اللذة التي تبحث عنها، انه الخدر اللطيف الذي فقدته.

بعد أعوام خمسة على رحيل زوجي ابنتي في الثامنة وأمي العجوز النحيلة انهكها المرض، وأخي في رحلة تعليمية لمدة أربعة أعوام تبقى عليها عام، تطور عملي فأصبحت مديرة شؤون العاملين في إدارتي المرتبطة بوزارة الشؤون الاجتماعية، ركضي مع صديقتي لم يتجاوز اللحظة التي غفل عنها الزمن، مما ورثت من تركة زوجي المنزل الذي شكلني كزوجة، واختارني كأماً لطفلة يضحك لها القمر، تنتقل بود من أحضاني إلى حذب أسرة والدها، لم يغامر أحد منهم في التدخل لأخذها أو إرغامي على الزواج من أحد إخوته.

وفي العام الخامس جاء زوج صديقتي المبتعثة للدراسة في لندن يخبر أقاربي أنه طلقها وأن أمه تبحث له عن زوجة من قرابتها، يدرك أن هناك لغطاً يتعلق بوالده الذي تزوجته أمه ذات الأسرة المعروفة ورحيلها بعيداً لتعيش خيارها بحس المسئول، فكونت شراكتها الأسرية شركة تجارية نمت كمؤثرة في المقاولات المعمارية والتجارة، كان والده أجيروا عند أسرة والدته مجهول النسب، حصل بموجب إجراء خاص على الهوية الوطنية وكلله بزواجه من الابنة الوحيدة لرجل الأعمال ذائع الصيت في الرياض والكويت.

كنت الزوجة التي يبحث عنها، جاء صوته عبر الهاتف تحدث كثيراً لم يتطرق إلى لقاء الاختبار الذي اندفع فيه تحقيقاً لمؤامرة أعددها مع زوجته، القرارات التي تنتظرني نابعة من إرادتي وسعادتي تقوم على إرادته الحرة، وأنا لا أملك أي سلطة عليه، شعرت أنه يعرف عني كثير.

لما ناقشت والدي لم تعترض، المرض لم يترك لها مساحة أكبر للنقاش، أخي المسافر يرى أنني املك قراري خالي الذي كثرت زيارته لمتابعة أمي صحياً يعارض، أما أقارب والدي فهم مشغولون بخطاب ديني جديد أعادهم للواجهة، وجاء صوت صديقتي من لندن أخبرتها ضحكت قالت إنها في سلام مع نفسها، وعادت لها

تلك البهجة المفعمة بالرقّة والحنو متيقظة تسعى للحصول على إقامة دائمة في لندن، فقد تحققت رغبتها في نيل الدرجة العلمية، وأنها تمتلك سيارة تقودها بنفسها، وتعمل في مدرسة خاصة كمعلمة لغات شرقية، والأهم أنها تعيش مغامرة جديدة مع أسيوي مهاجر من أسرة ثرية يحمل جوازاً بريطانياً.

دعاني لتناول العشاء في مطعم عائلي ترددت خوفاً من هوس رقابي تقمص الرياض، تتناقل الصحف أحداثه بين شاجب ومؤيد، المرأة والمجتمع نقاطه المحركة، احتفظ بدفتر العائلة الخاص بزوجي لوجود اسم ابنتي إضافة لبطاقة الهوية الوطنية التي عليها صورتي مع صور للدفتر قديمة بين ما تبقى من ذاكرتي.

هنا ومن خلال إحدى صديقاتي جاء العشاء في استراحة خاصة تقبع بين مساكن حي جديد في شمال الرياض، لم يكن هناك سوانا كان أكثر أناقة وأكثر صمتاً، وسيارته التي أخذتني من مركز الرعاية الصحية الأولية بالحى ظهرها تقبع ساكنة بجوارنا، وقد أشعت أني في مهمة عمل سوف تؤخر عودتي.

قبل العشاء ونحن نتحدث في أمور لا تعيننا بجوار المسبح الممتلئ بالماء غافلي فخلع ثوبه وقفز في الماء وصلني الرذاذ فابتعدت خرج ولاحقني حاصرني ودفعني أمامه في الماء بملابسي صرخت فيه فلم يهتم وفي الماء التصق بي دفعني نحو الحافة رفع رأسه للسماء.

قال: هل تقبلين بي زوجاً؟

قلت: نعم.

قال: حتى الممات؟

قلت: حتى الممات.

قبلني ثم حملني وخرجنا من الماء، العتمة حولنا والزمن نملك ناصيته. رتب كل شيء جاء لمنزلنا مع أحد إخوته من أمه، وحضر والدي من منزله الثاني برفقة السائق، كتب مأذون الأنكحة العقد ووقعه ووقع والدي كولي أمري وأخوه كشاهد والشاهد الثاني كان سائق والدي.



المكايبة

جاء الحديث غريباً فأنا من يتحدثون عنه كنادرة مما يقع في قصر الأمير، فعلا كنت من ضمن طاقم الحراسات للشرطة العسكرية، وفي الساعة مساء توقفت سيارة أمام حاجز بوابة الدخول

لا أعرفها ولا أعرف قائدها وإذا به بلهجة أهل الشام ينعتني ب(الحمار) ويطلب مني السماح له بالدخول، توقفت أناقشه في لفظه فواصل (إن خي الم . . .) ينتظره، عندها فتحت باب السيارة ولكمته على صدره ورفسته بقدمي ولما تخلص مني ركب سيارته ورجع من حيث أتى، بعد ثلاثة أيام أفادني قائد الموقع إن الأمير طلبني فدخلت ناسيا الأمر وهناك كان الرجل الذي ضربته يقف بجوار الأمير شعرت بالتوتر الذي لم يتقبل صراخ الأمير وصفعه المتكرر على وجهي كنت أقف كما عامود من الأسمنت تدخل مرافقي وسحبني، ومع الفجر كنت اركب سيارتي الخاصة مغادرا الرياض متجها إلى بلدي في جبال عسير، نسيت الأمر وعملت سائق سيارة أجرة ومشرف عمال في شركة تجارية يملكها أحد أقاربي، وفي العام الثالث كانت الشركة هي الراعي الرسمي لحفل ضمن نشاط مدينة أبها في الصيف وكان تكليفي بقيادة سيارة أحد الضيوف من الفندق لمقر الحفل وإعادته، وأنا انتظر في استقبال الفندق دوري إذا مرافقي الأمير الذي أهان كرامتي أمام الغريب ولم يحترم الزى العسكري ترددت في التحرك إنما شعرت بالمسئولية فلم اهتم بغیضني وتوتري وتتبع التعليمات وسرت في الموكب، وفي العودة عرفت ان الأمير وهو يحدق في تذكر شيء كانت هواجس لم تطفح على السطح إنما لحتة يهمس في إذن مرافقه الخاص والأمير يركز نظره علي، في اليوم التالي كان علي إيصال الأمير للمطار قبل الموعد بساعة اتفقت مع المشرف على البث الصوتي والصورة في غرف الفندق بث شريط فيديو أحضرته يحمل مشهد عشر دقائق يوثق حادثة بوابة قصر الأمير كان العامل البنغالي متردد فرشوته فغامر وبث الشريط اعرف إن الأمير الآن يجلس في جناحه مع مرافقه الخاص لتناول فنجان القهوة والاستعداد للسفر، تأخر نزوله وأنا استعدت الشريط والعامل البنغالي اختفى من غرفة البث شعرت إن هناك حركة متصاعدة داخل الفندق، هبط الأمير ومرافقه ومعه بعض موظفي الفندق ورجال الأمن حدق في شعرت أن ذاكرته تحسنت وفي الطريق للمطار ران الصمت، ولما ترجل المرافق الخاص وقمت بفتح الباب.

قال الأمير: هو أنت

قلت : نعم

وناولت المرافق مطروفا بداخله نسخة من الشريط تناوله مندهشا، وقد هز الأمير رأسه موافقا على استلامه، كانت الثامنة مساء وفي أخبار العاشرة ليلا عرفت إن الأمير وصل الرياض وفي أخبار السابعة صباحا جاء خبر موت الأمير إثر نوبة قلبية .

(صياغة أولى)



الرقص في الوقت الضائع

اشعر بألم في أسفل بطني معه قمت بمراجعة المركز الطبي بالحي، وجاءت المعاينة الظاهرية للطبيب غير شافية، فقام ابني البكر الذي التحق بالجيش بعد الثانوية بعمل ملف باسمي في المستشفى العسكري وحدد مواعدي الأول كانت الطبية كثيرة الحوار والنقاش وكان ابني يقاطعني للإجابة على أسئلتها لأكمل ملفي الطبي.

وكان الموعد الثاني والثالث وفي الرابع وقد أكملت فحوصات الدم للسكري وقياس الضغط وباقي الكشف الكامل المفاجآت وهي تكتب العلاج كان الموعد الخامس لمعرفة أثر العلاج إذ غادرت مقعدها وسارت معي حتى باب العيادة.

في الموعد الخامس كنت انتظر دوري في غرفة الاستقبال وحيدا إذ كلف ابني من إدارته بمهمة خارج مدينة الرياض تردد اسمي عبر نداء المرضى لدخول العيادات توجهت للعيادة التي اعتدتها كانت الطبية وممرضتها الأسيوية قاست نبضي ونسبة السكر في دمي.

قالت الطبيبة: كل شيء تم التحكم به

قلت: الحمد لله

قالت الطبيبة: لم يحضر ابنك

قلت: أسامة كلف بمهمة عمل من إدارته خارج الرياض

قالت الطبيبة: عندك غيره

قلت: ثلاثة أبناء ذكور وابنة

قلت: أسامه الأكبر

قلت: نعم

قالت الطيبة: متزوج

قلت: بعد وأفكر في ذلك

قالت الطيبة: موافق

أنهت الممرضة تسجيل ملاحظاتها وقد ران الصمت منتظرا الوصفة الطبية للعلاج فتحت الطيبة درج مكتبها العلوي وأخرجت دفتر حجمه كبير كما خيل لي بين أوراقه أوراق أخرى ملونه وضعته على المكتب.

قالت الطيبة: منذ موعدك الأول شعرت أبي أعرفك

قلت: نعم

قالت الطيبة: تأكدت من ذلك عندما هاتفه أختي المقيمة في أمريكا

قلت: قد يكون

قالت الطيبة: لك أخت اسمها هاجر

قلت: نعم رحمها الله

قالت الطيبة: هاجر زميلة أختي فلوه في الثانوية

قلت: وبعد

قالت الطيبة: وقتها كنت أنت في الثانوية الصناعية في قسم الكهرباء

قلت: وهو عملي اليوم

قالت الطيبة: وبسبب هذا التخصص دخلت بيتنا

عندها سرت رعشة وهم في جسدي معها تجاوزت جدران العيادة إلى زمن بعيد كنت الابن الثالث بين الذكور والخامس في الأبناء والبنات ثلاثة أولاد وخمس بنات، والدي موظف في قسم مالي في إدارة حكومية تمكن من رعايتنا وتعثرت دراسي في الابتدائية والمتوسطة فالتحقت بالثانوية الصناعية وأنا في الثامنة عشر.

أخي الأكبر تخرج من الجامعة وعين معلما في جازان وتدرج حتى استقر به الأمر في جدة أختي الثانية في الترتيب توقفت عند المتوسطة وتزوجت أنا وهاجر الرابعة في الترتيب كان طموحنا تنمية مهارتنا هي تهوى الحياطة والتفصيل فكانت درجاتها في التدبير المنزلي الأعلى مما ساعدها على الالتحاق بالجامعة.

وأنا هوايتي في الكهرباء عطلت اهتمامي بالمواد الأخرى، وكان تعثري الذي قاومته بمزيد من العسف وتبديل برنامجي اليومي بما يعيد التوازن لخطواتي، فكان التحاقني بالثانوية الصناعية ثم حصولي على دبلوم من قسم الكهرباء في الكلية التقنية والعمل في المجال الحكومي.

في الموعد السادس الذي تأخر بسبب ضغط المواعيد حرصت على ان أكون وحيدا وهذا جاء حسب توقع الطبيبة التي لم تستعجل الممرضة في تدوين أرقامها وكتابة ملاحظاتها

قالت الطبيبة: هاه هل تذكرت شيء

قلت: انتظر المزيد منك

قالت الطبيبة: والدي مهندس معماري ورئيس الإدارة الهندسية في إدارته التي لها مشاريع خارج الرياض.

قلت: المهندس بكر إبراهيم

قالت الطبيبة: الشيخ بكر إبراهيم رجل الأعمال المعروف ورئيس مجلس إدارة أحد البنوك

قلت: نعم

قالت الطبيبة: تمت محاربة والدي في قيمه وعمله مما اثر على علاقته بأمي التي وجدت فيك البديل المناسب

قلت: نعم

قالت الطيبة: أختي المراهقة كانت تتوسم فيك فتى أحلامها فأنت شقيق زميلتها المفضلة

قلت: أنا

قالت الطيبة: إنما تبني أمني لك افسد خططها

قلت: وأنت

قالت الطيبة: كنت في الثامنة لا اثر لي

كان دخولي المنزل أول مرة لحل إشكال في كهرباء جزء من الفيلا التي تسكنها العائلة واستعنت بشركة لديها مهندسين للإصلاح الذي معه أصبحت الأم تستعين بي في حل مشاكل الأدوات الكهربائية وأعطائها.

ثم تطور الأمر مع غياب المهندس في رحلات عمل وحماية حقوقه المعنوية والمالية التي شغلته عن دوره الأسري فخلق تباعد ذهني وجسدي وجدته الأم التي تعاني من توتر نفسي وقلق جسدي تعالجه بأدوية مسكنه، انه إهمال لها وأنها لم تعد المؤثرة داخل المنزل فأخذتها هواجسها إلى عوالم أخرى وصورني مرجل هوسها أني هلام في إطار التكوين وعليها تشكيلي كما أوجدني عالمها المشوش.

ذات مساء وقد غربت الشمس رن هاتف المنزل كنت الأقرب رفعت السماعة؛ كانت هي تطلب حضوري مشترط ان اركب سيارة أجره، لم استوعب طلبها إنما نفذته لم يكن هناك أحد هي من فتح الباب العتمة تعم الممرات والضوء القادم من الشارع يتسلل، شعرت اني غير موجود واحساس يشبه الأسف يتدفق داخلي كانت تخدع نفسها، بدت قلقة ما تعرفه انها حددت هدفها الذي عذبها، ليتوقف كل هذا مع رنين جرس الباب.

كنت حينها في الثالث ثانوي؛ لم أتجاوز الأفكار النظرية عن المرأة وأحلام ليلية تريك حراكي داخل المنزل، وبعد شهرين من التجربة الأولى رتبت للقاء آخر أصبحنا فيه نمارس عبثنا بعد مغرب الأربعاء في الأسبوع الأخير من كل شهر، احضر بسيارة أجرة انساق لرغبتها وقد تجاوزت التوتر.

وهي تقول: انت تفاحتي الذهبية التي انشغلت ذاتي بها والضوء النابت من الصقيع. كنت أسهر في الشتاء بسبب الهاوية التي تحاول جرفي.

وفي مرة قالت: ان أنت لم تتركني فسأطير كيمامة

قلت: سأتعقبك كعقاب

قالت: وستقتلني

قلت: اخذك الى الغابة ونشيد عشنا

وينتهي وهج اللحظة الساطع ولتفتح الأبواب من تلقاء نفسها ويعم الضياء المكان، برنين جرس الباب قبل أذان العشاء، فقد وصل السائق الذي يقلها الى حيث تكون الأسرة في لقاء شهري يتناوب ثلثه من الأصدقاء والأقارب ترتيبه.

وخلال هذه اللحظات المستقطعة نمت ثقافتى العاطفية بمطالعة المجالات الفنية والثقافية واقتناء الروايات والقصص العاطفية معها كنت أحدث تصرفى في كل لقاء بما كسبته من اطلاعى ومعها شعرت أنها تتحسن نفسيا وجسديا، لكن أمور المهندس زادت سوءا فقررت وهو يعد لزواج ابنته فلوه المتخرجة من الثانوية زميلة أختى اخذ إجازة من العمل ومغادرة البلاد وكنت في المستوى الثانى في كلية التقنية.

كان حفل الزواج حديث والدي وأختى التى أعلنت ان زميلتها سوف تسافر مع زوجها الذى يدرس في أمريكا وان موافقتها جاءت عن رغبة في إكمال دراستها في مكان آخر تجد فيه نفسها ليس من خلال إقناع أمها لها، أو قناعتها بأن المتقدم لطلب يدها هو من تمنى أو يتفق مع مواصفاتها التى كل يوم تتجدد أثناء نقاش الصديقات في فسخ الحصص الدراسية اليومية وخلوات دورات المياه في التلصص على المدخنات من الزميلات وإرعابهم بالوشاية.

ونحن نتحدث أمى وأخواتى وإخوتى والتلفزيون يعرض برنامج عن الطبيعة بعد صلوات المغرب رن جرس الهاتف ولما رفعت السماعة، جاء صوتها كانت فلوه العروس زميلة هاجر تطلب حضوري لمنزل أسرتها في الطريق اعرف ان الجميع مسافرين منذ ثلاثة أيام وإنما سوف تسافر بعد يومين، تذكرت ان هذه التصرف اعتدته مع أمها وخلق قلقي سؤال ترى انفتحت ابواب جهنم وتساؤل هل كانت تعرف.

فتحت الباب كانت تتدرع بعباءتها وشعرها القصير يلفه شال احمر شفاف يفتتر وجهها عن ابتسامة صغيرة
جلسنا متقابلين في غرفة الجلوس.

قالت: كنت حلمي

قلت: لم اعرف

قالت: أمي خطفتك مني

قلت: نصيب

قالت: اعتبرتك ابنها الذي لم تلده

قلت: هي من خلط الأمور

قالت: اتمنى ان تحفظ ذكراها

ولما رن جرس الباب

قالت: الآن اسافر وقد انزاح هم كبير كان يثقل كاهلي

قلت: والآن

قالت: كما انت شقيق زميلتي اراك صديق واخ

وطلبت ان انتظر حتى تغادر وقد سحبت خلفها حقيبة انتصبت في زاوية الغرفة دست بها أشياء أخذتها من
غرفتها لأغلق ابواب الدار.

قالت الطيبية: هل تخلصت من مفاتيح الدار

قلت: ترددت ولكن بعد تخرجي والتحاقي بالعمل نفذت طلبها

تذكرت اسم الطيبة كان في وكانت في الثامنة من العمر؛ أختي هاجر تخرجت من الجامعة وتعمرت ولادتها ونزفت دمها حتى لفظت أنفاسها ومولودها الأول يصرخ معلنا وجوده.

بعد عامي الثاني في العمل تزوجت وبعد ثلاثة أولاد وبنات ومع تقسيم إخوة واشقاء زوجتي التركة بعد وفاة والدها، تصاعد خلافهم مع إخوتهم من أبيهم كان زواجي من أختهم محور نقاش أنا عامل كهربائي وهم من عائلة معروفة.

وأمام هذه الإشكالات غادرت زوجتي الدار وطلقتها بعد عدد من جلسات المحكمة فشل فيها أهل الخير في التوسط، لتفاوت في القيم الاجتماعية معها تنازل إخوتي عن منزل الأسرة بنسب في نصيبهم من الإرث فأعدت ترميمه ليستوعب أولادي وتعود أُمي المقيمة عند أخي الأكبر في جده لرعايتي ورعاية أبنائي.

عرفت ان فهده والتي تعارف الجميع على انها أم احمد لم تنجب سوى فلوه وفي، وإنها ماتت منتحرة في بيروت إذ استقر المقام بالمهندس وقد مدد إجازته الإدارية ثم قدم استقالته وكون مع مجموعة من رجال الأعمال في بيروت شركة أعمال، كان وسيط دخولهم السوق السعودية، فهده في غمرة انشغالها بمجتمعها الجديد عادت حالتها النفسية للتوتر ومشاكل جسدها فأدمنت شرب الخمر، لم يستطع المهندس التوفيق بين حالتها ودوره كرجل أعمال فأدخل في مدرسة داخلية حصلت عبرها على الثانوية والتحقّت بكلية الطب في الجامعة الأمريكية.

كانت فهده تقاوم مراقبة الممرضة التي ترافقها وأخرى تساعد على حياتها كسكرتيرة لها وفي غفلة من الاثنتين دخلت غرفتها وأخرجت من الثلاث قنينة خمر وتمددت في معطس الحمام وبعد عدت جرعات من فم القنينة قطعت شرايينها فتدفق دمها ولفظت أنفاسها،

في تخرجت طيبة وعملت في المستشفى الجامعي ببيروت عامين معها وأثناء قيام لجنة طبية تابعة لشركة تشغل المستشفى العسكري بالرياض بزيارة بيروت للتعاقد مع كادر طبي وفني وإداري جرى التعاقد معها فعادت للرياض وبعدها انتقل والدها للرياض لاحقاً بها.

في في الثلاثين من العمر تجاوزت عقد الحياة ولم تقرر كيف تعيد صياغة حياتها وان لم تفقد الكثير من أجواء بيروت إذ خمسين في المائة من العاملين معها هم رفاق درب وحياة كما ان الوسط الاجتماعي داخل المستشفى لم يصددها وحراك المجتمع في الرياض خلق حياديتها الذي وفر لها الاطمئنان النفسي والجسدي.

وفي مراجعة لم يرتب لها كنت اجلس أمامها تقلب ملفي الطبي، ثم تحديق في مبتسمة عرفت إنها تخطط لشيء

قالت الطبيبة: الفاء الثالثة تبحث عن نصيبها فيك

قلت: لم افهم

قالت الطبيبة: فهذه الفاء الأولى اكتشفتك، وفلوه الفاء الثانية ببعض القلق المشوب ببعض النعمة تخلت عن شعورها بجور ولم تفسد خيار لم يخطر ببالها لكن قلبها عرف السلام؛ وبقيت الفاء الثالثة طفلة الأمس التي لم تدرك حينها الأمور فماذا تبقى.

قلت: أنت

قالت الطبيبة: نعم

هذا هو حقا يوم من تلك الأيام التي يرتكب فيها الواحد حماقات لم يرفض سطوتها، كل الاقي عشي: الأمكنة، الناس، الكلمات التي نتفوه بها الأفكار التي تنسج عوالم نتمنى ان نكون ضمن نسيجها وان جاء ذلك بلا معنى.

جاء ترتيبها متمهلا وفي هدوء ضمنا جناح في فندق تميز بخصوصيته وبنجومه الخمسة كانت العبء السوداء تنسكب على جسدها، لم تحدد الزمن إذ إننا نحن من نتحكم به أنا في الخمسين من العمر أتمتع بمقدرة غير مرئية في تلطيف المكان وهي بنضجها وعلمها وتمتعها بمواصفات جسدية وحسية تشاركني ذاكرة لم نفتحها لتدلق كل شيء.

قالت: لم أصدق أنك النور الذي اقتحم وجودنا

قلت: أنتم من أوجده

قالت: كانت فلوه صادقة

قلت: فيما ذا

قالت: انك من خلقت سعادتها التي تعيشها اليوم مع زوجها وأبناؤها

قلت: هل هي سعيدة في أمريكا

قالت: وتغريبي بأن التحق بها

أخبرتني برغبتني في بقاؤها في الرياض لم ترد علي وان رتبت لزواج ابني أسامة من ابنة أحد أقارب والدها ولأجدها وأنا اجتاز ممرات المستشفى برفقة رجل يضح حياة.

قالت الطيبة: زوجي بدر

قلت: نعم

قالت الطيبة: بدر ولد خالتي ومدير مكتب الوالد في إدارة البنك، جاء لأخذي لتناول الغداء في أحد المطاعم

حدقت بها كانت السعادة تطوقها والحياة تعج في ممرات المستشفى أصر بدر علي دعوتي لمشاركتهم الغداء؛ ترددت وجاء تصريحها بأني موافق.



الفناء شعور لا يعرف

بعد تجوال بين المحلات التجارية بحثا عن حاجتي من المشتريات، جلست فوق مقعد في فضاء السوق التجاري أراقب المارة من المتسوقين، صابه الانتباه للأشباح المتحركة في المجال البصري منقبة عن معرفة صادقة ابحت عنها للوصول إلى اليقين، جاء نادل المقهى هزرت رأسي موافقة على شيء لم استبينه. وأنا ارشف بقايا فنجان القهوة جلس في المقعد المخاذي لمقعدي، تلفت حوله ثم تشاغل بهاتفه النقال.

قال: هل يضايقك جلوسي

قلت: أبدا

قال: هل تنتظرين أحد

قلت: لا

عندها قام وحمل اللفافة التي تضم مشترياتي، تريتت قليلا ثم نهضت غادرنا السوق عربته في المواقف، ولما جلست في المقعد بجواره التفت نحوي وقد اعترت وجهه بسمة صغيرة، شعت ابتسامة دفاء في أطرافي وأن رأسي فارغا وثقيلا فقد قوة الإحساس بالأشياء التي تخلق الفعل المضاد.

غادرنا المكان وعبر زمن وأمكنة لم أتمكن من رصدها توقف لينفرج باب كراج سيارة آليا، إنها لحظات الشغف، باب المدخل لم يكن مغلقا ضوء خافت يشي الممر وصالة بمقاعد وفرش وثير تهمس بموسيقى هادئة، جلست وجلس إلى جانبي تبلل السكون ليكشف عن مدى التناقض المصحوب بالتردي والسقوط؛ وقلق الذات لتحريها من ركام ذكريات كريهة.

وانفرج باب جانبي فأطل من لم يلفته وجودنا يتحدث بانفعال مع فتى ناصع البياض، جلس الاثنان في المقعد المقابل وقد ران الصمت، أحسست بنفسني أغوص في أعماق غابة بغاية الراحة حتى اقتنص اللحظة الهاربة بسبب سلسلة من الهموم المادية والمعنوية؛ تلفت حولي قام مرافقي واخذ كفي.

رن جرس الباب كان مندوب مطعم حضر العشاء، رتب الفتى والأخر طاولة الأكل وارتفع صوت يعلن الانتهاء؛ تذكرت اقاربي وعائلي الصغيرة وقبيلتي المشهورة، وبكوني دائمة السفر الى جهة غابت معالمها، كراسي الطاولة ثمانية ونحن أربعة تبادلنا حديث متقطع وتطلعت في ساعتي.

دخن مرافقي سيجارته التي أخرجها من العلبة القابضة على الطاولة، سحبت العلبة وأخذت سيجارة تناولها وأشعلها ومج دخانها ثم قدمها لي، الفتى يغطي جسده بونس حمام قصير لفت نظري بياضه واكتنازه.

نهض مرافقي وغادر غرفة الطعام التقت نظراتي بالأخر، تبسم ووقف بلا حراك كان لائقا في صمته، اللامبالاة تجاوزتني نهضت من مقعدي وأنا أدس بقايا السيجارة في الطفاية لما حاذيته أغمضت عيناى تصورت أنى أجد فيه الخلاص.

فى الواحدة صباحا كنت ادخل الدار لم يهتم كما هى العادة بتأخري فقد اعتاد الجميع ذلك؛ فى الفراش استسلمت لحدرد لذيد وعودبة وإحساس بالأمان معه نمت عميقا ليجتاحنى حلما يشع نورا باهر، لخت فىه الأخر يتمايل فرحا فى حديقة من الزهور يدعونى لمشاركته الركض ولما قاومت عضلاتى المتصلبة كان قد اختفى.



الفسفاس

ما أن أعلن قاضي المحكمة القرار الذي توصلت له لجنة التحقيق بعد سنة من جمع الأدلة ومقارنة الوقائع، بأن الموت جاء طبيعيا والانتحار يرجح في هذه الحالة إذ لم تؤدي الأسئلة المطروحة إلى تأكيد الاغتيال.

هنا صرحت كوثر باختصار للصحفيين إن موت زوجها جاء عبر مؤامرة لتصفية الحسابات بين أجنحة قوى سياسية تخشى انفضاحها.

تمددت كوثر في الفراش بعد حمام بارد وغفت لتستيقظ على كف تدعك ساقها وترت بهدوء وسكينة على ظهرها فتحت جفنيها وبرزت معالمه في عتمة الغرفة سحبتة واندى في أعماقها بجنونه الذي يتحول إلى وجودية تدمرها، كل شيء فيه يعيد لها الحياة التي أهملتها منذ عشرة أعوام ففقدت مباحج السماء بعدما فقدت القدرة على الاستمتاع بالحلم في ليلة رطبة.

في غرفة الجلوس أخذت تقلب ملفا يضم معاملاتها المالية وجاء يحمل فنجان القهوة التي اعتادتها منه وجلس بجوارها.

قالت: هنا حسابات مكشوفة

قال: ثلاثة تم إفراغها وتحويل مبالغها إلى أمريكا وسويسرا

قالت: كيف

قال: قبل موته بثمانية أشهر

عرفت أن هناك تدني في الإيرادات وهنا اختلاف بين السجلات وكشوف باقي الحسابات، كما إن المكتب الرئيس في لندن منذ هجرتها وزوجها لبريطانيا تدني أدائه إلى النصف. بعد قيام السيدة شيهانه الهندية الأصل؛ الطيف الذي تطابق بشغف مع ما يتعامل في أعماقها والقرين الذي عرف الأشياء. بتقديم استقالته منذ خمسة أعوام وانتقالها إلى أمريكا.

شيهانه المدير الإداري والرئيس التنفيذي لمجموعة الشركات التي أسسها شريف وزوجته كوثر في لندن، تنفذ عبرها بالتعميد المباشر أعمال حكومية سرية تناقشها الصحف بخجل بحثا عن مصدر الشراء المفاجئ لابنة الرئيس المدللة وزوجها الغامض.

أغلقت الملف وتركت كفيها على الطاولة تسلفت كفه حتى ربضت على فخذها شيء فيها ارتعش قاومته بالقيام، وقف قبالتها عرف إنها تريد منه المغادرة هم بحمل الملف أشارت بتركه.

عادت كوثر لتقليب الأوراق التي تجد فيها أصابع شيهانه؛ التي استطاعت كمخلوق شيطاني أن تستولي على جسدها بما تملكه من شغف لبنات جنسها، ثم وجدتها كطائر مهول تقترب أكثر من شريف الذي اقتنع بخبرتها فصعدت على حساب الآخرين.

صعود شيهانه جعل شريف يسمح لها بتحويل فوائد معاملات مالية تقوم بها الشركة لحسابها الخاص، ومع الوقت كانت ترصد قيمة بعض المعاملات في الحساب قريبا من الضرائب، ثم عرفت كوثر إن شقة شيهانه تحولت إلى مكتب عبره تدير شيهانه شريف بحضور بعض الفتيات واثنان من موظفي الشركة المحامي ومندوب مشتريات تخفي انه زوجها.

شعرت كوثر بالإرهاق من التفكير في معرفة مصير الأرصدة النقدية المكشوفة وتدني الإيرادات، ولم يمنعها هذا من استئجار محقق خاص للتجسس على شيهانه وشريف، فكانت صدمتها كبيرة من خلال ما جاء في مظروف أرسله المحقق مع مندوبها الذي اختارته من بين طاقم الشركة بعناية، جاءت مواساة المندوب مؤثرة وهو يشرح لها معاناته من سوء المعاملة.

هنا وجدت كوثر في مندوبها وقد شعر برغبتها فيمن يشاركها ألمها برصد كل ما يدور، وتابع عمليات الشركة فارق السن كان في صالح المندوب الذي استطاع بحيويته وثقافته اللندنية ووسامته، أن يستأثر باهتمامها مما سارع في اقترابه أكثر.

والاثنان في غداء عمل كان التخطيط لموت شريف وسقوطه من الشرفة في الدور الخامس ليرتطم برصيف الشارع ثم تدهسه سيارة تفاجأ سائقها بالجنة أمامه، ولما حضرت الشرطة سلم نفسه وأفرج عنه للحضور لإكمال التحقيق.

كوثر جاء دورها إيصال صديقها للشقة، وانتظاره بدعوى إحضار أوراق تحتاجها كان شريف نائما تنبهه على جرس الباب كانت الرابعة مساء الخادمة تنسوق والولدين في رحلة مدرسية والمربية تزور عائلتها، ساعده شريف في العثور على الأوراق واقترب من الشرفة لمعرفة إن كوثر تنتظر انحنى للتأكد عندها دفعه بهدوء.

تمددت كوثر في الكرسي المقابل للتلفزيون في غرفة الجلوس لم تهتم بالوقت، الولدين عند أسرة والدهم في القاهرة التي غادرتها منذ عشرين عام داعب الوسن مقلتيها ولما تنبهت كان الظلام مخيما والسكون حولها بدلت ملابسها واتصلت بالهاتف وجدته عند باب العمارة أخذها إلى مطعم أحد الفنادق للعشاء تعلم انه سعيد، والحياة التي يعيشها تسحرها، التقت احلامه الصغيرة بألمها لتشاطره الرغبات والمخاوف. وأقنعها بحجز غرفة.

في اليوم الثالث وهما يغادران الفندق وجدت شيهانة أمامها في صالة الاستقبال، اقتربت منها حدقت شيهانة التي تشتعل أناقة فيها ثم احتضنتها طبعته قبله على خدها الأيمن والثانية على خدها الأيسر هنا التقى جزء من شفقي الاثنان وسرى تيار كهربائي في الجسدين.



الواهن

كنفس خبيثة متلطخة بسعادة وهميه تسنم الحوار ليحفظه اليبس عن التبدد، وفي اعتبار تعقل ماهيته أشرق وجهي بنور صدق فزاد عندها حظي في المعرفة؛ فأدرك أنني لا أصنع في السر شيئاً استحي من إعلانه، تلفت والضيق يغمره في المجلس وقد عرف أن مكانه لم يكن هنا.



تحليق اشركة مفشورة

لم يخفق فكل شيء جرى على ما يرام، فنحن مدفوعين إلى المستقبل فالحاضر غير محتمل، وجاءت تبحث عن جواب حاسم قال: بصوت واهن هذا الائتلاف الصاخب بعث في شعورا بالضيق قالت: لم تنظر إلى نفسك سوف تصاب بالدهشة ويمزقك الغضب عندما ارحل.



تمزق انسان مهلق

ألصقت وجنتها بوجنته، لطالما حاولت وفي هذا المساء نفذت حتى تقلص مساحة الاستياء، نجم التصرف عن حذر فطري، طوقها بذراعه وارتفع نشيجه بكاء.



هوايا نفس

كان من المستحيل أن نفترق، ولكن في داخلها شعور بجموح نحو أحاسيس جديدة، أقامت مع الزمن هوة بيننا فلم يحزني رحيلها، لما هربت إلى هيثم اجث عن الرفقة بدا هشا بقدر ما كان متوترا ومتصلبا، وجاء صوتها كخيوط خفيه لا يمتلك تلك البهجة التي أعهدا فيه، كنا ثلاثة يتسمون غير إهم لم يجدوا ما يقولونه.



في المرأة وجه يجهنش بالبكاء

تجاوزت تعثر سوء من كان يتزود ممن لا زاد له، بعد ليل طال بلا قمر فتعلمت نشيدا منفردا اهجر فيه ظروف الصفرء عن الحياة وهاجس الموت.

بكيتم لما رأيت الضياع كعمشوقة تنزف كالشلال في كل اللحظات فأنا زهرة استثنائية في حديقة تعج بالبسطاء.

بعد زواجي تراكمت الخرائط بدوت صغيرة كحبة سمسم في بيدر امتدت فيه السنابل على مد النظر.

اختفى ذات ليلة وتواصل الاختفاء فراشي كسته السكينة، خفق زخرف الحياة المتعالي فقد ظله لأعرف انه تم توقيفه والتحقيق معه بسبب خلاف في إدارته، معها دخل السجن هكذا جاء اتصاله القضية معتمه.

تواصل همس زملاء العمل بغير الحقيقة فقاومت كل العواصف، وفي نهاية العام الأول لغيابه عرفت انه أفرج عنه، وسوف يعود لم اعترض فكان علي أن استعد للحضور، قنديل عتيق أسرج في داخلي يكشف الخراب وتراكم الغبار فلون طريقي الق جزائر اللؤلؤ حتى اعبر.

رن هاتفي النقال كانت إحدى صديقتي اعرف عذابها قالت: عرفت من يشاركني التسول تحدثت كثيرا معها مزجت مداد قلبي باللون الأخضر، غادرت الدار للسوق من اجل إعداد لحظتي الجديدة، لفت نظري عند المتجر الذي أتسوق حاجتي منه شغبه يشاركني التجول والوقوف عند المحاسب ليتلقفنا المخرج وبيلعنا الشارع فشمس الله تشرق وقمر الخالق يضيء وكواكب السماء تلتمع.

لم أقاوم خوائه فقد نبه لحظة الابتسام، جمعتنا اللحظة تساوينا في صفة المنبوذين خطرت في أعماقي أزمان غير ذا الزمن.

قلت: هل تحفر

قال: نجرب

أنوجد الحال فقد وجدت من ينقب عن الحفر المندثرة في جسدي، غمر الصفاء أعماقي وانخضب السؤال؛
الهرب برزخ التائهيين لا أدري كيف تغير لوني وكل خفق حكاية.

شعرت أني أغوص فيمتلي جسدي بالماء وانتشي برواء المسافات واستعر المعنى المقشر بصورة ابني فتجاوزت
الوصف وذهول الحالة.

الحفر حمل البشارة والتدفق شكل نطفة التكوين، فعلت شيئا مألوفاً وقد تعودت النسيان. . الدقائق تكتم
التفجر أنا اعبر نقوش البهاء، ساعدني كي أقوم من الرماد وارسم خط البدء والانتهاه ودقات قلبي أجدها
تتجاوز جسدي التحيل.

المطر ينثال وأسترد معه الذاكرة التي فقدتها مرآة تربيني اتصال متوتر، دورانه أدى إلى اتحاد وجداني مع وجود
زرع في داخلي الهدوء والسكينة، القلق الطفولي تشكل ونظراتنا تلتقي تيقظ هاجسي كغيم تصاعد في الغرفة.
في مركز التجميل وأنا أعيد صياغة معلمي قالت إحدى العاملات وهي تنهي تشذيب أصابعي بعدما قصت
شعري: ها أنت عروس لن يسأم رجلك من أنفاسك.

جاء لم يتحدث عن غيابه عانق طفلي، كفه الباردة عانقت كفي المفعمة بالحياة، لحظة التمرد انطلقت مع
جسد غادرته حيويته لأهض على شمس شتائية تضيء الغرفة.



نداء يزاد ثقلا

لم أفكر كثيرا فقد كان الموقف جاذبا رغم انشغالنا بمتابعة أخبار حادث مروع تبثه شاشة التلفزيون، وشآبيب المطر تنداح عبر زجاج المقهى واقتحام نداء يتكرر بين وقت وآخر في بهاء الفندق.

طلب أحدهم نسخة من كتابي الجديد وفي الممر المؤدي إلى موقف السيارات حيث تقف عربتي اعترضت طريقي، تبادلنا حديثا غير مترابط سرنا للعربة ومع المطر غادرنا الفندق عبر حوارنا المتقطع؛ جاء وصف دارها مع إخباري بأنها تبحث عن تشاركه الحديث.

لم يستقبلنا أحد السكون يجيم على الدار أشعلت الأضواء أنفاس الحياة تكمن في تقاطيع وجهها وحركة كفها وهي تتحدث، نبهني جرس الهاتف تلفت حولي كنت في فراشي بغرفة الفندق وشعاع الشمس يضحج ألق؛ عبر زجاج النافذة.



إدراك أكثر وضوحا

كما هي عادتنا عندما يتشكل تفكيرنا الجماعي تقاطرنا إلى البر، لنمارس لعبة العيبث المجنونة في فضاء رحب بين الأشجار وفي منحرجات الجبال هذه المرة اتجهنا شرقا بوصولتنا طريق ازفلت متعرج كنا أربع عربات لثلاث عائلات أنا في سيارة أخي مع والدتي وزوجته.

لم نختار في اختيار الموقع فتنادينا نتسابق نعد مكان جلوس الرجال وآخر للنساء بينما الأطفال يتراكمون لاكتشاف المكان، ابتعدت مع مرافقتي بين الأشجار نصعد الجبل في تسابق معه تقطع حديثنا وفي الهبوط شعرت برغبة التبول فانعطفت خلف صخرة تضللها شجره وتقرفصت ولما قمت صفعني وجوده.

تبسم وهو يحدق في اقتراب ومرر كفه على خدي الملامح الفاتنة غدت وجه طفلة بريئة التمعن عيناها من شدة الرعب عزلا حقا لحظتها؛ ساعدني هدوئه وحديثه الشفاف المتقطع على استعادة الهدوء، لما استقرت أنفاسي اعتذر عن إزعاجي ثم اخرج بطاقة بيضاء صغيرة دسها في كفي واختفى بين الأشجار.

سألني زميلتي في العمل عن صاحب البطاقة التي وجدتها في حقيبة يدي بعد أن استأذنتني في استعمال هاتفي النقل في اتصال هام، تذكرته فأرتعش جسدي ولم أقاوم الاتصال به كان في رحلة عمل ووعدني باتصاله بعد عودته؛ غير أنني اتصلت به مرة ثانية فشرح انه في رحلة عائلية.

جاء اتصاله في اليوم العاشر ودعاني لفنجان قهوة في مقهى اعتدته مع صديقاتي، فحددت مكان آخر لم يعترض وفي موقف السيارات بأسواق تجارية في حيننا كان ينتظرنني لما أصبحت بجواره في المقعد التقت كفي بكفه وفي المقهى عرفت انه بعد استقالته من وظيفته الحكومية فتح محلا تجاريا للأدوات الكهربائية وانه يقيم في شقة كمكتب وغالبا للسكن بالعمارة التي محلة يحتل أحد فتحات دورها الأرضي التجارية.

تكرر تواصلتي وكنت أزود زميلتي ببعض التفاصيل وكانت وهي تتنشق عطري وتعصر كفي تبحث عن المزيد فتضميني إلى صدرها في نزق طفولي، مداعباتها تلاقي رضا يسري في داخلي بعد تجارب زواج ثلاث أولها

طلقت لما اكتشف أخي قبل أسبوع من حفل الزفاف إن زوجي متشرد وكذب علينا في معلوماته عن عمله، وقد وافق على استمراري بالعمل في وظيفة حكومية رسمية بدخل شهري ثابت حتى اصرف عليه.

والثاني جاء خالي خلال شهر العسل ليقول إن زوجي من أسرة لا ترتقي لحالنا الاجتماعي فكابر وطلقني، والثالث كانت أمه وخالته ضرتان لي أمه تقتحم لحظاتها الحميمة وخالته تفرض ذوقها في اختيار ملابسها؛ فلم احتملهم فهربت من الدار وجاءت ورقة الطلاق مع عامل البقالة التي نتسوق منها بالهاتف.

دعاني لرحلة إلى شقته بعد مغرب يوم خميس قال انه رتب كل شيء العشاء والمشروب لم اقل لزميلتي إننا سوف نكون لوحدنا وأوهمتها انه عشاء في مطعم خارج المدينة حيث تنتشر المنتزهات ومدن الألعاب والمقاهي والمطاعم، كانت الشقة في الدور الأول الأضواء خافته وموسيقى راقصة تناسب بهدوء في فضاءها، تحت قارورة مشروب فوق طاولة بجوار التلفزيون اعرف إنها الخمر التي لم أذوقها.

سكب في كأس وقدمه لي هزرت رأسي معلنة الرفض تجرع بعض القطرات ولم اقاوم فنجرعت بعض المشروب، كانت هناك مأكولات خفيفة لم نكمل جلوسنا لتذوقها تدافعنا وإذا بنا نهار وكل منا يأخذ ما يريد من رفيقه أصبحنا ساحات مفتوحة نتسابق في اقتحاماتنا لها تجاوزت الرهبة وهو تجاوز في القه كل ما تشكل في داخلي فأدركت الخير وطابت بذلك نفسي.

في التاسعة ليلاً أوصلني للدار وقبل ترجلي من السيارة تلفت حولي خشية العيون شعر بخوفي فتحرك متقدماً ثم انعطف في شارع جانبي وسمح لي بالنزول وقبل الولوج للدار لمحنته عائداً ليطمئن علي وصولي.

وفي غرفتي وأنا أبدل ملابسني جاء اتصاله لم يطل حديثنا وقد فتحت أمي باب الغرفة تطلب مني الخروج فزميلتي في العمل على الهاتف الثابت كانت تعاتبني لتورطها وهي تبحث عني في مطاعم الجهة التي أوهمتها بتواجدي بها.

فقد فرض عليها شاب حاولت الاستنجاد به في التعقب، ليورطها في تدخين الحشيش ثم تحت المخدر في سيارته حاول استباحة جسدها، تنبهت وطالبته بالعودة فأوصلها بالرغم من اعتراضها حتى باب دارها ولما ترجلت لم تجد سيارة زوجها كما إنها لم تجد ابنها بالدار وعرفت أن زوجها وابنها سبقاها إلى عشاء للعائلة؛ وها هي تستعد للذهاب مع سائق عربة والدها وسوف تحاسبني على جرمي.

بعد تلك الليلة اختفى هاتفه الثابت لا يرد وهاتفه النقال مغلق زاد قلقي ووجدت زميلتي بعد شهرين من القلق والتوتر؛ وأنا أتخيل نتائج مدمرة حدثت فتلبسني الخوف والسخط من كل شيء إن شفائي آخذها إلى المكان الذي تعيشت فيه.

بعد تردد كنا نطرق باب الشقة فخرج طفل في الرابعة لم نفهم منه ما نبحت عنه؛ ودخلنا اعرف الأثاث والممرات لتستقبلنا غرفة بها سيدتان أعمارهن متفاوتة أكبرهن ترتدي ملابس سوداء صورته معلقة فوق الجدار ونحن نخالس الحديث كانت المفاجأة هذه أمه والثانية أخته والطفل ابنه.

الرجل تعرض لوعكة صحية ادخل معها المستشفى وشخص المرض خطأ فتضاعف ثم مات شعرت بانقباض، كان ملك الموت يريت على كتفي أنا التعسة كشلال هادر ليهدم ركنا من منزل بناه وهمي فشل أطرافي؛ لمحتة زميلتي فاستأذنت أمسكت بيدي وغادرنا المكان.



اعتراف بأمر يخفي وحلي

قال: لا أعرف أي عندما تفتح ذهني كانت أمي هي كل شيء، في الثامنة من عمري وبناء لدعوة ملححة من خالتي كان سفري الأول ومعه عرفت قيما جديدة وناسا لهم حراكم الخاص والعام، وها أنا وقد تجاوزت الخمسين أسير وحيدا في مدينة لم تشكل شوارعها وضجيجها أي نقطة حياة في وجداني.

قال: وأنا في الرابعة عشرة من عمري كان علي العمل خادما في منزل أحد أقارب زوج خالتي، وفي الشهر الرابع وعند غياب رب الدار اكتشفت فصلا جديدا من حياتي من خلال سيدة الدار التي أصدرت أمرها بأن أراقب طفلها وأنا أقوم بغسل بعض الملابس، لما انتهيت حملت الطفل وبحث عنها؛ فوجدتها في غرفة الضيوف تتحدث عبر الهاتف، لما لمحتني أغلقته ونهرتني وهي تغطي عريها ثم سحبت الطفل مني واختفت.

قال: في السادسة عشرة تعرفت على رفيق الدراسة في المرحلة المتوسطة صالح فتى فلسطيني يلاحقه الأقران لكسب وده، ذات ظهيرة شاركت في عراق آخرين تناول بعضهم بالفاض قاسية عليه وعندما عرف أبناء الحي قدرتي في القتال.

قال: جارنا رجل عسكري شارك في حرب فلسطين تأخر زواجه بسبب تنقله في مهام عسكرية ورعايته لوالدته وأخته التي لم يتقدم أحد للزواج منها، وأخ يقاريني في العمر يأتي في العطل والإجازات؛ فأمه الزوجة الثانية لوالد جيراننا المتوفي منذ زمن بعيد والمتزوجة من آخر وافق على بقاء ابنها معها.

قال: توفت والدة جارنا العسكري الذي استقر ترحله بسبب وصوله إلى منصب قيادي في قطاع التدريب العسكري، معها فكر وقد تجاوز الأربعين في الزواج فكان له ما أراد؛ كانت الزوجة من أقارب والدته تصغره بعقدتين من الزمان توافقت خطوطها مع أخته فوجد في السكنية التي لم يقلقها شيء سوى تأخر حمل الزوجة ليكتشف انه عقيم؛ وإنما تحتاج إلى علاج طويل لتجاوز حالتها وان كانت النسبة متدنية.

قال: بعد عشاء يوم اخذ الجار زوجته إلى راق وصل منذ أيام من دولة عربية في ضيافة شخصية معتبرة بعد ترتيب مسبق كنت العب مع الزوجة ومع الأخت الكيرم، تشاركنا الخادمة الأفريقية اللعب والصراخ. بقيت والأخت وانشغلت الخادمة بشئون المنزل وواصلنا اللعب أنا والأخت.

قال: في اتصال هاتفي دعيتني الأخت لأمر هام عرفت إنها قلقة بشأن أخيها وان تأخر زواجها جانب منه خوفها من عواقب فقدها لعذريتها بسبب مداعبات أحد أفراد المركز الذي تولى إدارته أخيها وهي في العاشرة من عمرها لتدخل الزوجة متلبسة اللحظة فتنقلت نظراتها بيني وبين الأخت ثم جلست بيننا لتلتفت نحوي وتقول احبك وتلتفت نحو الأخت وتلتحم بها وتقول بصوت مرتجف أعشقتك.

قال: قلق الأخت انساب إلى أعماقي ووجدته في حديث أمي وأختها وانساب بعضه في يومي الدراسي من خلال مشاركتي في صحيفة حائط للفصل ناقش فيها أحد المشاركين نعمة الدنيا الأطفال.

قال: كنت حقل تجارب وجد في الجار من خلال زوجته وأخته جزءاً من الحلم فقد تجاوزنا الحديث النظري بمناقشة العمل والخطوات فكان أن تم عقد قران الأخت على قريب للأسرة ولم يتم الزواج إذ اكتشف الجميع أن أمه أرضعتها فكان التفريق. . معه اتفقت الأخت والزوجة على تجربي سافر جارنا في رحلة عمل تجاوزت الشهرين كنت فيه البديل للزوجة ولم يظهر الحمل عندها جاء دور الأخت التي رسمت كل شيء فجاء حملها؛ فرح صامت عم الدار وعند الولادة أدخلت المستشفى باسم الزوجة.

قال: تخرجت من الثانوية وكان السفر الثاني للدراسة الجامعية تركت أمي في ضيافة أختها الأرملة وعند التخرج كان الحفل برعاية قريب زوج خالتي عندما صافحته مستلماً شهادتي حدق في، لم ينبس بكلمة وان كنت شعرت بانقباض وهو يخافت الواقف بجانبه بشيء وانصبت نظرات الاثني كسياط تلهب جسدي.

قال: بعد حصولي على الوظيفة جاء سفري الثالث وفي نهاية الشهر الثاني استسلمت أمي للمرض وجرى إدخالها المستشفى وأنا أراجع في أوراق نقلها للعلاج في مستشفى متخصص، لفضت أنفاسها وفي المقبرة شاركني أبناء خالتي في الدفن وتقبل العزاء، وكان بين المعزين جارنا العسكري الذي خط الشيب فوديه، احتضني وأجهش بالبكاء.



المكايبة تخدع الصنم

هي لحظة تشكلت خارج سياق حياتي الممتلئة: الانشغال بالعمل ومتابعة حالة والدتي الصحية ومشاكل شقيقي المتزوجة، وتدني درجات التحصيل العلمي لشقيقي الوحيد واهتمامات والدي بمخرجات عمله على حساب هدوء الأسرة وبالدراسة والبحث العلمي.

جاء من أقصى الجنوب بحثا عن العمل وبما انه من عائلة أسرة والدي؛ فقد حصل على وظيفة في الإدارة التي يرأس والدي أحد إدارتها، ومن هنا كان يوفر لي بعض مطالبتي كباقي أفراد الأسرة عندما نستعين به، وكان احتفالي بحصولي على درجة الماجستير مناسبة للزميلات لإقامة حفل خاص.

وجاء ليوصلني للمنزل كانت معي أخرى أوصلناها لمنزلها في شمال الرياض متجاوزين الحي الذي اسكنه أولا؛ الإصرار جاء مني لم أقومه حتى الآن وان انبثق من وجودي وأزمة تماهي خضت معه عملية إدراك كجزء من نفس توقف تحليلها بسبب غمار حرب أعلنتها متجاوزة عمليات اختزال اشتركت فيها.

ساعدني في إنزال بقايا الحفل في مدخل الدار الذي يعمها السكون، والدي مسافر ضمن لجنة لتطوير فرع جديد لإدارته، وشقيقي المراهق مع أصدقائه بالمقهى ووالدتي في غرفتها تتابع حلقة جديدة من مسلسل تركي ناطق بالعربية يبثه التلفزيون في غرفتها.

أمسكت بذراعه ودخلت الدار، العتمة تلف الصالة والدرج؛ لنلج غرفتي تطلع في مبتسما، في كمالية متجاوزة أزمنة كان التطابق ممتعا فيضها؛ تفتحت أكمام لذات علا في الوصول إلى كمال المدرك الذي معه انبثقت اللحظة.

شيء فيه أشعل شهباً ذهبية في فضاء الغرفة، وتدفقت الحياة في داخلي متجاوزة الخوف والفرع الذي كونه قلق عرى وجودي؛ ففقدت رشدي وشنقت كلماتي ممزقة بين السلوك والصرورة، تجاوزت التوتر وإشكالات تصدم اعز أحلامي وتفاصيلها الصغيرة وأحداثها الثانوية، ودب التعب في أطرافي إنها المرة الأولى التي لجمت أفكارتي؛ كمن حبس أنفاسه حتى يؤخر اللحظة التي سيتألم فيها.

كانت علاقتي العبيثة والمحدودة صور خيالية عبر الهاتف أو خلال لقاء في مكان عام يمثلها كمال وجود بحث، ولحظات عبث تقدم عليها إحدى صديقتي عندما نختلي فجأة، غادر الغرفة لم اهتم بما يحدث كمن أصيب بصعوبات في الذاكرة الفراغية، انزلت في خدر ونمت كما لم اتم خلال ثلاثين عام؛ على طاولة الغداء قال والذي إن سعد سافر لمعاينة والدته المريضة، تذكرت ليلتي وكيف اجتاح هذا السعد جسدي واستباح حصوني تركت الطاولة.

دخلت غرفتي رائحته في الفراش؛ نظرت إلى وجهي في المرآة فوجدت ملامحه الخالية من الغموض ينضح غبطة صافية ورغبة في تأكيد وجودي، وأثاره في كل مكان لم أقوم الفعل الذي خططت له كل قوى الشر، ودرجة الرغبة التي كنت عليها وان شعرت انه تواءم مع تضاريس جسدي واهتمامه الذي اثر في نفسي، وفق زمن إبداعي هو شكله فتحكم عن غير قصد في هيمنته فلم يهتم بسليبيتي الفاحشة.

رن الهاتف كانت أختي تخبرني بقدموها دخلت الحمام استحضر ذاكرتي؛ ابن أخت زوجها المبتعث يرغبني وزوجها لم اعترض ولم أفكر كثيرا جاء زواجي مبسوطا وعائليا في ليلة سفرنا؛ قالت أمي وهي تودعني إن جارتنا طلقها زوجها الذي تأكد أنها مريضة بسبب الصراع الاجتماعي الذي فرغ مقاومتها والطبيعة القاسية التي اندمجت فيها بسبب مغامرة كانت وراء عذاباتها؛ فلم تملك أعصابها فانهارت نفسيا.

في ارض الغربة قررت إكمال دراستي الجامعية إذ تمكنت من اخذ موافقة الجامعة التي يدرس بها زوجي؛ بعد أشهر من انتظامي بمعهد اللغة لتنمية مهارتي في المحادثة عند التسوق، وفي اتصال بأسرتي اخبرني والذي وهو يخبرني بموافقة جهة عملي على الدراسة وتحويل غيابي بعد إكمال السنة الإجازة بدون رواتب إلى مبتعثه من مرجعي بعودة سعد، لما سألت أختي عبر الهاتف عنه لم تقل شيئا.

أخبرني زوجي انه استتم دراسته وقد تبقى علي عام حتى أناقش رسالتي وبتفاق مع والذي بقيت لأجد ذات صباح سعد يقف على الباب، انبهاري باللحظة شلتي تراجعتم أغلق الباب وامسك بكفي أجلسني على أحد مقاعد غرفة الجلوس وجلس في المقعد المقابل لم نتحدث؛ المكان واللحظة عبرا عما يتعامل في داخلنا عرفت انه جاء مع والدته المريضة.

نهضت لأحضر مشروباً من المطبخ لحق بي شيء فيه يمتلكني وفي أعماقي تتشاجر المشاعر حول الصلة المنظورية، وأنا انظر إليه من الداخل سعياً إلى الأمان وفق حالي التي يصرفها عناد أعمى.

كان يعيد ترتيب حواسي، فمشاعر التأزم والتمرد أفقدتني قوة الإحساس بالأشياء التي تخلق الفعل، وكما كان في اللحظة الأولى منذ عامين، تركني في الفراش وأخفني ليأتي هاتف والدي إن سعد عاد وإن أمه ماتت تحت أجهزة العملية الجراحية.

جاء أخي وجاء زوجي وشاركاني حفل منحي شهادة الدكتوراه لنعود ثلاثتنا، عدت لعملي وزميلاتي لأتولى إدارة المتابعة والتطوير فيها خليط من الموظفين، وبعد ظهر يوم عمل حافل بالاجتماعات ومشاكل أحد الفروع جاء صوت سعد عبر الهاتف يقدم تقريره عن الفرع لم استوعب النقاط التي تحدث فيها؛ فقد فوجئت بعد عام من استلامي رئاسة الإدارة أنه أحد العاملين في إدارتي.

غادرت المكتب لأجده يقف بسيارته لم أتردد في الركوب انطلق مندغماً في شوارع اعتدتها ليوقف أمام منزل أجهله ترجل ولحقت به ترك الباب مشرعاً أغلقته، لم يعد هناك ما يمكن أن أخشاه واخذ يدور بي في فضاء لم استبينه بسبب تراكم الصور التي هاج معها التلذذ الباعث للشوق متجاوزة التأمل، هذه المرة كنت املك حق المقاومة واستطاع الحلم إخفاء الجدار الفاصل بين الوهم والحقيقة، في سيرة ذات تبحث عن وجودها.

إنما جاء مكتسحاً كل شيء اغترف ما شاء وقدمت له ما يشاء؛ وليطلقني زوجي الذي قرر الهجرة إلى لندن حيث استعار خدماته مؤسسة إعلامية تخطط لإصدار صحيفة عربية، وفي أحشائي بذرة أجهل قاذفها؛ تشكلت طفلاً ذكر احتفلت به أسرتي فأسميته سعد.



سفرُ الزهور الصفراء

نحن نستطيع رؤية الأشياء ولمسها، قضيتي وفق نظام اجتماعي غارق في الخصوصية. مجتمع غير طبقي تشكله الأسرة والعائلة ورابطة النسب؛ زيادة دخلي المادي والاستفادة من كل الفرص التي تعترض طريقي، ملتصبا الطعام ولو في الكهوف المظلمة.

جاء اتصاله في العاشرة صباحا بمهمة جديدة، نقل ضيوفه إلى مزرعته في عشيرة شمال الطائف لتناول طعام الغداء وقضاء بعض الوقت بين الأشجار وخرير المياه، كان الضيوف سيدها وابنها في الخامسة من العمر مع مرافقاتها الثلاث.

طريقنا الذي لم يستغرق الساعة، تجاوزنا وحشته بحديث متقطع تبتدره السيدة الجالسة في المقعد الأمامي مع ابنها ثم تشركنا عنوة فيه، وفي الثانية عشرة ظهرا جاء مع طعام الغداء، وبعد تناول الشاي قامت أصغرهن بأخذ الطفل ومغادرة المكان، واختفت السيدة مع الأخرى بينما العجوز أسبلت جفنيها وارتفع شخيرها، كنت الجالس الوحيد وأمامي الفضاء وندف السحب.

قمت متلفتنا حولي وقد تسرب الملل إلى أعماقي، واندغمت في ممرات المزرعة ارتب أفكارني لأجد الطفل والفتاة يجلسان على حافة بركة ماء تتسرب منها مسارات سقي مربعات تم حراثتها وأخرى مزروعة بأشجار فاكهة الصيف، توقفا عن خوض المياه بكفيهم عند اقترابي؛ ولتجاوز أفكارني حطمت حمى التوتر فحملت الطفل وحاولت غمس قدميه بالماء وقد ارتفع احتجاج الفتاة ففجر قلقها وصخبها يقيني الموحش بالتيه؛ فتعانق حديثنا شوقا طهرته الصبوة.

في الخامسة مساء أعدتني للدار التي نقلتني منها بشارع عكاظ، وفي ظهيرة اليوم الثاني جاء اتصاله بأن علي إيصال ضيوفه إلى جده حيث أهن وافقن على أن أكون قائد رحلة العودة، عرفت أثناء الطريق إهن من حاشية زوجة شخصية سياسية واقتصادية، يتولى صديقي إدارة أعماله في الطائف.

ونحن نلج القصر في جدة قالت الفتاة للعجوز إن عليها تبديل ملابسها، واقترحت أنني من سوف يحقق مطلبها ومع اعتراض العجوز وافقت؛ والتفت نحوي هامسة بسرعة أرجوك فلا احتمال غضب العمّة، أحيانا اللغة قادرة على تحقيق التماثل بين شخصين غير عابئة بالمكان والموقف متجاوزة لعبة الخداع معتمدة على حاجات الآخرين وقدرتهم على الفعل.

طلبت مني مرافقتها وأنا حمل حقيبة جلدية متوسطة الحجم، لتشكل اللحظة قصة خرافية في سياق تراكم انضغاط زماني ومكاني مفرغ من قوة التخيل، لتشع شمس الحقيقة وفق مسميات ومعلومات لفضية تصل انجاس اتصال. كل ما يحتاجه حركة معينه تطلق شرارة الوجود، فكانت الفتاة الشفرة المفهومة بين كل ما حصل، دفعتني إلى حرث تفاصيلها الصغيرة بمهاراتها المكتسبة من مخالطتها سكان القصر حيث تعمل أمها دادا نفيسة التي تربت العمّة في أحضانها في بيت أسرتها بالرياض؛ وأصرت على إن ترافقها في منزلها بجدة كأم وراعية لشؤونها الخاصة.

وهي تترجل من العربة قالت: سوف تكتشف رائحتك وتشم عرق جسديك عندما اقترب منها وهذه طاقة تكتسب أهمية إضافية في الصراع، لم افهم مقصدها وأنا استعجل الفرار بحثا عن مسحة من المواساة الروحية في مكان عام اعتدته؛ تهدئ زواياه روع المشاعر الممزقة التي اجتاحتني.

وأنا في حمى تحليل ما يوجد حولي في توافق قدرات ومعرفة اكسب بها خبرة في مجال سوق معارض السيارات وذكاء الشريطية في البيع والشراء، عثر علي صديقي الذي انقطعت أخباره لسفره للعلاج من مرض الم به على حساب سيده، بعد فشله في الحصول على أمر علاج من وزارة الصحة بسبب عدم قناعة اللجنة الطبية المركزية بحالته، وصرخ في منفعلا: لقد أمرضتني العمّة تبحث عنك.

بعد جدل واستفسار للموضوع اخرج من جيبي ألف ريال وهو يقول هامسا: بنزين السيارة ومصاريف الطريق، التساؤلات لا أهمية لها الآن وقد اجتزت نصف الطريق المؤدي إلى جده، السداجة دفعتني إلى المنزل الذي عرفت أن الفتاة وأمها وبعض العاملين في القصر يقيمون فيه والمكون من طوابق ثلاث وشقق تعج بالسكان.

طرقت باب الشقة التي لم يرغب رقمها عن ذاكرتي تأخر الرد فكررت الطرق لينفرج الباب عن وجه لم اعرفه
قال: نعم قلت: حامد. دققت النظر في ثم انسحبت تاركة الباب مشرعا العتمة تضيع معالم المكان فأخذت
أركز على مخزون الذاكرة منقبا عن المعلومات التي كسبتها في زيارتي السابقة.

لأجدها تجلس على أحد مقاعد غرفة الاستقبال

قالت: تأخرت

قلت: ضيعت معالم الطريق

قالت: هل علمت أن فاطمة حامل

قلت: من

قالت: أختي الصغيرة

قلت: كيف تريدني أن اعرف وأنا لا اعرفها

قالت: ألا يذكرك المكان بها

كانت هذه نقطة حساسة نبهت مشاعري التي كانت حتى هذه اللحظة خارج الزمن اعتبر دائما أنني في
مكان آخر وان كل لحظة خاصة إنما هي بلا أهمية.

قلت: بلا

لم يكن هناك أحد كانت ترتب للاتي: زوجه منذ عشر سنوات فشلت كل محاولاتها في الحمل، فقد جددت
بكل طاقتها والآن بعد حمل فاطمة سوف تجرب محاولة أخرى شعرت بنفسها حمقاء ومزاجها العكر ينفر
الأشياء الجميلة التي نسقتها بعذوبة متوحشة فوق ارض بور. لتتفجر حمى اللحظات الأخيرة، انشروحت
أساريرها فأشرقت ملامحها الصارمة مرحا وشبابا.

رافقت صديقي في رحلته العلاجية الثانية التي استمرت أشهر ستة، تجاوز فيها مرحلة الخطر وعاد صوته الجهوري يقلق صمتي ويشاغب بحروفه النحاسية الثلج المتراكم في أعماقي، الذي خلفه رحيل عاملة بالمستشفى تم فصلها بعد اتهامها بتكوين علاقات جنسية مع مرضى معينين تبتزهم، لم أجد هذا في علاقتي بها والتي تأتي وفق انبثاق خاص إنها الربة الطيبة وعذراء المكان الرائعة. ولده تجانس فكري نماه حرصي على إتقان لغة أجنبية استعين بها في ركضي وشعوري إنها أجمل وأحدة في مجموعة العاملين بالمستشفى.

لما عدنا للطائف كان الشتاء يجيم على المدينة بشوارعها الخالية من الحركة وناسها المقطبين الوجوه، ليها تفني صديقي في ساعة متأخرة من الليل بأن عمه أخيرا رزق بابن، فر النوم من عيني وتذكرت فاطمة بنت الطبيعة الطيبة؛ الفتاة البائسة وهي تلوي أصابعها وتلوح بكفها رفضا لواقعها، غضب وإحساس بالفضيحة طوقني، غادرت الدار ركبت سيارتي لا أدري وجهتي لأتوقف عند مقهى مسافرين صغير تلفت حولي وطلبت من النادل كوب شاي. بعض المسافرين حولي وحديث متقطع هنا وهناك، لأتنبه على صوت النادل يطلب ثمن الشاي، عدت أدراجي وشمس الصباح بأشعتها الذهبية تنير الطريق، عدت للدار وصوت أمي ينساب عبر الجدران، كانت تطوي سجادتها رمقتني بنظرة وجله قبلت رأسها ودخلت الفراش.



عائفة

بغباء شديد. جاء انتظاري وفق هواه، فلما عدت للدار ممزقة شعرت أني فقدت ذاتي، وعلي إعادة صياغة مسلمات قادتني عنوة، لتأتي أختي والكون لا يسعها لتخبرني أنه جاء ووجدت فيه كل المتع التي لم تنعم بها في حياتها، فلم أجد غير الحسرة عزاء لقلبي.



كولاج

كان وجدتها جذابة في بداية الأمر، تمتعت بإيقاعها في حبائلي، فتمادت في التفاخر لأكتشف وصديقي يتحدث عن ألمه، أنها تميز نفسها وبتيه الطبقة التي تنتمي لها. كيف تزدرى المشاعر الهزيلة التي تلاحقها.



الممثلة تقفز من النافذة

وانا على مشارف الرياض استوقفتني اضاءة سيارة على جانب الطريق، بعد تردد تمهلتي حتى توقفت، لأجد أحدهم يتلمس المساعدة لعطل محرك العربة، ثم جاء صوت انثى من خلف العربة تطلب الفزعة، عندها وافقت على حمل المرأة ومرافقتها بينما يصلح عطل السيارة ويلحق بنا في الطريق ومن الحديث المتقطع، عرفت اسباب قدومهم للرياض لحضور مناسبة عائلية، ولما اندغمنا في شوارع الرياض اكتشفت ان الاثنتين لا يعرفن عنوان المكان المتجهات له ولا يحملن ما يثبت هويتهم لاستئجار غرفة لهن بالفندق او شقة مفروشة، وايدبن موافقتهم على مرافقتي الى شقتي، مع معرفتهن انها خالية فزوجتي عند اهلها في شقراء تضع ابنا الثاني، نمت في غرفة الجلوس وفي الصباح ذهبت للعمل، ولما عدت لم اجد أحد ولفت نظري ورقة ملصقة بمرآة مغسلة حمام غرفة النوم (بكل اسف استعرنا بعض اثاث البيت لتسديد قيمة اصلاح السيارة ونفقات الرحلة. غيداء) ركضت بين غرف الشقة المفقودات جهاز حاسب والتلفزيون في الصالة واجهزة هاتف مهندسة في درج كمدين غرفة النوم، وبعض ادوات المطبخ الكهربائية بما يعني مبلغ عشرين الف ريال؛ انهرت على أحد مقاعد غرفة الجلوس وبعد تفكير اتصلت على الهاتف الذي يحمله سائق السيارة المتعطلة فكان مغلق؛ ورقم اخر وجدته في هاتفي اتصلت عليه المرأة ونحن في الطريق فوجدته ايضا مغلق، وعلى رقم احتياطي استعمله عند السفر ضمن الجولات المسروقة رن حتى توقف، اخبرت زوجتي بما حدث وضحك مني والدها عمي وباقي افراد الأسرة، ليقول أحدهم انه يعرف من يأتيه باسم صاحب الهاتف المجهول للوصول الى هوية من سرقني، الرقمين باسم وأحد تم ايقافهم واستخراج البديل؛ نسيت الموضوع وعادت زوجتي بعد تجاوزها الام الولادة، وبينما وهي تقوم بتنظيف غرفة الجلوس وجدت هاتف نقال مغلق بسبب طول المدة، الجهاز مجهول والمكان الذي وجد فيه مكشوف؛ اعدت شحن بطارية الهاتف واخرجت شريكته وادخلت شريحة هاتفي، ووجدت في ذاكرة الهاتف ارقام واسماء وفي الأستوديو بعض الصور لأجد سيدتين لفت نظري جمال أحدها وعندما انفجر صمت زوجتي انها مزنة واختها غيداء، واسترسلت زوجتي في الحديث عن غيداء زميلة الدراسة في القرية التي تسمى نفسها سعاد حسني الممثلة من خلال حراكها داخل المدرسة، ووالدها أحد مدرسي المدرسة الوافدين من الشام ورحيلهم بعد انتقال عمل والدها لمكان اخر،

اتصل قريبي بعدما وصلته المعلومات ليخبرني ان المعلم يستقر بالرياض وابنته غيداء حصلت على الجنسية بعد زواجها بمواطن وكذلك اختها مزنة انما هي بسبب تطلعها الأفضل تسبب في طلاقها ولتجد في أحدهم شريك في بحثها عن معاش امن ورفاه تقلد فيه من حولها.



جموح حدث الوقت

لما عدت لمدينتي الطائف المأنوس التي هجرتها حتى اكتشف ذاتي؛ لمواصله الركض مع انسه وجنه وعبر حافات ارض تفوح برائحة زهر طبيعي، لم أفكر إن الفرح بحثا عن الطمأنينة عبر أناشيد الليل وسكناته، سوف يتحول إلى مغامرة اشعر بوخزها حتى بعد رحيل من غرر بي لأشارك، جاء اتصال هاتفي تطلب صاحبتة المساعدة في نقل ابنها الصبي للمستشفى؛ هي زوجة زميل عمل مسافر في مهمة رسمية.

رافقنا في إسعاف المريض مع الأم أخرى عرفت أنها شقيقته الكبرى، وبعد ساعة من المعاينة نصح الطبيب إبقاؤه تحت المراقبة في المستشفى فتابعنا نقله لغرفة التنويم في الدور الرابع، وبعد وقت من الاطمئنان على الترتيبات عدت بعد غروب الشمس ومعى الأم والمرافقة التي طلبت البقاء فلم توفق.

والأم تترجل من السيارة أصرت على دعوتي لشرب فنجان قهوة تقديرا لمساعدتي، ترددت وأمام إصرارها ومكوئها في فتحت الباب؛ ترقب استجابتي استسلمت. فأفسحت الطريق ودلني على غرفة الجلوس ثم اختفت.

ومع قلق الترقب هلت وقد تغير مظهرها حاملة صينية براد الشاي، جلست كل شيء فيها يوتر شعرها الأصفر وجهها الأبيض الضاج بالأصباغ، ولما نهضت لإحضار دلة القهوة؛ ركزت نظري على خطوط ظهرها. مشكله عصف تتفتح أكمامه.

وبعد ساعة من الحديث المتقطع رافقتني حتى الباب، كانت أنفاسها تلفحني مع تركيز نظرها علي وأنا أتمتم بالشكر واني سوف اطمئن على المريض حتى عودة زميلي من السفر؛ افتر ثغرها عن ابتسامه رضا. وقلاع دهشة وتعجب تبعث في الفضاء.

في اليوم الثاني رن هاتفي. كانت هي تخبرني بقلقها وان ابنها اتصل يطلب ملابس للنوم وغيار داخلي، مع غروب الشمس أخذتها للمستشفى، وطال انتظاري غير أنها جاءت وقدمت لي وردة حمراء. فانبعثت الأفكار عبقة بالأماني والرغبات.

أثناء الطريق فكرت في دعوتها لتناول العشاء، ولما بحثت بك ووافقت، وفي العاشرة ليلاً ونحن في طريقنا لمنزلها ولما وصلنا دعيتي للدخول، العتمة حولنا اقتربت بلا غاية إلا نشوة الوجدان وحلاوة اللحظة. هل هذا كان متعمداً وهل تصرفنا عمل حقيقي، تلاعبها تمتص رحيق الحياة من غيظ ترسب في أعماقها ونفس معجبة بذاتها ليزداد القها.

تأخرت عودة زميلي ومدد المستشفى إقامة الصبي لمزيد من الفحوص وبهاء سيدة الموقف ينثال في حديثي وهمس الأصدقاء، ونظرات الزملاء تزرع الخوف في داخلي ليدخل الصورة الشخص الثالث مرافقتنا في الذهاب للمستشفى في الخطوة الأولى، كانت ابنتها التي هجرت منزلها في الرياض بسبب اكتشاف زوجها إنها تتواصل مع آخرين عبر الهاتف وصفحة في جهاز الحاسب وغرف الدردشة.

جاء هاتفها تطلب مني المساعدة في إيصالها للمستشفى الذي سبقتها إليه والدتها، كانت الساعة الثالثة عصراً فتحت الباب تشبه في تقاسيم وجهها أمها مع سمرة مكتنزة الجسد ترتدي فائلة علاقي تكشف بطنها وشوورت جينز، طلبت مني الدخول حتى تغير ملابسها.

وفي طريقنا للمستشفى تبادلنا أطراف الحديث؛ وعرفت أنها ترددت في دعوتي حتى لا يحدث شرخ في السكنينة التي تعيشها؛ يعصف بحياتها. فذهنها قلقاً ومغتما خشيت تصدع الجدران.

بعد أربعة أيام خرج الصبي من المستشفى وعادت الابنة للرياض بعد اعتذار زوجها الذي حضر للمشاركة في احتفال عائلي بسلامة الابن، وعاد زميلي في العمل الذي كان في رحلة استجمام بعد انتهاء مهمة العمل الرسمية، ليأتي هاتف الابنة قلقة من انقطاع هاتف أبيها وأمها المسافرين لمعرفة أخبار أخيها الذي تم عرضه على متخصص لمعرفة علته، وشاركها في الحديث زوجها وعرفت إن ذلك جاء منه للتأكد أن زوجته تكلم شخصاً عادياً يحمل نفس يوجعها جهله بنهاية طريق يسير فيه. فما زال يرتاب في تصرفها.

قال الزملاء الكثير في خليط من الحديث الخاص، وفيما جاء من تعليمات صارمة يسندها نظام إداري جديد لتسريع إنجاز العمل، ليلتفت نحوي جاري في المكتب وليقول بلهجة ساخرة في همس سمعه البعض، إن زميلنا عبد الله الغائب في إجازة ترقى في السلم الوظيفي لمنصب قيادي في فرع آخر بمدينة جدة، وافق عليه وسوف يستلمه بعد انتهاء إجازته. هزرت رأسي متجاوزاً أحوال المستنقع الذي سوف يخوض فيه؛ ورمقته بازدراء غير

ناشئة عن ضغينة إنما عبر إحساس بهي عبق بإيمان عميق رفع حجاب كنت أتواري خلفه، واندجمت مع زميل
آخر فيما كنا نناقشه وقد توقفنا عن دراسة ما بين أيدينا من أوراق.



الفضول يغير المعالم

والحفل يعلن ختام برنامجهم جاء جلوسي لشرب فنجان من القهوة المرة سكب نادل يرتدي ملابس تراثية ملونة على طاولة بعيدة، من خلالها انقل بصري بحرية في زوايا المكان، لتأتي وتجلس بجواري تبادلنا حديث تقطع وتعليق على فقرات الحفل ليرن جرس هاتفها النقال، عرفت إنها كانت تنتظر وقال المتحدث شيء معه تركزت نظراتها علي وهي تردد لا أدري لا أدري ثم تلحقها بقولها تعال جس النبض.

وأقبل كان زميل في المؤسسة الصحفية التي أتعاون معها، مد كفه مرحبا وهو يردد: أخيرا أخيرا ليذكرني انه سعى كثيرا لكسب ودي إنما لم يحالفه الحظ؛ ثم تركنا لتقول: أنها مدعوة لحضور لقاء خاص مع صديقة تأخرت في الحضور، كل ما شعرت به كان فضولا موضوعيا وعنيفا؛ وأنها تتمنى علي مشاركتها اللقاء وكفها تضغط علي كفي الرابضة على الطاولة.

كانت منفعلة إلى حد ملائكي وهي تقربني من أجواء المناسبة، كنت اعتقد إنها سوف تتحفظ وهي تقرب لذهني إمضاء وقت عصي التفاصيل وأحمق، ابتسمنا لبعض بتواطؤ عذب وقلت: إن الوقت الذي أمضيه برفقتك من أجمل ساعات حياتي؛ فقالت: وهم. . . المهم موافقة.

ليس من المستغرب أن يكون السعي إلى تحقيق معجزة، فاتحة طرق أمام لحظة انبثاق جديدة تولد الحرارة التي معها يتشكل البدء برؤية مغايرة. تمنحني الثقة بالذات وأنها محاولة اعتدتها تبدو لي في هذه اللحظة بالغة الشفافية فيها أراجع نفسي ولا أغرق في تعاسي.

وجاء بعد اتصالها كانت الساعة العاشرة ليلا، نجلس في المقعد الخلفي من سيارة بيضاء وأخرجت من حقيبة يدها مطروفا مخطط غير مغلق، فتحتته كانت بداخله عشر ورقات نقدية من فئة الخمسمائة ريال عزلت خمس وناولتني ضمت أصابعي عليها وهي تمس: مكافأة المشاركة التي سعدت بها؛ لأعرف البدايات ومما تولد وهل هناك رحم للأوجاع.

فتح الباب ورحب بنا رجل في منتصف العمر سرنا خلفه لنجد آخر يجلس وشاشة التلفزيون تبث فلما أجنبي نهض لمدخلنا ومد كفه قال مستقبلا: السيد عباس وأنا عادل وخالد وسعيد في الطريق وبعد جلوسنا قالت مرافقتي: أنا زينب وهذه صديقتي فاطمة، كنت كما هرة تنتظر كف مربيتها حتى لا تنفر من ضيف حل.

بعد حديث متقطع ومشهد أكثر حميمي يشكله أبطال الفيلم الذي تبثه قناة تلفزيونية مشفرة قام عباس ووقف قبالة زينب التي رمقتني مبتسمة ثم اختفت، عادل اقترب مني شيء فيه دفعني إلى تصنع البراءة التي تمنحني بعضا من الثقة بالذات، قال: الوقت يمضي ونهض وضع كفه على كتفي فقممت طوقني بيده اليمنى وسرنا متجاورين.

بينما نحن نقضم ما تبقى من فطيرة التوت، تردد حديث بين الجدران همس في أذني: هاه لقد وصلا، تركني في العتمة وأبقى باب الغرفة مواربا؛ ولفت نظري لمعان خاتمه وهو يتكئ على الباب الموارب منتعلا جزمته؛ ليفصلني عن الجزء الشاذ الذي دخلت فيه.

الصيد والطريدة كنت الصيد وإذا بي الطريدة؛ أربعة رجال وامرأتين ترى هل عاشرت زينب الثاني والثالث أم اكتفت بالأول، أنا اعرف ما هو بداخلي إنما هناك جانب نفعي واضح يسيطر على اللحظة معه أقوم بترتيب الأشياء التي ارغب في الحصول عليها وفق رغبات معتقد خلقت مبرراته.

التفتت زينب نحوي وهي تؤشر على ساعة معصمها مذكرة بالوقت قلت وأنا ازرع ابتسامة انتصار على وجهي: بقي اثنان قالت: نعم قلت: اثنان عرفت إنما لم تفهم. رن هاتف خالد وأعلن انه مغادر لارتباطه برحلة عمل مع سعيد. رافقهم عباس للباب.

صاحب الخاتم امسك بكف زينب وسحبها خلفه التفتت نحوي مرتبكة، جاء عباس التقت نظراتي بنظرات عباس ابتسم ونهض لحقت به أخوض في أحوال المستنقع واخذ ينصب العلامات في مساحات جسدي الفسيحة وهو يطفئ الشعلة التي أحدثتها ذاكرة تربط بين رائحة الزهرة والمكافأة.

لا يمكنني أن أخبرك قالت زينب: وهي تقبع في الكرسي المخاذي لمكتبي في الإدارة التي اعمل بها وقد حصلت بعد جهد على رخصة فتح محل تجاري لبيع الملابس الجاهزة وأدوات الزينة النسائية في سوق تجارية جديدة؛ قلت: هل معك شريك يمكنني مساعدتك. ردت رأسها إلى الخلف ورتبت شعر رأسها بأطراف أصابعها

وقالت: تحررت من ذاك الوجود الغريب والأليم الذي يقتحم حياتي ونهضت؛ غادرت مقعدي وسرت بجوارها
وقد أعييتني الصور لمعرفة هذا التواصل غير المفهوم بيننا قالت: نحن نستطيع رؤية الأشياء وتذوقها فقلت:
ونتشابه في كل شيء.



الريح

سأطير كقبره واختفي فوق السحاب، ورفعت رأسها شكت متنهدة كنت الأسعد حالا؛ إنما تدرجت مع التيار السريع في طريق لم أتوقعه بغير رجعة، بسببك خسرت رجلي وفقدت صديقتي، كانت الريح تهب بشدة واغروقت عيناها بالدمع.



الجرح يفزق عهرا

جاء الاختفاء في ذروة هدوء الصيف وسكون الأشياء في الرياض، لم نشعر بفقدته في الأيام العشرة الأولى لأنه ينجز عملا بالتنسيق مع والدي، في بداية الأيام العشرة الثانية سألني والدي عنه فلم تشف إجابتي غليله.

ران صمت اسود على الدار، أمي تختزن طفلي ذات السنة وتلاطف ابني الذي لم يكمل سنته الثالثة، ووالدي يشغل نفسه بما يبثه التلفزيون، رن هاتف المنزل كانت العاشرة ليلا صوت مجهول وهو يطلب والدي قائلا: هل أنت سارة، همهم أبي ببعض العبارات التي لم افهمها وامي تحدد بي.

على الغداء أخبرني والدي أن سالم اختفى من حياتنا، هناك علامات استفهام كثيرة، انشغل والدي معها بملاحقة أثارها المادية والمعنوية، سالم رحل ضمن إحدى قوافل المتخلفين ممن لا يحمل أوراق ثبوتية إلى مصر.

قال أبي: أوراقه التي بين يدينا مزورة، زواجك وأرقام إقامته في شهادة ميلاد ابني وابنتي تخص آخر، ومعه اختفى مبلغ كبير من صندوق المحل التجاري والحساب البنكي يصل إلى نصف مليون ريال، كان زواجي من سالم العامل المساعد لوالدي وأنا ادرس بالجامعة، فقد كان السائق الذي يحملني للكلية ويحمل معي طموحاتي وأسراري، بعد تخرجي بشهر اقتنع برغبتي والدي وباركته أمي التي تعتبره ابنها الرابع، فيصل ومحمد وسارة وسالم، إذ لم تعترف أنني بسبب قربي من والدي ومشاكستي إخوتي.

أمضى سالم في العمل مع والدي عشر سنوات، معه حمل العمل وغدا شريكا في كل شيء ولم يتغير شيء بعد زواجي به، إشكالية هوية ابني وابنتي تم ترتيبها عبر المحكمة بإضافة لقب والدي وطلقني القاضي بعد وصول كشوف إدارة الجوازات التي تحمل صورة المتخلف المرحل بعد إقرار والدي وبعض الشهود انه سالم، والزمني بالعدة الشرعية حتى يباح لي الزواج مرة ثانية، قررت إشغال وقتي بالدراسة الجامعية فحصلت على الماجستير.

بعد وفات والدي قدمت لي أُمي مطروفا مغلق طلبت مني فتحه في غرفتي بناء على وصية والدي، عرفت من الأوراق التي به أن سالم هويته الوطنية مزيفة، وهو عميل استخبارات زرع عبر عمل والدي التجاري الذي له علاقة بالسيارات والميكانيكا بعد تكليفه من جهة عسكرية بصيانة بعض معداتها، وكان عميلا مزدوجا لبلده ولإسرائيل ولما شعر بالخطر يحيق به رحل.

قمت بتمزيق الأوراق والصور وحملتھا للمطبخ وأشعلت النار بها، فتحت باب غرفة ابنتي فلم أجدھا، وفتحت باب غرفة ابني فلقبته نائما، وفتحت باب غرفة أُمي فاذا ابنتي ترقد مع أُمي في فراشها، شعرت بالهدوء والسكينة تمددت في فراشي ركضت مع أحلامي وطموحاتي، متجاوزة الجرح الذي نجحت في معالجته ولأفكر في أجوبتي على أسئلة الموظف الذي سأقابله في إحدى كليات جامعة نجد الأهلية حتى أكون عضو تدريس بها.



الحفوق

اكتشفت أنها تفقد اعتبارها في نظر من حولها؛ إن لم تتمكن من فرض رأيها خلال المناقشة، كان الحنق يتغلب على الخجل لديها، لا تبدو فاتنة فهي أشبه بفوضى كريمة، معها جاءت الرغبة في ممارسة حب أنا أصنفه ولا يقاس بالخطى التي ارسمها للعمل، إذ علي إدراك سرها قبل اقتحام الآخرين خلوتنا؛ اقتربت كروح حاملة وقد أعمها غضب عاجز؛ فأخذت اغرف من كأس طواه الزمان، ونور اللحظة يضيء المكان قالت: لم أكن مجنونة يا عاشق التفاحة إنما أضفت لوجودي تاريخ آخر.



المفزل تنسكفه الرغبنة

في البدء هو حلم راودني ذات ليله، تفاصيله أنا في مكان غابت معالمة تركني أحدهم مع امرأة تخيلت أنها زوجته، تركنا ليحضر العشاء وبعد دقائق رن جرس هاتف المرأة لتقول: المجنون نسي مفتاح السيارة، لما وجدته أطلت من نافذة الغرفة التي نجلس فيها لتبين معالمة حتى ترمي المفتاح.

هنا شعرت برغبة ملامسة مؤخرتها فوقفت بجوارها وكفي بسكون تأخذ مكانها؛ لم تهتم بذلك كنا في الدور الثالث من عمارة تعج بالحركة والسكان، ألفت المفتاح وأنا واصلت عبثي سكونها واستسلامها خلقا التوتر في داخلي، أحسست بألم لاذع قطع أنفاسي.

غادرت المكان (وأنا أهمهم يا لها من امرأة بغيضة) متناسيا أنني جئت للاتفاق على اخذ قريبة للرجل الذي شاركني برنامج تدريبي انتهى وقمت بشراء سيارة جديدة بدلا عن سيارتي التي حضرت بها لأعود بها إلى الطائف.

في الموعد كنت اقرع الباب، لما فتح انبثق عن سيده في منتصف العمر، هي من سوف ترافقني طريق العودة وفق طلب أحدهم، في المنتصف توقفنا عند مقهى للمسافرين فأخذت غرفة حتى نتناول العشاء.

فجر الحديث المتقطع كامن اشتركنا في إثارته وعلى فراش الغرفة المترب اقتحمت وجودها عاجزا عن التنبؤ بالنهاية ونحن نتجاوز الشعور بجموح وفق أحاسيس علاقة جديدة وكلمات مكبوتة تشق طريقها لاقتحام اللحظة، ولما وصلنا انتظرت حتى ولجت المنزل الذي دلني عليه، في اليوم الثالث جاء صوت قريبها يسألني عنها أخبرته إننا وصلنا وإنني تمهلتي حتى دخلت الدار التي وصفتها.

شعرت بالقلق وبعد تجوال وصلت للمكان كان الباب مشرعا دخلت لم يكن هناك أحد الغبار يعانق الجدران والتراب في كل مكان بعض الأبواب في غير مكانها والمقاعد مغطاة بأكياس من البلاستيك.

جلت في الغرف وارتقيت الدرج إلى السطح في جانب منه كوم أثاث مستعمل غطي بشراع من النايلون الأزرق، اتصلت برقم الهاتف المدون على لوحة البيع، أفادني المجيب إن ملاك المبنى ورثة يقيمون في بريطانيا وهو معروض للبيع منذ عام، لم اصدق فأخذت وصف مقر مكتب العقار.

وجدت المتحدث وأخبرته إنني منذ ثلاثة أيام أوصلت سيده للمنزل عندما قرعت الباب فتحه طفل في العاشرة وطفلة في السادسة هلا مرحبين بالسيدة وتعلقا بعنقها، استغرب قصتي وقال معلقا الورثة رجل وشقيقته وهم في لندن ابتعثا للدراسة وطاب لهم المقام فلم يعودا منذ عشر سنوات والمنزل مهجور وعلى جداره لوحة المكتب لطلب أصحابه عرضه للبيع بعد وفاة جدتهم العام الماضي، لم اصدق الحكاية فاتصلت بهاتف الرجل الذي توسط لنقل السيدة فلم يرد، فكان أن اتصلت بمركز التدريب بالرياض الذي أمضيت به أيام خمسة عبر برنامج رشحتني إدارتي للمشاركة فيه بعنوان السكرتارية.

طلبت من موظف العلاقات العامة تزويدي بكشف بأسماء وهواتف فرقتي في البرنامج، كان اسم زميل الدورة مدون عاودت الاتصال فرد علي سألته عن سر المرأة التي شاركتني الطريق.

قال: لم يحدث هذا لأنه تمكن من الحجز لها على الطائفة.

قلت: والمرأة التي شاركتني الطريق أنكروا وهو يتهمني بعدم الوعي، ذكرت رقم الشقة التي أخذتها منها.

قال: إن رقم شقته أربعة في الدور الأول وان الشقة التي ذكرت رقمها في الدور الثاني.

ترقبت أن يتصل معتذرا غير إن ذلك لم يحدث، ولما عدت لأوراق برنامج التدريب وعناوين زملاء الدورة كان مقر سكن الزميل خارج المدينة التي التقينا بها، وانه لم يحضر الدورة لظروفه الصحية.



متعاون

رفضت مطالبه فترصد خطواتها، ولما شاهدها مع أحدهم تدخل محلا تجاريا وشى بها، لتأخذها سيارة الشرطة وبعد عشر ساعات؛ اقتنع المحقق أن مرافقها كان أخوها من أمها.



الهيم

ونحن نتناول العشاء ونتابع في التلفزيون مباراة في كرة القدم بين فريقتي المفضل وآخر ينافس به بشراسة، طلبت مني شقيقتي تأمين خدمة زميلتها في العمل ترددت في طلبها، أوصلت شقيقتي للعمل وتوجهت للجامعة حيث اعمل كموظف استقبال، بعد فشلي في الالتحاق بالجامعة أو إحدى الكليات المتخصصة لتدني النسبة في الشهادة الثانوية، ومع انقضاء يومي العملي أخذت شقيقتي من مقر عملها وفي الطريق شاركتنا زميلتها ليكون حديثنا عن المساعدة المحددة ومعرفة منزل الزميلة.

في الرابعة عصرا: كنت أقف بسيارتي أمام العمارة التي تسكن بها زميلة شقيقتي التي جاءت مجللة بعباءة سوداء وقد رافقتها أخرى وطفلتين وتكوم الجميع في المقعد الخلفي عرفت أثناء الطريق أن الخادمة والطفلتين سوف يبقيان عند أمها حتى تنتهي من شراء بعض احتياجاتها من السوق.

لما قبعت المشتريات في شنطة السيارة وعلى المقعد الخلفي، تابعتها بنظري لأجدها تقف أمام الباب الأول ثم رفعت غطاء وجهها وقالت وهي تبتمس سوف اجلس بجوارك، أيقنت أنها وصلت في اعترافها بوجودها الصفات المشتركة وقد طمست أيقونة قوة القهر.

عرفت إنها تعيد ترتيب شقتها وقد أوشك زوجها المسافر في برنامج تدريب إلى القاهرة لمدة عشرة أيام على العودة، وان الزمن الذي بقتة وحيدة، كان والدها يرمي شئونها مع إصرارها على البقاء مع طفلتينها والخادمة في الشقة.

في السادسة مساء: لم تتحدث عن الذهاب لمنزل والدها واخذت الخادمة والطفلتين، ساعدنا بواب العمارة في نقل المشتريات للشقة في الدور الثالث، وأنا أرتب المشتريات في الصالة سمعت الباب يغلق بالمزلاج والنور يشتعل في أرجاء الشقة، لتطل داعية إلى شرب الشاي في غرفة الجلوس بنطلونها (الجينز) يبرز مؤخرتها وقميصها القصير (تي شيرت) يعري جزء من جسدها المائل للسمنة.

في السابعة ليلا: كان جلوسها في المقعد المقابل ولما فرغ كأسى قامت لتصب من الإبريق ومع الانحناء تهدل صدرها ولخت أنى أركز نظري عليه، جلست بجواري في بقية المقعد شعر رأسها الأسود الطويل ووجهها الغني بأصباغ خفيفة يشي بملاح جميله ابتسامتها وهي تتحدث لفتت نظري، نهضت قالت أن والدها سوف يرسل ابنتيها والخادمة مع السائق وأنها تريد رأي في فستان شرته.

في الثامنة ليلا: ونحن في الممر أصرت على بقائي لتناول العشاء، في حوارنا بين ممانع ومصرة كنا نقترّب ونتلامس بعفوية وعند الباب وأمام المرأة الكبيرة ومزهريّة تضم بعض الزهور التصقت بها كان استسلامها وعدم مبالأتها مريبا، إنما تفاعلها فرض الهالة السرية الأنثوية وعودتنا إلى غرفة الجلوس خلق الفضول في داخلي، ولم اشعر بمرور الوقت ولما رن هاتفها كان والدها، قلت هامسا اخبريه انك في الطريق.

في التاسعة ليلا: وصلنا لمنزل والدها ولما عادت مع طفلتيها والخادمة، جلست بجواري ومع مغادرة الجميع للسيارة رفعت كفها ملوحة بالشكر والتوديع؛ وفي طريق عودتي للمنزل رن جرس هاتف لم تكن النغمة التي استعملها في هاتفى الجوال، كان جوالها ارتفعت ضحكتها لأستعيد الوجه الأسمر وملامحه وقد رقت على الثغر ابتسامة صغيرة.

قالت: أنها عن قصد تركت هاتفها كهديّة منها لتحملني تصرفها وسرقتها لوقتي الذي قد أكون بحاجة له.

وللتصل حتى تخبرني إنني نبت أرض تنتمي لها وأنني فعلت خيرا بمنع حدوث تلف في حياتها، بسبب صراع داخلي بين التعلق الأمن بما هي عليه وعالم اقتحمته ذات يوم من خلال تعاويذ ورقى دجالة ومشعوذ، لما وقعت في برائن الإحباط المهني بسبب مشاكل زوجيه وتبعية وخضوع مهين للمجهول، اختفى معه الإحساس بالاضطراب لشعور مؤقتة بالاطمئنان، وتشكرني لأنى أعدتها للحياة من خلال زرع الثقة بإعادة إنتاج الذات.



السحاب يبسه خراعيه

دخل المستشفى ومع تكرار الفحوصات والتحليل قرر الطبيب التدخل الجراحي فحالته خطيرة وتستدعي ذلك، فكان علي التبرع بالدم كما هي العادة عند إجراء العمليات الجراحية من الأقارب والأصدقاء.

بعد إكمال اخذ الدم دخلت العيادة لعمل فحوصات عامه فموعد الزيارة طويل وعنده زوار تقلقني مقابلتهم، لتقول لي الطبيبة: مبروك أنت حامل في الشهر الثاني، الأمر كان مفاجأة ولم أرتب له وعلاقتنا التي اكتمل عامها السادس عمليا؛ وتقارب روحي منذ ثلاث سنوات لم يكن في جدولها هذه الحالة الخوف غدا ينبض في جسدي بدلا من قلبي المد نف مما أزعجني.

هو تجاوز الخمسين رجل أعمال ناجح في بداية حياته تفرغ لرعاية والدته وشقيقاته الأربع بعد وفاة والده؛ شقيقاته تزوجن الواحدة تلو الأخرى وغادرن لمدن أخرى، وبقي يتابع حال والدته خالة أمي، ومع نجاحه التجاري نسي أن يتزوج وكان تخصصي الجامعي في الحاسب فرصة عمل إضافية في شركته مع عملي كمعلمة.

والدته المقعدة ادخلها مركز اجتماعي للمسنين بسبب سفرياته، ووالدي بعد سجنه لمدة عام وفصله من عمله في قضية رأي عام، طلق أمي ورحل إلى لندن وخلي منزلنا من حراك الأقارب وشغلناه بسائقين الأول لمطالب والدي والمنزل والثاني لمشاويري وتجوالي، وثلاث عاملات منزل من شرق آسيا.

ولما شعرت أن لا أحد عنده دخلت متوترة باقات الورد تحيط به وممرضة أجنبية خاصة تساعده على تصحيح وضع السرير، أخذت منها أقراص العلاج وكأس الماء تطلع في مبتسما وبعد حديث متقطع قلت: أنا حامل.. أغمض عيني وارتعشت شفتاه. . قلت: حبي أنت قرين الروح وزوجي أمام الله وهذا يكفي؛ فتح عيني و اخذ كفي طوقها بكفيه وران الصمت الذي معه جاءت الممرضة لأخذه لعمل أشعة جديدة.

في التاسعة ليلا عدت للمنزل كانت والدي تتابع حلقة من مسلسل في التلفزيون، وأطلت إحدى العاملات تخبرنا إن العشاء على الطاولة، تريثنا حتى انتهت الحلقة طوقني أمي بذراعيها ودخلنا المطبخ حيث طاولة

الأكل. وقبل جلوسنا قالت: عمّتك خطبتك لابنها ولم تعلق كما هي عادةً عندما تأتي سيرة عائلة والدي أو تكمل طارحة رأيها الذي اعرف انه محرج.

في اليوم الثالث على اكتشاف الحمل وبعد اتصاله دخلت المستشفى في العاشرة صباحاً كان في الغرفة محامي الشركة الذي يعرفني وأخر؛ ساعده المحامي على الجلوس وقال: هذه فضيلة الشيخ. قال الشيخ: هل معك هويتك الوطنية. أخرجتها من محفظة اليد تأملها ثم قال: حقاً والدك غائب. هزرت رأسي فواصل وهو يشير إليه هل تقبلينه زوجاً.

خرج الشيخ ومعه المحامي طيلة الاجتماع لم أنبس بكلمة، كنت عند الشيخ وكيلة نفسي وعند الوصاية الشرعية هو وكيله وكان المحامي الشرعي شاهد أول وطبيب المستشفى المشرف على حالته الصحية الشاهد الثاني، والظلام يخيم على الكون قال: فعلاً أنت حبيبي وزوجتي أمام الله وخوفاً من نتائج العملية الجراحية ها أنت زوجتي أمام الناس.

أكمل شهرين في سريريه الطبي وقرر الأطباء ترحيله لمستشفى متخصص في أمريكا وهناك لفظ أنفاسه، وعرفت وقد توزعت أسرته التي لم تعرف بزواجه ارثه، انه عمل حساب بنكي باسمي رصد فيه نصف مكافأتي لقاء عملي الإضافي ومبالغ أخرى هي نصيبي كما قال المحامي من أرباح عمله التجاري في بعض عقود المشاريع الحكومية والخاصة التي كنت أدون أحداثها وشقة في عمارة سكنية بشمال الرياض.

ولما لحظت أُمي انتفاخ بطني حاصرتني بأسئلتها، فبسطة لها قصتي أخذت تبكي بصوت مرتفع وعصبية لم أعتادها منها وهي توبخني على فعلتي، وقاطعتني منكراً أمومتها وقرابته لنا؛ ولولا خوفها من القادم لطردتني من المنزل؛ وعند ولادتي كانت هي من اختار اسم ابني.



أعياد

في عيد الأم فقدت أمي، وفي عيد الحب خطف جاري الأرملة زوجتي، وفي عيد الشرطة وأنا أقطع الطريق للحاق بصلاة المغرب في المسجد؛ دهمتني سيارة شرطة تلاحق عربة مسروقة فمت.



حواس انصباع غامض

قالت زميلتي: أثناء اتصالها لتأكيد حضوري حفل صديقة مشتركة؛ بمناسبة حصولها على وظيفة جديدة في الإدارة التي تعمل بأحد أقسامها لما لا تتزوجين الأرملة، وفي الحفل وهي تعرف أن زواجي الخامس انفض منذ ثمانية أشهر، جاءت على ذكر الأرملة الذي كان زوج أختي الأكبر وله منها بنت وولد البنت في الثانوية والولد مرسل للدراسة في أمريكا.

في اليوم الأول من زواجي بالأرملة؛ جهزتي أمي وابنة أختي، في الليلة الأولى نام في غرفة الضيوف، وفي الليلة الثانية تأخر في السهر مع أصدقائه فنام على أحد مقاعد صالة الجلوس، وفي الليلة الثالثة وبعد عشاء في منزل أسرتي شاركني غرفة النوم إنما لم يقترب مني، وفي الليلة الرابعة شعرت بالإرهاق من التفكير، فلم أكمل مشاهدة حلقة جديدة من مسلسل تلفزيوني فدخلت الحمام وتركت الماء البارد ينسكب على جسدي؛ لأسمع حركة في المنزل وباب الحمام يفتح كل شيء فيه متوهج وجاءت لحظة التحول لتشكّل تغيرات جذرية تجاوزت المنطق.

ونحن نحتفل بزواج ابنته وفي طريقنا للمنزل، أخذنا الحديث قال: كانت تحرسني روحها ولما تأكدت أنك البديل الذي سوف يسعدني سلمتك الحراسة في الليلة الرابعة. . ! فقلت: وأنت كنت القرين الذي تسبب في فشل زواجي السابق كان فرحك يشع وخصامكم صمت لم أجده خلال تجاربي التي سعت والدتي إلى إخراجي من وهمها، فأنت ابنها الذي لم تلده وزوج ابنتها البكر.

وفي العام الثاني جاء طفلي استقبلناه بقلق، وقد تجاوزنا في تفكيرنا وجوده في قائمة حياتنا ولم نشعر بتكونه اللا في الشهر الرابع؛ قالت: صديقتي أثناء مراجعتي للمركز الطبي في حيننا لحلول موعد جرعة التطعيم؛ عبر الهاتف كنت أفكر فيه فقد حدث التقاء في زمن آخر وأخرجني من أزمة كنت أعيشها مع أسرتي وأهل زوجي، صمته دلل على خصوصيته.

لما عدت للمنزل اخذ الطفل وأجلسه في حضنه، واخذ يحدق. . في أراح الطفل من حضنه وأجلسني على فخذه كفه تلامس شعر رأسي وأنفاسه تلمح عنقي، الطفل ذي السنة الواحدة غفي ومعه خيمت عتمة على

الغرفة وبصيص لمع برق يتألق حولنا؛ كانت دوامة من نور محملة بذرات ثورة لم توفق في إعداد جانب تنظيمي وان معها ارتفعنا كل شيء أمامنا الناس والمنازل والأشجار وسحب بيضاء تلف بنا شيء فيه سلب وجودي وأعاد صياغة مشاعري، لينبهننا من حالة الوجد بكاء الصغير.



صوت

كان صوتها ينم عن قدر من العصبية، عبرت لحظة صمت قبل أن تترجل مع العربة لاحقة بمرافقتها، تموجات صوتها تقاطع البهجة المفعمة بالرقّة والحنو التي تلتهم في عينيها، لم تأخذ باقي الخمسين فالمشوار كان بثلاثين ريال، لما عدت للموقف في المركز التجاري؛ تجدد الصوت ليركب في المقعد الخلفي امرأة وطفل في الرابعة.



بيت الجدة

أثناء حضورها حفل جمعية إيواء للعناية بالعجزة بصفتها ناشطة اجتماعية وعضو في مجلس إدارة الجمعية، كان زوجها بمقر شركته العائلية يوقع عقد بناء مستشفى تابع لوزارة الصحة، وعقد بناء مدرسة ابتدائية للأولاد تابع لوزارة التربية، وعقد تمهيد وسفلته وصلة طريق لقريبة تبعد عن طريق الرياض الطائف خمسين كيلو مع وزارة المواصلا، بعد شهر رافقته لحضور وضع حجر الأساس لبناء المستشفى، فتذكرت طفولتها الأرض الزراعية والبئر وبيت الجدة سألته كيف وضعت الحكومة اليد على المكان قال: أحدهم عرف الحاجة واحضر تملكه الأرض فشرتها وزارة الصحة، لما دخلت منزل خالها المقعد بسبب التقدم في العمر والمرض؛ لاحظت التجهم على محيا الجميع كان زوجها شريك في سرقة الأرض.



ريح رماحية

وقد غرقت في عرق النشوة تذكر صديقه الأثير، فلم اعترض على مناداته، فإذا به زوجي المسافر منذ عشرة أيام، معها عدت لمنزل الأسرة.



موجة ضباب داكنة

لما وقفت أمامه غارقة في الخوف انتظر تبرير حضوره، مد يده وفك حزام البرنس الذي يغطي جسدي، حدق وقد سرت ابتسامة باهته على وجهه وقال: أمك بالمستشفى ثم انهار باكيا.



عندما نتذكر الأَشكال العائِية

شعرت أن من سعى لطباعة كتابها الأول في النادي الأدبي، يتاجر باسمها لرسم هالة لصور لم تحدث؛ فلما دعيت للمشاركة في ندوة أدبية عبر لقاء منبري مع طالبات الأقسام الأدبية بالجامعة تجاهلته في حديثها، وإذ بها في حلقة جديدة من مقاله الشهري في الملحق الثقافي بالجريدة اليومية؛ ذات نص ساذج ومفكك وغير مستقر لغويا؛ وفي معرض الكتاب الدولي بالرياض لما التقيا عند الدار التي تنشر كتبه ونشرت كتابها الثاني أهدته نسخة من الكتاب، فجاء اعتذار الملحق الثقافي الذي نشر خبر إصدارها مع تقرُّب المحرر، بأن الكاتب أعتذر عن اختفاء الحلقة الجديدة من مقاله لأنه مسافر.



سيمفونية ليلة وداع

بعد عشر سنوات من العمل في الغربية وفق سكينه مثيرة للإعجاب من البعض ولباقة مزعجة للغالبية؛ جاء موعد العودة للبيت، فقررت صديقتي الأثيرة وزميلة العمل المميزة إقامة حفل عشاء مع بعض من الزملاء والزميلات برعاية مديرنا في فرع الإدارة بشمال الرياض، كنت انتظر مرورهم واخذي لمكان العشاء بعد المغرب.

قالت (عبر الهاتف): المدير تكفل بحضورك.

شيء في انزعج وجزء زرع علامة استفهام من صاغ المشهد وقرر التقاط الصورة؛ وأنا أقاوم إحساس غريب حين أفكر إنني غدا مساء أكون في منزلي، وأتساءل إن كنت سأجد هناك كثيرين ممن افتقدتهم وممن عاد، اتصلت بها إنني اعرف المكان وفي إمكاني الطلب من أحدهم التكفل بذلك.

قالت: الجميع مكلف بمهام لإنجاح الحفل.

لم أفكر في الفستان الذي يناسب الحفل وقد جمعت ملابس ومقتنيات في حقائب السفر؛ السفر الذي تحدد حسب تذكرة الطائرة الثالثة بعد ظهر الغد، رن هاتفي كان المدير يشعرني انه في الطريق ويتأكد من صحة العنوان، اسم الحي والشارع والعمارة ورقم الشقة والدور؛ زاد قلقي وتوتري عشر سنوات من العمل منها الستة أشهر الأخيرة تولى إدارة المنشأة علاقتنا رتيبة ومجاملات لم تتجاوز ساعات العمل وان كان البعض يتحدث عن قسوته في التعامل وغياب الشفافية عند الخطاء.

رن جرس باب الشقة لم يكن هناك أحد أخي وزوجته في الخارج لتبضع، ترويت قليلا ولما تذكرت ما قيل أسرعرت إلى الباب كنت بثوب المنزل القطني القصير وشعري المتشعث، لما فتحت الباب وشاهد الحالة البوهيمية الغارقة في الفوضى التي أنا فيها، ضحك بصوت عال.

قال: انتظرك في السيارة

شرعت الباب ودعوته للدخول جلس على أحد مقاعد غرفة الاستقبال ووقفت مرحبة حدق في يتابع كلامي ولما انتهيت وقف وامسك بكفي، قال كلاما لم افهمه فكل شيء في داخلي منبهز ومفكك وأنا اركض في الأفق الأبيض في مرح ألوانه منشقة من قوس قزح، تنبتهت من حالة الغياب لما ترك كفي وجلس، تحركت إلى المطبخ وأحضرت كوب ماء تناوله مني.

قلت: قهوة. . شاي أو. .

لم أكمل فقد كان مغمض العينين وجهه يعكس البراءة التي في داخله، مما زاد معه انبهاري ومزيد من الثقة بالذات اقتربت مررت كفي على جبينه، تنبه وجدته ودودا وقد طفح وجهه بالبشر كان يبتسم وذكر لي شيئا يتعلق بالعمل، شعرت بأنفاسه لا أدري ماذا حدث إنما حرصت أن اخذ كنت كمن قد فرغ تقريبا من انجاز شيء، مستعدا للشروع في الغد لمعايشة مرحلة جديدة.

ما أريد بات الأمر أكثر جدية متجاوزه سؤال طرح علي وأنا أتابع أوراق استقالي من العمل (ماذا أريد في نهاية الأمر) كلهم يعرف إنني في العقد الرابع اركض وحيدة في شوارع مزدحمة ناقمة من كل شيء باحثه عن خلاصي وألا أخون نفسي.

اعرف أن كل شيء يراوغني ويصبح على حين فجأة مجرد كذبة فأغلق الباب خلفه، كان رقيقا ينساب كما نسمة ربيع، رائحته تسري في انفي وقد اختلط نبضنا خرجت عن السيطرة وفق إشارات ملتبسة فلم اخذ حذري كانت حماقة؛ لم يعد هناك ما أخشاه في تكامل نسق ربط بين أجزاء تتشابه في حراكها اتقاء الجوع والتفتت؛ في اتفاق غير معلن على تجاوز نظرية الاختيار العقلاني.

في حفل العشاء همست صديقتي بأنه تكفل بالحفل حالات القلق التي غمرتني لم تصل إلى مرحلة الخوف من همس الحضور مع انه موقف خلقتة الصديقة الأثيرة يسهم وحالة يتراجع ضجيجها في الانفعال فينشأ الشعور بالخوف أو الغضب وتموت السعادة.

قال (وهو يغادر): كلفت مراسل الإدارة أن يقلك للمطار ويتأكد من سفرك.!

تذكرت إنني كما تخلصت منه. أخذت منه شيئاً قد يذكرني به؛ صديقتي وزوجها لما أوصلايني للمنزل أكددا
استعدادهم إيصالي للمطار إذا لم يتمكن أخي أو تأخر سائق الإدارة، لم أقاوم الحب الذي أحاطني انهارت
دموعي وأنا اصعد الدرج ليفتح أخي الباب مرحباً.



انثيال رشنة نور

في طفولتي كنت افتقد التوازن: لم يشغل ذهني انبهاري بالحواجر المكانية، منجرفة لحساسة تعيد تكوينها وفق تراكم عفوي في داخلي، وأنا في الصف الأول الثانوي وجدته في معلمة لم يستغل قدرتها أحد، فكانت مرشدتي فتجاوزت الثانوية العامة بتقدير ممتاز، والجامعة في التخصص الذي أتحمم فيه فكانت أول دفعتي؛ من خلال وفرة اهتمامها بقدرتي الذهنية والجسدية.

وأصبحت الثالثة كموظفة ورئيسة قسم النساء بالبنك، وبعد ثلاث سنوات تم ترشيحي لبرنامج حسابي الكتروني حديث لمدة ثلاثة أشهر في أكاديمية تنمية المهارات التي تشرف عليها الإدارة العامة للبنك؛ ومع نهاية الشهر الأول وفي زيارة تطبيق للبرنامج في مؤسسة حكومية مع خليط من المتدربين، التقيته فيه أشياء أخلت بتوازي.

في لقاءنا الثاني تمكن بما يملك من قدرة في اقتحام أعماقي؛ فجر جبل النحاس حتى وصل الينابيع، المشاعر النزقة كنت معها مرتاحة تماما شعرت إنني غير موجودة، ولما عدت لبرنامجي المعتاد لم يشغلني التغير بسبب التوازن الذي تشكل مجددا.

كان حديث الزملاء يأتي عليه كشخصية غامضة، ووصلني انه سافر لمدة سنة في إجازة تفرغ لإعداد بحوث ترقية أكاديمية، ولم اعترض على من تقدم خاطبا، وقد كان من أسرة والدتي ليهمس في الصباح قبل أن يكمل إفطاره إنني غير مناسبة فقد حرثت ارضي.

غادر الشقة التي ساهمت في تأيئتها لتأتي أمي وتسألني صحة اكتشافه، حوارنا لم يصل إلى نتيجة وقد تجاوزت الإحساس بالإحباط؛ وعدت لمنزل والدي وبعد انتهاء إجازة الزواج رجعت للعمل فوجدت تسرب ما حدث وفق روايات مختلفة.

قاومت المتاريس التي شكلتها أسرتي وهمسات البعض من داخل مبنى البنك، كما قاومت ابتزاز زوجي الذي هجرني رافضا استمرار حياتنا، متحملة عواقب تطاوله وقد قررت عدم تكليف نفسي توضيح ما يجول في

خاطره، مطالبا إعادة ما أنفقه كمهر وهدايا وقيمة أثاث الشقة، حياذ أبي منحني فرصة المساومة وان وجدت في صمت أمي تبنيها لوساوس خالتي التي هي مطالب ابنها، وبعد عام من المشاورات جاء الخلع بعد ما أعدت كامل الصداق وتنازل عن مطالبه المالية الأخرى.

وفي وقت لم أدونه عدت للدار الهدوء يجيم، وفي طريقي لغرفتي سمعت صوتا مألوفا قادم من غرفة الضيوف؛ يتحاور مع أبي وأخي كانت أمي في المطبخ. تعد دله القهوة، همست: أعندنا أغراب. لم ترد تريثت قليلا أتابع حركتها ليأتي أخي؛ صدمه وجودي ولما حمل الدله التفت نحوي متهللا: هنا من يطلب يدك.



ترحل لحضات لا لون لها

في زمن ذاك الحلم: وقد امتد المكان حتى لم تعد له نهاية؛ طلبت مني أخذها إلى حفل تسعى كصحفية لتغطية فعاليات، المكان حديقة عامه في طريق شهار والمناسبة احتفال بموسم زهرة الورد، الموقع بين بوابتين بوابة مستشفى (شهار) الصحة النفسية وبوابة مستشفى (الدرن) الأمراض الصدرية، وفي انتظاري شرعت باب المنزل ورجعتني هامسة اخذ أختها الأكبر التي تزورهم وطفليها لتصورهم؛ ونشر صورهم مع التغطية الصحفية بالجريدة، ولما عدنا رأَت الأخت إيصال شقيقتها أولاً حتى لا تلاحظ أمها حضورنا المتأخر.

فكانت عفويتنا استجابة الفكرة، ولما وصلت لدار الأخت تذكرت أنها بجاحه لبعض الأغراض تجولنا في الشوارع بعد انتقالها من المقعد الخلفي لتكون بجواري، وفي محطة بنزين تضم مركزا تجاري ومقهى في طريق الهدى عثرت على مطالبها؛ كان الطفلان نائمين ابن في الثانية وابنه في الرابعة، أوقفت السيارة في شارع خلفي للبرج السكني وحملت الطفلة وهي حملت الطفل وفي المصعد ران الصمت.

فتحت باب شقة في الدور السادس، ودخلت خلفها العتمة والهدوء يجيم ولجنا غرفة نوم الطفلين ورقد كل واحد في سريره ونحن في صالة الجلوس، دعنتي لشرب الشاي ومشروب بارد كانت الساعة متأخرة؛ اعتذرت وقد عرفت إن زوجها رجل الأعمال مسافر منذ عشرة أيام وخادمتها تركتها في منزل والدتها: يدفعني نسق اجتماعي بولغ في خلقه. كنت خليطا قويا لا يقهر؛ بينما كنت أيضا: لم أكن ذلك الشخص القادر.

تنبعت من الحلم: ونحن نجلس بجوار جذع شجرة وارفه في منتزه الردف الطبيعي نستشرف الذي سوف يأتي، قررت الزواج فأنا وان كنت حبها ودفء الشمس التي تنشر الطمأنينة في أعماقها ومن شعرت بوجودها معه؛ غير مناسب وبلا طعم في حالتها، وبعد ثلاثة أشهر من رحيلها جاء اتصال أمها للمشاركة في شهادة بالمحكمة الشرعية؛ جاءت استجابتي إليه رغم عدم معرفتي بالموضوع، لما أكملنا الإجراءات أوصلتها وابنها الفتى وابتنتها الثالثة للمنزل.

لأجد في المقعد الخلفي للسيارة بعد قضاء جزء من الليل؛ مع الأصدقاء في المقهى، محفظة يد صغيرة، تضم شريط فيديو. ومجموعة صور لحفل الزواج. وقلم روج. ونقود ورقية، كان الشريط تسجيلا للحفل تنتصب مع

زوجها في الكوشة: والجميع يتحرك ويرقص، وجاء صوتها في العاشرة صباحا وأنا في العمل؛ عرفت إنها الابنة الثالثة: تسألني هل شاهدت الشريط وتفحصت الصور؛ ثم قالت: أنا صاحبة الفستان الأحمر والشعر المتجعد قلت: أبرعهم بالرقص وأكثرهم لغطا قالت: وخطيبي أيضا رقص وعازف عود بارع وزواجي في الصيف.

طلبت مني إعادة الصور والشريط وإنما تنتظري بعد العشاء خلف باب المنزل، ترددت وقررت اخذ بعض الصور كذكرى أوقفت سيارتي في شارع محاذ لشارع المنزل، اقتربت من الباب الموارب دفعته ودخلت العتمة تلف المكان ليصلنا صوت أفراد في الدرج، فتحت باب جانبي وسحبتي خلفها وفي ظلام المكان همست بالسكون وعدم القلق ومعها شعرت بأنها تجري لمغامرة لم أرتب لها.

تفجرت اللحظة شعرت إنها اعتادت المداعبة ولثم عنقها لم يقلقها التصاقها قالت: وقد تخلصت من نزقي. خطيبي رسم معالم جسدي قبل كتابة كتابنا؛ ولما تمت الكتابة لم اشعر بطعم لوجوده غير انه لن يتوقف هنا فكلي له، تكرر اتصالها لطلب العون في تأمين تجهيز حفل زواجها ولما رحلت جاء اتصالها من مدينة في الشمال الغربي حيث يعمل زوجها العسكري.

بعد عدة أشهر جاء اتصال الأخت الكبرى: تسعى لتسجيل ابنتها في المدرسة الابتدائية، بعد فشلها في قبول أوراقها بالمدرسة التي تعمل بها، فكان أن اتفقنا بعد أخذها لمراجعة إدارة التربية والتعليم وقد وعدني أحد مسئولو التعليم بالمساعدة مع بداية العام الدراسي؛ إن السن لا يسمح ولكن في التمهيدي.

كانت العاشرة صباحا لما أوصلتها لمقر عملها عرفت أنها لم تتناول إفطارها فتوجهنا لمطعم لم نجد الإفطار المطلوب، فاتجهنا شمالا خارج المدينة وفي محطة محروقات تضم مطعما وغرف مسافرين بضاحية العرفاء، ومع الحلم الخافق الذي لم يكن لي؛ تجاوزت أفكارى القديمة ففقدنا كل شيء؛ كانت تقاوم في استسلام غبطة العطاء ولما عدنا قالت: ويلى أنا المسكينة، كنت صغيرة أتدحرج كحبة خردل، ولقد كنت العاصفة الهوجاء التي اقتلعت أشجاري: تراجلت عند باب مدرستها.

قررت الرحيل: إذ لم يتبقى لي عذر بعد وفاة والدي؛ الوتد الذي كنت اعلق فيه وبه كل أفعالي وقناعتي بما أنا عليه فهي القربان والفداء وسيدة الحب الإنساني، ورمز الوفاء وقد رفضت مطلب من حولها طلب الطلاق

من زوجها الغائب منتظره أوبته سالما، خالي زوج كل بناته العشر واستثنائي في الاختيار؛ خالي الثاني حاصر ما تبقى لي من ارث في منزل أشارك والدي تملكه لسكنى ابنه المقعد، خالي رفضت استقبالي بعدما خالفتها في مكان تقبل العزاء في والدي، أسرة والدي الذي اختفى وأنا في العاشرة والمقيمة في قرية شرق مدينة الطائف نسيت اسمها، لم تهتم بحالتي.

حطت رحالي في مدينة الزلفي الساكنة وسط الرمال، ضائع في زمن تنساب دقائقه رغم الامتلاء أجدها في حالتي فارغة؛ وبينما أنا في مكثي أغالب النوم وأقاوم الفراغ رن الهاتف كان مدير القسم لما دخلت غرفته سألني عن معرفتي ببعض الأسر في مدينتي القديمة، وذكرني بالأخوات الثلاث قال انه زوج الرابعة وان أمها هنا وتريد مقابلي، جاءت الأم للزيارة ومراجعة أحد المستشفيات حيث تعمل ابنتها الرابعة أخصائية تغذية.

وأنا عائد لسكني: شعرت إن سوء الحظ يلاحقني فقررت الرحيل طلبت إجازة خمسة أيام؛ راجعت المركز الرئيس بالرياض طالبا النقل إلى الرياض؛ ولما انتهت أيام الإجازة عدت للعمل، كان المدير مسافرا ليأتي اتصال الأم من الطائف: أمها مرهقة وبنوء كاهلها بالهموم بعد موت أبو عيالها، وعودة ابنها الغائب ثمان سنوات والمسافر للدراسة في أمريكا أبعثتها وان كان خالي الوفاض، ووجد عملا في شركة سيارات بجده، وأنها ترى انتقالها إلى جده التي يدرس ابنها الأصغر في جامعتها. وان ابنتها الصغرى والتي رزقت بابنها الأول منذ يومين تسأل عني، لم اهتم بكل هذه الأخبار ولكن ليأتي اتصال البنت الرابعة: صوتها المتوتر. دائما كان حاد وقلق؛ وأنها تنتظرنني في التاسعة صباحا أمام قسم العيادات الخارجية للمستشفى الذي تعمل به.

عرفت إن لها ابنة وحيدة ألحقتها بروضة أهلية تابعة للمستشفى، وان زوجها في رحلة عمل لمدة ثلاثة أيام في الرياض؛ وأنها تشعر إنها بحاجة لبعض المعلومات عن سبب طلاق أختها الكبرى بعد إشاعة إن زوجها اكتشف علاقتهما، وفي أثناء الحديث عرفت أن الزوج وجدها في غرفة الجلوس مع أحد سكان العمارة من جنسية أسبوية يعمل فني في شركة الكهرباء بعد عودته المفاجئة صباح يوم جمعة، هنا قلت: وأنت . . . أغمضت عينيها؛ شعرت انه علي قبل أن أنفذ تعمييد النقل الذي استلمته بالأمس وتكون نهايتي في مدينة أخرى، شرب ماءها فكان أن اتجهت إلى منزلها اعرف إن ابنتها الآن في الروضة. وان زوجها مسافر. وان عاملة المنزل المنشغلة بمهامها لن يقلقها حضوري.

لم اهتم بارتباكها أوقفت السيارة أمام مدخل المنزل ووقفت بجوارها وهي تفتح قفل الباب سرت معها للداخل، كان حراك الخادمة يصل من المطبخ؛ هاجس اللحظة فتح باب الاطمئنان فشعرت بالسكينة التي معها انكشف الحجاب، جسدها الأجل بين أخواتها بيضاء مائلة للشقرة رشيقة القوام، كانت وهي تتوقى تساقطي تنتفض كمن به مس تحلب عرقها ويتغير لونها أخذت تبكي بينما أسراب طير النورس تحلق؛ تركتها تلملم ذاتها المبعثرة. وترتق شق مسافة متاهة المجاز التي أضاعت فيه ظلها، وجدت العاملة السمراء تنظف إحدى نوافذ صالة الجلوس من بقايا الغبار الذي اجتاح المدينة بعد منتصف الليل: تابعتني بنظرها حتى أغلقت الباب.



ضغت نبات متسلق

وأنا أتابع مباراة في كرة القدم عبر منافسات اولمبياد لندن وحيدا في غرفة التلفزيون بمنزلنا، طلبت مني أمي وهي تحمل كرتونا صغير بين يديها مغلق بإحكام، أن أوصله لجارتنا الساكنة بالدور الأول من منزلنا وتشارك والدتي العمل بمدرسة ابتدائية للبنات بحي الشرقية، ماطلتها بدعوى انتظار نهاية الشوط الأول فجلست بجواري وقبع الكرتون في حضنها، ومع نهاية الشوط الأول التفت نحوها ثم وقفت وحملت الكرتون، جارتنا معلمة لها أربعة أعوام تقيم مع ابنيها وابنتها بينما زوجها يأتي عصر الأربعاء لقضاء يومي الخميس والجمعة وتحتفي أيام الإجازات، قرعت الباب ففتحته الابنة ذات السنوات الأربع طلبت منها أخذ الكرتون فرفضت، وأنا أجادلها أقبلت الأم بثوب الحمام الأحمر الطويل وقد لفت شعر رأسها بفضة بيضاء، جاء وقوفها أمامي بهذا الشكل صادما فتراجعت إلى الوراء وتوقفت مع ابتسامتها الصغيرة محذقا فيها.

قالت: شكلي خوفك

قلت: نعم

قالت: أي أنا جنية

وهي تتناول الكرتون شممت رائحة الصابون وعطر الحمام، فلم أعادر مكاني وهي لم تغلق الباب ولم تتوقف عن التحديق.

قلت: رفضت ابنتك اخذ الكرتون

قالت: زعلانه لأن أخويها مع أبوهم في السوق

قالت: سلم على أمك

لم أنبس بكلمة ولم تطلب هي مني الانصراف، وأمام ابتسامتها وشكلها ورائحة الصابون انشغل عقلي فولد الجراءة التي اعتدتها بصفتي مسئول الإذاعة المدرسية.

قلت: سرورك لونه أبيض؟

صدمها السؤال فأغمضت عينيها ووضعت الكرتون الذي تحملته على الأرض، وتراجعت خطوه للوراء وفتحت رباط ثوب الحمام كاشفة جسدها الأسمر الرشيق والمبهر بمكوناته، ونزعت الفوطة التي تلفها حول رأسها ليتهدل شعرها الطويل المبلل بالماء؛ وقد انطبق البرنس على جسدها، أمرتني بحمل الكرتون والسير خلفها انصعت مع سكينه تلبستي؛ الطفلة في صالة الجلوس تتابع الرسوم المتحركة في التلفزيون، ولجت إحدى الغرف وطلبت مني ترك الكرتون على طاولة تقبع في وسطها، ومع العتمة اقتحمت عذريتي في تعبير قاس عن نغمتها وتذمرها من حالة كادت أن تدمر حياتها، فغصت في نفق الظلماء، أمام الباب وابتسامة صغيرة على وجهها زرعت قبله على خدي؛ انبثقت لحظتها أريانا ابنة مينوس إحدى بطلات الأساطير اليونانية تنافس في فعلها الفتاة التي خطفها الجني كما جاء في كتاب ألف ليلة وليلة.

تجولت في الشوارع بسيارتي؛ الطائف بشوارعها الضيقة والسوداء المكتظة بالمحلات التجارية وسياراتها والمشاة بتنوعهم وصراخهم صور غائمة، وشارع خالد بن الوليد بتشكيله العجيب يمتد أمامي، متجاوزا أسواق العنقري وحي وادي النمل وخليطه المقلق سكان من كل العالم بسحنهم البيضاء والسوداء ولهجاتهم المختلفة ولغتهم حسب كل عرق ونشاط سري، واتجهت إلى مقهى في شرق المدينة بمدخل معارض بيع السيارات، التقي فيه بعض زملاء الدراسة وأصدقاء الحي نلعب البلوت وندخن، في العاشرة ليلا عدت للدار أترقب من يوبخني ويلقي بكل سياط العذاب في وجهي؛ وتنبهت لا أحد فالجميع سافر بعد تناول الغداء إلى مكة للمشاركة في عزاء قريب لوالدي والدته توفت.

ونحن على طاولة العشاء ومن حديث والدي فيما يهم الأسرة عرفت إن زميلتها الغائبة بسبب إجازة نهاية العام الدراسي التي التقتها في بيت المتوفاة، جاء اسمها في حركة نقل المعلومات وتحقق طلبها لتكون بجوار زوجها في مكة، شعرت بمغص شديد يمزق أمعائي معه تم نقلي للمستشفى كان اشتباه التهاب الزائدة الدودية فمنحت بعد رقابة لمدة نصف ساعة مسكن، ونحن في السيارة عائدا للدار قالت أمي: سميرة تقولك سلامتك وفي الواحدة بعد منتصف الليل وأنا في فراشي بغرفة النوم كانت سميرة تجلس على طرف الفراش تتحدث عن أخبارها الجديدة وفي الثانية غادرت، تنبهت من النوم وأنا اشعر بجفاف حلقي وعطش شديد فغادرت غرفتي

متجها للمطبخ، وجدت أُمي تجلس خلف طاولة المطبخ الصغيرة تتجرع الماء، حدقت في وغادرت المطبخ بصمت.



الففق

جاء صوته ينم عن قدر مرتفع من العصبية، تعلمت أن تقرأ نبراته حين يقف أحد بينهم يبقى قلقا عكر المزاج، شعرت أن كل شيء جافا وأن الأوضاع هذه المرة لن تسوى، احتجت وفي الموعد المحدد لمواصلة النقاش لم يحضر.



اللوحة الأخيرة

علي أن أكسر ريشتي: أنت سخرت من تقاليد القبيلة، الجميع سيكونون ضدك، ثم قالت: فيم حضورك أيها العاجز، وأنا اجتاز الشارع دهست جسدي عربة توزيع ألبان، رفض سائقها مساعدتي حتى وصول الشرطة، فتوقفت أنفاسي ورسم دمي فوق الإسفلت لوحتي الأخيرة.



القدرلة على السبهرلة

جلس بجواري اعرفه تصرفاته تزرع القلق، بعد العشاء رافقته وفي الطريق عرفت إن زوجته مسافرة، في العاشرة فُتح باب الغرفة تحمل براد الشاي، جلست مبتسمة أدخلت كفها في شعر رأسها.

قالت: صادق

تعبير رقيق ينبعث من عينيها وشفتيها الشاحبتين؛ وأنا في سيارة الأجرة ناوولي السائق مطروفا فتحته بداخله ورقة خمسمائة ريال، وليأني صوته يعاتبني على المغادرة إذ كان يأمل أن نتناول الغداء في أحد المطاعم.



بعء

بعء غياب حضر مع من قال انه صءيقه؁ وقءمني على إني زوجته السرية؁ وبعء ساعة استأءن وهمس في إءني: أرجوك امنحيه فرصة؁ بعءها طلقء وتقدم يءلب يءي في اليوم الثالث طلقني؁ ثم عرفت أن الأول وان كان بعء زواجين علنيين؁ تنازل عني لقاء ءين أرهق كاهله.



أيام الافتضار

بعد حصولي على شهادة الثانوية العامة، فزت ببعثة علمية إلى أمريكا وبعد سنوات عشر عدت وقد تغير كل شيء ومعه تبدلت قناعاتي؛ فعرفت أين أضع نفسي.

في الواحدة بعد الظهر قال مدير مكنتي في مركز أبحاث الجامعة بالرياض، أن الصحفية التي حدد موعدها مسبقا مع مصور الجريدة التي تعمل بها؛ ينتظران إذن الدخول.

وقد اكتمل التصوير ومناقشة الأسئلة المطروحة للقاء الصحفي، وبعد تجرع رشفة من فنجال الشاي

قالت: هل تعرف فهد ولد مبروكة

قلت: (مستفهما) نعم.. !

قالت: أسفه اسم والدك ولقب الأسرة يحمله ولد عمتي مبروكة

وتذكرت فهد وإخوتي من أبي، وقد تشتت تجمع الأسرة، بعد وفاة والدي المتزوج من ثلاث أنجب البنين والبنات؛ أمي رحلت مع شقيقي إلى قرية زراعية شرق مدينة الطائف، ونجح في مشروعه الزراعي وتربية الأغنام والبقية أخذتهم المدن الأخرى.

قلت: وأنت

قالت: أنا بنت خال فهد الصغرى والدي بعد تقاعده من العمل الحكومي اشتغل في التجارة

قلت: (بدون وعي) بنت زينب

قالت: نعم.

كانت قد تجاوزت الثلاثين نامت مع أولادها الثلاثة وابنتها (بسام تسع سنوات. فرح ثمان سنوات. سطاتم خمس سنوات. ناصر ثلاث سنوات) في غرفتي ليلة وأحده؛ حتى عشر زوجها على بيت مناسب في طرف الحي، سبب قدومها وعائلتها حضور زواج أخي الأكبر فهد ابن أخت زوجها؛ وقضاء شهر إجازة من العمل للتمتع بصيف الطائف.

مع الحكومة ومن يجد في الطائف لحظة استرخاء؛ مع نسيمات الصيف المتعطرة بعبق الورد المتوهجة بتألق الزهور الصفراء، وبساتينها ومزارعها وجبالها المكلفة بالأشجار ورمائها وعنبتها المميز؛ وسواقيها وأوديتها والبرشومي النبات بدون رعاية، في سفوح الجبال وعقوم المزارع.

كنت في السابعة عشر نحيل الجسد محدود التطلع تلميذا في المرحلة الثانوية، بعد استقرار الأسرة في المنزل المستأجر لا أدري من أرسلني بشيء لا أتذكره بعد عصر يوم، الأب والأم والأولاد يجلسون على الأرض المفروشة بحصير مخطط، وفي وسطهم براد الشاي وفصص ولوز سوداني وحمص مع كور الحلاوة الحمضية.

جاء جلوسي قبالتها ترتدي ثوبا فضفاضا ازرق قصير؛ لما تحركت تصب لي فنجان الشاي انحسر عن ركبتيها ولما عادت للجلوس انكشف باطن فخذيها وبان سروالها الداخلي، رن جرس التلفون وردت الطفلة عليه وبصوت عال نادى والدها.

لحت ابتسامة خفيفة على وجه زينب؛ الأبيض المائل للشقرة ولما التفتت ناحية مصدر الصوت تحرك شعرها القصير الناعم ثم انفجرت ركبتيها لمزيد من مساحة العري وهي تنهض، وعرفت إن الإدارة العليا للجهة التي يعمل بها زوجها تدعوه للحضور، وان سيارة المكتب في الطريق معها طلبت منه اخذ الأطفال إلى بيت عمتهم ولما تتجهز وتبدل ملابسها؛ سوف تلحق بهم.

والجميع عند الباب دست في كفي ورقة عشرة ريالات وطلبت همسا وهي تحديق في الباب المشرع، مطبق حبه مالح وحبطين حلوه؛ وإنما تنتظر ذلك بعد صلاة المغرب.

استغرق إحضار المطبق نصف ساعة، بعد الانتهاء من صلاة المغرب وفتح المحلات التجارية والمطاعم في شارع عكاظ، لما قرعت الباب تأخرت في فتحه كانت بثوبها الواسع وبجسدها شبه المكتنز وابتسامتها الصغيرة، تناولت المطبق ودعتني للدخول.

ولجنا غرفة جلوس العصرية؛ براد الشاي وقشور الفصص ومتناثر اللوز السوداني والحمص جلست وطلبت مني الجلوس وقبع المطبق بقرب براد الشاي، سألتني عن دراستي وسبب نحولي وهل أنا مريض ولماذا شعر رأسي كث؛ كنت أجيّب باقتضاب وخجل.

والجميع يستعد للسفر ونظرات أمي تنتقل بيني وبين زينب؛ وهاجس في داخلي يقول إن أمي عرفت أمر لم تتأكد منه. . قالت: (ايش) رأيك نخطب فرح بنت عمك زينب لك هزت زينب رأسها موافقة، مما أربك أمي فاخفيت في غرفتي متخلصا من نظرات زوجتي والدي وبعض أفراد الأسرة المشاركين في مراسيم الوداع.

زينب مزقت عذريتي وحتى أتجاوز التغير انكبت على دراستي فتخرجت من الثانوية وسافرت للدراسة، ولم أقاوم ما حولي كان اندماجي متوافقا مع نجاحي الدراسي الذي توجهته بالحصول على الماجستير وبسبب وفاة والدي عدت.

لم أفكر في إكمال مشروع الدكتوراه ومع إرهاق وكثافة العمل أجلت التفكير في الدكتوراه إذ عملي وأبحاثي أكبر من وهج الدرجة العلمية.

أعددت الإجابة المناسبة لكل سؤال مع إضافة سؤاليين عن طبيعة المركز وإنجازاته، وعن أسماء المخترعين والمبدعين ممن عمل وتعاون مع المركز ونظام دعمهم، وحضر مصور الصحيفة لأخذ الأوراق وإهدائي نسخة من الصور التي التقطها وفي اليوم الثاني جاء اتصالها بموعد النشر.

وأنا أتصفح الجريدة بمكتبي رن جرس الهاتف كانت الصحفية؛ تسألني عن انطباعي وهل إخراج الحوار بهذا الشكل لقي ارتياحي، وقبل أن تغلق الهاتف قالت: خطيبتك فرح طلقت من سنه، وهي في انتظارك وقبل أن تسمع ردي أغلقت الهاتف.



نبذة الشبهان

في الثانية صباحا عدت ومرافقيني الثلاثة للفندق، وأنا افتح باب الغرفة جاء جرس الهاتف، كانت نائب رئيس الوفد تسألني عن ملاحظاتي على البيان الختامي للمؤتمر، استأذنتها الحضور لغرفتها لمزيد من التدقيق؛ وبعد الانتهاء من تدوين الملاحظات شعرت أن هناك مشروعا آخر، صاغه وهما حتى تصدق ذاكرتها بطريقة أفضل.

تنبهت من النوم على جرس منبه الهاتف فغادرت الغرفة متوجها إلى مقر الجهة الراعية للمؤتمر؛ كانت تشارك باقي أعضاء الوفد قبل انطلاق الجلسة الختامية مناقشة الملاحظات، وبعد إقرار البيان الختامي ونحن نتوزع على طاولات المطعم اقتعدت الكرسي الثاني في طاولتي، وبعد صمت لم يطل.

قالت: لقبك وجزء من اسمك يسكن أعماقي

قلت: إنها المرة الأولى التي نلتقي

قالت: ومع ذلك أعرفك

استرسلت في الحديث بجمل غير مترابطة وبكلمات راديكالية جافة، وفي الطائرة أخذت أصيغ جوانب يتم استرجاعها من تاريخ عائلي، وتذكرته شقيق جدي لأمي رجل الأعمال العصامي، وصل قمة الهرم اقتصاديا ولما فكر أن يتزوج وقد تجاوز الأربعين غرق في صراعات عائلته.

هاجر مغاضبا إلى جده وفي حفل بأحد الفنادق التقى بأمرها زوجة دبلوماسي حلق بعيدا، ليجد فيها التطلع والإذن التي تسمع والصوت الذي يناقشه، اعتبرها مستشاره الخاص ومن خلالها استفاد من علاقات زوجها الدبلوماسية في الحصول على وكالات شركات أوروبية، وليكتشف حملها قبل انتقالها مع زوجها إلى سفارة بشمال أفريقيا، استنتجت وأنا اهبط سلم الطائرة أن نائب رئيس الوفد قد تكون ابنته.



السابق

لم أصل إلى النتيجة المتوقعة، كان ملف القضية مليء بالغريب من الأحداث والحالات التي لا يعرف سبب حدوثها، أوراق ممزقة وأدراج مكاتب تم العبث بمحتوياتها، وكلمات عابثة تكتب على الجدران بالفحم الذي تناثرت بقاياها في ممرات المبنى؛ تركته على طاولة بصالاة الجلوس، وقد أرهقني التفكير وتسلط علي النعاس فنمت.

نبهني جرس الهاتف، كان السائق الذي استأجر يستعجل خروجي، بعد اعتذاري همس بكلمات لم افهمها، وأنا أترجل أمام باب الإدارة قال (ماما أنت تعبان لازم يستريح) لم أرد ولوحت له بكفي ودخلت مكنتي، وجاءت مع ضجيجها وسوالفها التي اعتدتها هجرها لزوجها ومراقبة جارها المقابل لتحركها، واكتشافها لحمل خادماتها؛ ثم ذكرتني بموعد اللقاء الشهري.

وأنا في هذه المعركة مع نفسي المأزومة بشيء اجهله وهمومي الأسرية ومشاكل العمل، التي لاحظها السائق واخذ يتحدث مسرعا عني، ومعها شعرت بقربه أكثر مما دفعني ذات يوم في العاشرة صباحا، وقد عدت للدار انلا اعترض على دخوله، احضر كأس ماء من البرادة المنتصبة في المطبخ؛ ووقف أمامي وأنا اجلس على أحد مقاعد الصالاة حتى أتجرعه.

قال: أنت مرهق كثير

قلت: نعم مشاكل

وقف خلفي واخذ يدلك كتفي ويضغط مؤخرة رقبتني، ويتحسس بأطراف أصابعه فقرات ظهري العلوية، باحثا عن الألم الذي استوطن بدني وسرق مني حياتي، ولما مسد شعر رأسي شعرت بالخدر؛ فتنهدت باحثة عن الخلاص.

توقف وحملني رائحته تركم انفي وسكينة غريبة فرضت نفسها علي، مددني في الفراش وأخذت أنامله تجس جسدي، وشوط برق يسري في مفاصلي وينساب عنوة إلى شعيرات دماغي، معه انبثق نور غير محتمل فأغمضت عيني.

كان يتمم ليصطاد الطائر المقدس وأنا مشغولة بذاتي انتظر بشغف المجهول، شعرت بثقله فوق صدري عيناى مفتحتان وحواسي سكرنا بنشوة لم اعتادها، ظلام يخيم فوقى وفي كل مكان وفي هذه اللحظة الغائبة كنت أحلق في غابة سكنت أغصانها وتوسد الندى أوراقها؛ كان مغمض العينين يسبح كما سمكة في بحر لحي، كنت البحر الذي زاد صحبه ليسكن بسبب الارتواء؛ مع ارتفاع صوت مؤذن مسجد بالحي لصلوات الظهر.

تلفت حولي كان يقف بباب الغرفة نشر ذراعيه وحلق في الهواء كعقاب، بقيت في الفراش اردد فرعة (احرسني يا خالقي أيها السرمدي، أحفظني يا الهى الحبيب) وقد لبسني ثوبا من اللهب أتذكر معه ما حدث، لم استوعب استسلامي كانت رائحته حولي، والماء ينهمر على جسدي الملطخ ببقع حمراء وأثار أصابع عزفت نغمات إيقاعها مطر ونثرت أشعة غيمة حمراء وعميقة في داخلي، كسبت معها روعي بهاء التحول.

عدت منتشية جسديا مرهقة فكريا، فجلست على أحد كراسي طاولة الأكل بالمطبخ والجوع يلسعني تجرعت كوب ماء، فتحت باب الثلاجة كل شيء بارد، ليدق جرس الباب اتجهت إليه وقد أحكمت لف بدني بثوب الحمام، كان السائق يحمل أكلا ساخنا؛ احضره من المطعم الذي اعتدت مشويا ته في المناسبات وهمهم بكلمات لم افهمها ورحل.

من تصرفه شعرت انه نسي حرقه لجسدي، والغابة المطيرة التي أخذني إليها، فركضت حافية القدمين وتسلفت قمم أشجارها العالية، أخذت أفكر فيه بوجد ولم أقاوم رغبة تعاضم لهبها في داخلي، فقررت شرح ما حدث لزميله اشعر بقربها وقبل أن أغوص، رن هاتفها النقال تكلمت بصوت خافت، ثم التفتت نحوي وهدتني قبلة طائره وأمام اندهاشي همست في أذني (بكره تعرفين) ونسيت الأمر.

جاء انتدائي معها لزيارة موقعا يتبع الإدارة التي اعمل بها، خارج مدينة الرياض بما يزيد على مائة كيلومتر، بسبب الملف الذي يحمل أحداث غريبة وكنت ادرسه منذ شهر يتحدى خبرتي العملية وفكري الإداري، تعثر

إيجاد سائق رسمي فلم أجد سوى السائق الذي رحب بخدمتي وبالمقابل المادي الذي اعتمدته الإدارة مع جزء من تكاليف انتدائي، وأصابع كف زميلتي تتخلل أصابعي.

قالت: لن أعود معك

قلت: لماذا

قالت: هنا أقارب

لم اطرح أي سؤال فقد كانت مجدولة برنامجها في الحادية عشر طلبت السماح، وفي الثانية بعد الظهر كنت في طريق العودة لنقف عند محطة نزود السيارة بالوقود؛ وليواجه تلفتي إعلان بخدمات الموقع (موتيل) للمسافرين، كان السائق وهو يحاسب عامل الخدمة مركزا نظره علي تبسمت، ولما تحرك لف داخل سور الاستراحة ووقف أمام صف من الأبواب في الدور الأول ترجل وفتح باب السيارة مد كفه يساعدي على الوقوف، شيء سرى في أناملي شعرت بأثره؛ واتجهنا إلى أحد الأبواب صعد الدرج وفتحه.

كانت غرفة فندق وجدت صورتنا في المرآة المنصوبة في الجدار المقابل، تركني واختفى كنت اجلس على طرف سرير متوسط الحجم، أتأمل الفضاء الممتد أمامي وأراقب تحرك أغصان أشجار الأثل، منصته لمواء القطط ونباح الكلاب؛ وتغريد العصافير مع تقاطع أبواق السيارات وفحيحها.

ثم عاد أغلق الباب وجلس بجواري، رائحته التي أدمنتها تشعل النار في داخلي ومعها اخذ جلدي ينز عرقا، لم أقاوم الوقوع في الهاوية التي فتح المكان فوهتها، ليأخذني المستحيل نحو المطلق وميناء السكون.

في الخامسة مساء ونحن نحاذي محطة البنزين مواصلين مسير العودة، وجدت زميلتي تقف عند طاولة تتناثر عليها مجسمات وهدايا ودمى تذكارية، عرفت أنها لحتني وهي تركز نظرها على سيارتي لما وصلت الدار مع أذان العشاء، دخلت الحمام وتدقق شلال الماء على جسدي، ولما تمددت في الفراش كانت رائحة السائق تعطر الغرفة، وكنت كما كأس خمر امتلاء بعد نضوب طويل.

الظلام يعم الطريق أتلمس خطاي، دليلي بصيص ضوء خافت يلوح على مبعدة، أنفاس تشاركني المسير بسكينة؛ كنت كمن أغوص في أعماق غابة، الضوء يقترب وفي محيط الدائرة المشعة غمرتني المهمة تذكرت

السائق، ذات الوجه ذات القميص الأبيض والبنطلون الجينز وذات الرائحة أتجاوز الأول والثاني والثالث والمائة حجم وأحد وتقاسيم وأحده ورائحة وأحدة وهمهمة وأحده بكلماتها الغائمة.

نبهني جرس الهاتف من غفوتي، وأعادني للواقع الذي نسيت معه التعب والقلق والإرهاق، كانت صديقتي رفيقة المهمة الرسمية.

قالت: كم كان يومي رائعاً

قلت: افتقدتك وعليك توقيع المحضر الذي أعدده

تذكرتها كانت في الحطة التي مررت بها، وقفز الفرع الساكن في أعماقي كانت السيارة الواقفة بجوارها ذات السيارة التي اركب، ومن كان يجلس خلف المقود، نسخة أخرى من السائق الذي يرافقني استعدت الحلم وانبتق التشابه، أشعلت ضوء الغرفة وبقية لمبات الدار، دخلت المطبخ وأنا أحوقل تجرعت كأس ماء وبلعت حبي مسكن.

وأنا في طريقي للمكتب أخذت أحرق فيما حوي، بين سيارة وأخرى سيارة تشبه سيارتي وسائق يحمل تقاسيم وجه سائقي، وأنا اجتاز الطريق متجهة لباب إدارتي وجدت سائقين في عدد من السيارات التي تشبه سيارتي تقف أمام الباب ويترجل منها بعض الموظفين والمراجعات، لما دخلت المكتب وجدتها، طوقتني بذراعيها وزرعت قبله طويلة على عنقي.

قالت: هو جارنا خدين عمر يعيش رائعتي

قلت متعجبة: . . . رائحتك

قالت: وقطع استمتاعنا إدخال والدته المريضة المستشفى

غادرت المكتب بعد قيامها بالتوقيع على المحضر، حولت الأوراق لقسم المتابعة وطلبت من المراسلة السمرات التي أحضرت كوب الشاي الأخضر توصيله، ثوب المراسلة الناعم الملمس بخطوطه النارية لفت نظري، ومعه ركزت على مؤخرتها المكتنزة، شعرت برغبة ملامستها ناديتها، اقتربت من المكتب وسحبت الملف من يدها وأخذت اقلب أوراقه.

قلت: ما اسم هذا النوع من القماش.

كانت كفي وأصابعي تختبر سماكته، اقتربت أكثر فوصلت كفي لمؤخرتها كانت امرأة ناضجة رفعت ذراعيها ومدت أصابعها توثب جسدها بخفة صبيانية كشجرة زاهية، افتر ثغرها عن ابتسامة حميمة.

قالت: (وأنفاسها ورائحتها تملأ أعماقي) متوفر بالمشغل الذي تملكه أختي

لجم صوتها الرخيم لساني وحبس إحساس داخلي تدفقي، كنت في هذه اللحظة أنثى كانت تبحث عن حاجة فلما ظفرت بما أضاعتها، أخذت الملف من فوق المكتب، وهي تختفي شعرت أن فيها شيء خفي وفظيع، معه نسيت الوقت ليطل الحارس وقد فاجأه وجودي بالمكتب، لم أصرخ محتجة فلملمت أوراقها وغادرت المبنى، تلفت حولي لم أجد سيارتي ولم جد السائق.



العتبة

انقبض قلبها بعد سلب الأوهام الفاتنة شخصيتها، فعبرت عينيها سحابة حزن، تعرف كيف تسكن غضبه، في حين أنها بتهرّبها تثير غيظه؛ مع إدراكها كعبته سيعثر عليها متجاوزا أزمة النقص التي خلقها انكساره.



ولكن لا تسألوني

قال: قدومها لسنة تفرغ جامعي، بينما عرفت أنها مرافقة لوالدها القادم للعلاج على حساب الدولة، وإذا بها تلج المطعم مع زميل دراسة قال: حضورها سببه اخذ إذن ناشر كتاب في تخصصها لترجمته، قالت: ولأستعيد ذاكرتي.



الجافية

غرزت أصابعها في كوم الأوراق المبعثرة في ممر الحديقة، وهممت أخطأت باستسلامي للريبة بعدما حققت الهدف؛ ولما رأته يحمل كأسى الآيسكريم تلفتت حولها وقالت: لن استسلم لأي حالة مؤذية طالما أنا واثقة من حبه.



فيفوس

قارورة مشروب مغشوشة عثرت عليها دورية للشرطة في شنطة سيارته، فرضت زواجي به لأني كنت برفقته تلك الليلة، ثم دخل السجن ستة أشهر وتم فصله من عمله.

وفي لقاء عائلي سنوي قابلت من نحت أزميله جسدي، فغرقت في مشاهد شريط سينمائي لعشرين سنة سابقة فيها الريح بكل أفق؛ وتقدم قارورة المشروب ثمن للحظة فقد، في بعض المناسبات.

قال: (وأنا أغادر) أنت كما أنت!

قلت: غريتك الطويلة أغلقت منافذ الإحساس؟

لوح بكفه المعروقة، شعرت بوهنه والشيب يتخلل شعر رأسه وشاربه الكث؛ ابتسمت وأنا أجد قارورة المشروب بجواري على مقعد العربة، فأخرجت من حقيبة يدي الصغيرة قلم الروح.



الحارس

تلقت يرصد انتباهنا وهو يرشف اخر قطرة في كأس الشاي، وقد انتهت الحلقة المعادة من مسلسل درامي فكاهي يعرضه التلفزيون يعد خصيصا لشهر رمضان، وسكن رباعي البلوت لانشغال أحدهم باتصال هاتفي.

قال: هذه حكايتي انما نهايتها خلاف ما عرض، كانت برحمة الله في صالحني.

كل ما شاهدتم خلال نصف ساعة مررت به، باحت بعد عام من تعريفي على اسرة طالب بالمدرسة التي اعمل بها من كانت تتابع دروسه بأنها تحبني.

قالت: لكن حبي لك لم يكن يوما أقوى مما هو عليه الان.

وان صوتي يزرع السكينة في اعماقها لتتجاوز التعب، كنت امثل بالنسبة لها فقير منعزل اجتماعيا فقررت استعبادي، في العام الثالث ساهمت في تأييث شقة زواحي بعد أن فشلت في فسح خطوبتي ممن اختارتها امي لي، كما اختارت الألوان خطوة بخطوة، وتدخلت في اختيار خاتم الزواج ومركز خياطة الملابس.

لما شاهدت زوجتي انفجر بركان الغيرة، جاء اعترافها الذي أشعرتني فيه أني أستحق النبالة بسبب خصوصية المكان الذي ارتقيت اليه في حياتها، لأنها تسعى من أعماق الروح الفرحة بلوعة الآخريين ان تنمي في داخلي روح الانجاز.

ومعه في الشهر الثاني تغيرت حالتي النفسية ودب الشجار بيني وبين زوجتي، كانت وأنا أقدم لها التقرير اليومي اما عبر الهاتف أو وهي تجلس بجوارني في السيارة وكفها تربض على فخذي تدقق في التفاصيل، وكانت كجزء من حقيقة لا تنكر نهم لشيء اخر.

واشعر بفرحها عندما أخبرها ان زوجتي عند اهلها، وذات مساء وقد تناول النقاش هممت بضرب زوجتي، نفست عن غضبي بلكم مرآة مغسلة اليدين القابعة في زاوية الصالة فأدميت يدي وجرحت اصابعي وتناثر

الزجاج في حوض المغسلة وعلى البلاط، وأنا اتفقد الحالة اكتشفت لفافة سوداء مدسوسة بعناية في حفرة بالجدار.

جلست على أحد كرسي الصلاة واخذت أفك أربطة اللفافة اظافر وشعر وقطع مختلفة من قماش مقصوفة بعناية ومخاطة الى بعضها بخيط اسود وورقة عليها رسوم وخطوط، خفت واتصلت بزميل في المدرسة حضر وقام بجمع المتناثر؛ وأخذني الى منزل امام مسجد الحي الذي يسكن فيه.

اخذ الامام اللفافة وبعد فحصها قال: هذا عمل شيطاني

قلت: سحر

قال زميلي: اجل كانت امورك مرتبكه أخيرا وكنا نتحرج نكلمك

قال امام المسجد: امور بيتك . .

قاطعته: مترديه نفسيا لولى ان زوجتي قريبه كنت طلقته من ثاني اسبوع

وضع كفه على رأسي وتلى بعض آيات القرآن ثم نفث في وجهي، وقام بوضع اللفافة ومحتوياتها في اناء واشعل فيها النار ولما ترمدت سكب عليها الماء.

شعرت بسكينة وهدوء وشع نور بدد العتمة معه تجاوزت غابة الرماد، وطلب مني الانتقال من شقتي وان الأفضل مغادرة المدينة؛ فكان ذلك وها أنا العب البلوت معكم، وزوجتي تضع مولودها الثاني بين يدي امها.

1434 / 9 / 24



الفرانشيز

في نهاية اليوم الرابع للمؤتمر جاء جلوسه إلى طاولتي في مطعم الفندق الذي يحتضن لقاءنا السابع، والذي حضره للمرة الثالثة حيث يتم انعقاد المؤتمر كل عامين في المدينة التي تقوم الجامعة المستنصرية؛ والتي تم التوافق على دعوتها في اللقاء السابق.

قال: أنه الحضور الأول لي لتقاعد مندوب الإدارة التي اعلم بها.

وفي الخامسة عصرا وأنا أقف أمام باب المصعد.

قال: سوف أقوم بجولة خاصة وزيارة قريب يرقد في أحد المستشفيات جاء للعلاج على حساب الدولة.

ودس في كفي ورقة مطوية من مذكرات الفندق، تحمل رقم هاتفه النقال ورقم غرفته.

بعد إغفاءة لا أدري كيف طالت، كانت عقارب الساعة تشير إلى العاشرة ليلا، شعرت بالجوع والظماء فأخذت حماما بارد وبدلت ملابس، وأنا أتناول جهاز الهاتف النقال من على طاولة التلفزيون بالغرفة، تحت المذكرة ورقم الهاتف.

جاء العشاء والحديث الذي معه تجاوزنا جدل المؤتمر، وتباين الأعضاء السياسي وثقافة بعضهم المتدنية وهم يسلطون الضوء على تأثير هذه الكوارث على الإنسان؛ للتعرف وتحديد نقاط المشاركة على ضوء تخصصنا العلمي والمعرفي.

هنا مشترك بما حمله برنامج المؤتمر من نقاط أمطرناها تحليلا، وغدا اليوم الخامس تعقد الجلسة الختامية في العاشرة صباحا وتعلن المقررات ويصدر البيان الختامي وتعلن معه الجامعة المستنصرية ومدينتها لاحتضان اللقاء الثامن.

تجاوزنا الحديث واندمجنا في رسم خارطة لا علاقة لها بما تجمعنا له، من ثلاث قارات تشابهت مجموعة من دلها في مخاطر كوارث طبيعية.

أغمضت حواء عينيها؛ المشهد والألوان قطرات المطر تنهمر شلال ماء الفيضان يحملها إلى أماكن هجرتها، بعد انخراطها رغم انفها في حياة جديدة، كما فراشة اقتربت من اللهب بحثا عن الدفء فاحترقت.

تنبهت على جرس هاتف الغرفة، كان يرتدي ملابسه جلس على طرف الفراش.

قال: أسف لن احضر الجلسة الختامية.

دخلت الحمام وانسكب الماء على جسدي، فضلت استعمال المنشفة التي نشف بها جسده، ولما سعت لارتداء سروالي الأبيض الذي دسسته تحت المخدة فلم أجده، ولحت على جهاز التلفزيون لفافة صغيرة حوت آخر جديد لونه أحمر.

وأنا استعد للخروج من الغرفة إذ أذف موعد الجلسة الختامية، عثرت على الطاولة التي بجوار باب الغرفة، على كتاب عنوانه يناقش فقرة الجفاف وتلوث المياه، الفقرة التي لم نتوافق على طرق تجاوزها فتم ترحيلها للقاء القادم، وفوقه علبة صغيرة لما فتحتها لمع خاتم بفص من الزمرد الأخضر.

وأنا أتفحص الخاتم رن جرس هاتف الغرفة، معه دسست الكتاب في حقيبة يدي مع الخاتم، كانت سكرتيرة المؤتمر تطلب مني الحضور لمكتب السكرتارية لتوقيع الخضر بصفتي نائب الوفد، وهناك اخبرني أحد أعضاء الوفد سفر الرئيس بسبب اتصال من السفارة.

أعلن البيان وتحددت المدينة التي تستضيف اللقاء الثامن، موعد عودتنا كوفد بعد ثمان ساعات، شاركت بعض الأعضاء التسوق وفي الطائرة أخرجت الكتاب لتزجيه الوقت ومعه الخاتم الذي انتصب مشعا في أحد أصابع كفي اليسرى، في الصفحة الرابعة من الكتاب وجدت بخط حروفه صغيرة وحر اخضر كلمات ملتبسة (إلى الندى من وجدت الإنصات لها مفيدا لتذكر هذه اللحظة).

تذكرت إني لا أعرف اسمه والى أي وفد ينتمي، جاء صوت من يجلس بجواري من الوفد (أن التنظيم جيدا. ومحاور اللقاء مركزة. لأن نصف مواضيع الجدول مستقاة من مقترحاتنا) ثم أخذ يقلب البوم صور فوتوغرافية تم التقاطها للوفود، لما لحتته وضعت سبابتي عليه سائله مرافقي عنه، أغلق عينيه مفكرا ثم حدق في وزم شفثيه وهز رأسه بعدم المعرفة.

تحسست الخاتم متذكرة لون سروالي الداخلي فأغمضت عيني مستعيدة أحداث أربع وعشرين ساعة، ليتردد صدى إذاعة الطائرة بتأكيد ربط الأحزمة وإغلاق الهاتف النقال والأجهزة الالكترونية استعدادا للهبوط، فتحت هاتفي قبل إغلاقه فلم أجد رقمه وقلبت أوراق الكتاب فعثرت على مذكرة الفندق مطوية كان الرقم الذي بها رقم هاتفي وكذلك رقم غرفتي.

1434 / 8 / 10



فأر التجارب

في حفل عشاء خاص باستراحة شمال الرياض، تأكد مسعاي بأن أجتاح جسد زينب أستاذ علم النفس بالجامعة الأهلية، وهي تتألق ببساطتها كنجمة حفل أعضاء القسم من الجنسين بمظهرها وحديثها وقربها من الجميع، بعد أن استفزني استحوادها على وقت نائب مدير الجامعة الذي حضر لدقائق مجاملة لكبير اساتذة القسم المحتفل بأفراد عائلته القادمة من مصر للبقاء طيلة الصيف بسبب فصل دراسي صيفي؛ اعتمده مجلس ادارة الجامعة وفقا لرغبة مجموعة من الطلاب.

عند المغادرة لى البعض دعوتي للتوصيل في طريق عودتي، التقت نظراتي ببحثها عن زميلتها التي حضرت معها، تابعتها حتى عثرت عليها ثم التقينا عند الباب.

قلت: أتمنى توصيلك . . ثم !

فاجأها قولي المختصر المعلن امام من حولنا بما تحت السطور من بعد (ثم) فتوقفت عن الكلام مددت كفي مشيرا لسيارتي وقد وقف بجوارها البعض، لحقت بي وجلست في المقعد الأمامي عرفت أن زوجها مسافر في رحلة عمل منذ أيام، بعد ان اوصلت مرافقيننا وعدنا ادراجنا للعمارة التي نتشارك السكن في شققها، والتي تمتلكها الشركة التي أسستها الجامعة.

قلت: أُمي تقيم معي وهي الان عند أختي المريضة

طال وقوفها في المدخل تستعرض الصور واللوحات المعلقة، ثم جلست بعد ان خلعت عباءتها وحررت شعر رأسها من الوشاح الملتف حوله، جلست بجوارها واشعلت التلفزيون رائقها تتسرب الى زوايا المكان، وضعت كفي اليسرى على فخذها شيء فيها اهتز، قربت فمي من عنقها زارعا قبلة سريعة وقمت خشية ردة فعلها.

قالت: ليه وهي تمسد شعر رأسها

وقفت وهي تحديق في مددت ذراعي وطوقتها دسست وجهي في صدرها تقاسيم وجهها الهادئ ومكونات جسدها وقلق اللحظة وفرا خطوتنا التالية التي اكده استسلامها مما شجعتني على التماذي والتنقل من خطوة للأخرى، كانت وفق رضاها مساحة حرة في حديقة غناء بنسيمها وأريجها وموسيقى هادئة تنساب من مكان بعيد تشاركنا غيابنا.

وهي تستعد للمغادرة قالت: أشعر أنك صدتني وان كنت علميا أقمص دور الصياد.!

قلت: بل روحك اشعلت كل هواجس الانتظار فنصبت شباكي

قالت: وابنة العميد

قلت: مؤخرتها نقطة جذب

وهي تلتف حولها قالت: وانا

قلت: روايبك غنية بالحياة

وامام الباب وبعد عناق وقبله طويلة؛ قلت: هل تقدميني لها

وجاء هاتفها بعد مغرب اليوم الثالث؛ كانت كلمة وأحدة قالت: انتظرك

ارتديت أفضل ثيابي وتحلقت وتعطرت؛ فتح الباب زوجها الحاسب في الادارة المالية، التي هي من الأقسام التي أشرف عليها بصفتي مدير عام الشئون الادارية ومالية بالجامعة، عرفني على ضيوفه كان العميد وزوجته وابنه حسن وابنته سكينه ولأعرف اثناء الحديث انه شقيق الزوجة.

جاء جلوسي على طاولة العشاء بين زينب وسكينه، وجاء الأبن وزوجها قبالتة بينما العميد وزوجته عل طرفي الطاولة متقابلين، شعرت انها كانت تحت الطولة تمارس لعبتها مع الأبن الذي لمحت ارتبائه مما شجعتني على الحديث عن بعض المواقف الطريفة في العمل، ومع اندماجي كانت كفي تقبع بسكينه وهدوء بعض اللحظات على فخذ الفتاة التي ترتدي بنطلون جينز، مما يدفعها الى التحديق في فأتنبه اسحب كفي.

ونحن جلوس في الصالة أمام التلفزيون استأذن العميد فطلبت زينب بقاء سكينه وحسن وبعد تدخل الزوج بأنه سوف يوصلهم اذا اقتضى الأمر، ونحن الأربعة نعلق على المشاهد في التلفزيون ونحدث في لغط عن جوانب من اهتمامنا، رن هاتف الزوج وغادر مؤكداً عودته بعد نصف ساعة.

قالت زينب وهي توزع نظراتها بيني وبين سكينه: لما لا تفرج سكينه على مكتبك التي محتوياتها تتفق مع مولها ودراستها الجامعية.

قال حسن: فكرة انما في وقت آخر

وتواصل الحديث لترف سكينه اني اسكن ذات البناية، معها تشجعت فأمسكت بكفها وسحبته خلفي.

قالت: الا يوجد أحد

قلت: أمي مسافرة

ولما دخلنا غرفة المكتب اخذت تتفحص عناوين الكتب واشرطة الحاسب؛ كنت أقف بجوارها شارحا ومعلقا، ثم انحرك حولها ملامسا مؤخرتها ولم يقلقها التصاقني بجسدها ولما جلست خلف المكتب؛ مشعلا جهاز الحاسب اجلستها في حضني لتتابع الملفات وعناوين الأبحاث المخزنة وانفاسي تلفح عنقها وكفي الثانية تريض بسكون على فخذها.

خزنت مدونتها واستعرضت بعض صورها وصور زملائها بالجامعة وانها في السنة النهائية من أحد اقسام كلية التجارة، وهي تعيد عرض الصور طبعت قبلة على عنقها معها رن جرس الباب لما فتحتة كان اخيها دعوته للدخول فأعترت ولتأتي ومعها أحد الكتب.

ولما عادت امي كنت اختلس بعض الوقت لتجديد اللقاء بزينب في شقتها، وقت غياب زوجها في متابعته لأعماله خارج الرياض وقد استغل وظيفته بالجامعة كمحاسب في اعماله الخاصة، شيء فيها يتجدد عند كل لقاء وعطاؤها يخترق مسامي ومعها اصبحت طوع بناها، فغدوت وسيط ينفذ مطالبها ويسهل مشاريع زوجها.

في ليلة طلبت مني دعوتها للعشاء في مطعم عائلي فاخر حتى تعرفني على إحدى صديقاتها، كانت الصديقة إحدى منسوبات الجامعة طالبة ماجستير تنتمي لي بصلة قرابة من عائلة تقيم خارج الرياض، لفت نظري

تقارب الاثنتين وتبادلهن الحديث الهامس ومشاهدة رسائل الهاتف النقال، اختبرت دوري في اللقاء وأنا انهض من مقعدي بدعوى الذهاب للحمام ان انخيت على الضيفة وقبلت عنقها، معه لحت انفعال الأستاذة.

قلت: وأنا اغادر الشقة فاضية امي سافرت البارح !.

ولما عدت وجدت الترحيب فسلطنا طريقنا، في الصلاة وامام التلفزيون تواصل حديثنا ولأجد الاثنتين وقد التحمتا في عناق معه تأكد مثيليه الأستاذة ولما انهارتا امسكت بذراع الضيفة ولما وقفت طوقتها بذراعي وأنا ادفها عنوه للحظة لم تستطع مقاومتها مستبيحا تصدعها وانبهار الاستاذة.

لم يعد اسم الفتاة يتسلق حديثنا للشيء مجهول انسلخ وجودها ن عبثنا، وكلفت بمهمة فحص عقود اعضاء هيئة التدريس الجدد وبعض تخصصات العمل وقد تقدم البعض بالاستقالة فكان علي السفر للقاهرة؛ مما لفت ظري زوج الأستاذة ان اخته ترتب ذلك مع مكتب علاقات عامة ومركز ابحاث تشارك زوجها العميد فيه.

في المطار كانت الأم مع ابنتها في انتظاري وتابعا اكمال حجز جناح الفندق الذي تم الحجز فيه، بقيت الأبنة عند قسم الاستقبال وشاركني الأم المصعد مع الموظف الذي أرشدني للغرفة وعرفت منها بعض الترتيبات التي علي الاطلاع عليها في العاشرة من صباح الغد.

نبهني من النوم صوت الابنة وأنها مع سائق مكتب الأبحاث تنتظرني، طلبت منها الصعود لا أدري كيف خرجت الدعوة وعاتبني نفسي على تسرعني والماء ينهال على جسدي، وأنا أكمل ارتداء ملابسي كان الباب يقرع كانت الأبنة دعوتها للدخول حتى أكمل استعدادي، وعند باب الخروج تمهلتي حتى وقفت بجواري شابكت اصابع كفي بأصابعها ودفعتها الى الجدار وأنا امص شفثيها لم تقاوم حركتي المفاجئة وتذكرت السائق ابتعدت عنها ولحت ابتسامة صغيرة على وجهها وفي المصعد كانت كفها تعانق كفي ولم تطلقها حتى ركبنا السيارة.

ونحن مع اثنين من موظفي المكتب بعد عشاء اقامته لي زوجة العميد كنا نتفحص الملفات والأسماء.

قال حسن: وهو يرفع ملف إحدى المتقدمات أرجوكم قبولها.

قلت: من؟

قال: اخت زميلي وصديقي

قلت: وما علاقتك بها محولا استفزاز امه واثارته

قال: أنا أكره البنات

قلت: واخوها

قال: وهو يتوجس انفعال والدته التي سلطت نظرها عليه؛ يعني

قالت الأبنة: انا اجدع منه

في تنقلاتي بين السفارة ومكتب الخدمات العامة ومقابلة بعض المتقدمين في مركز الأبحاث؛ تقاسم الثلاثة الأم والأبنة والأبن الأدوار بمحاصرتي وتحديد تنقلاتي، حتى جرى تحديد الأسماء المختارة.

وفي ليلة سفر اختفى الجميع لم اهتم بالأمر وقد رتب الفندق الحجز وتأمين السيارة التي توصلني للمطار، لأجد الأستاذة منذ عشرة ايام ترقد في إحدى غرف العناية الركزة بمستشفى الشميسي، بعد ان دهنتها سيارة اثناء ترجلها من سيارة زميل في ساعة متأخرة من الليل م سيارة مسرعة امام باب العمارة.

في اليوم الرابع عشر انتقلت الى رحمة الله، وجرى دفنها في مقابر الرياض وكان وريثها الوحيد زوجها بعد احضاره ان لا اقارب لها سواه، وكل ما حصر ااثاث الشقة وبعض المراجع وجهاز حاسب بمكتبها والـف ريال عثر عليها في أحد ادراج غرفة النوم، ومع مطالب زوجها بالتحقيق ومساعدته لم يتوصل الجميع لشيء.

وخطر في ذهني اسم طالبة الماجستير والمحاضرة بقسم اخر في ذات الكلية، دعوتها للعشاء لمعرفة بعض المعلومات عن المتوفاة فكان العشاء في المطعم الذي تعارفنا فيه، عرفت انها تزوجت ابن خالتها وأن لديها ابن في الثالثة.

قلت: قد يكون ولدي

قالت: ثمرة زواجي، صحيح التقينا ذات يوم ولكن انت الان صديق واخ

قلت: كيف

قالت: وأنا اركض عبر السرايب عشرت على ذاتي

قلت: كانت تعشق جسديك

قالت: ضاحكه وأول زوج في حياتي

قلت: هب من خلقك

قالت: لما عرفت أنك فأر تجارب خشيت ان يصلني الورم فهربت

ونحن في الطريق حتى اوصلها للمكان الذي اخذتها منه، سألتني لما لم اتزوج ولا عرفت اسبابي اغرتني بأن عندها من تناسبني وتتمنى ان اوافق عليها وهي معلمة ارملة لديها ابن لم يتجاوز الثانية، وهي تقهقه بعد فتحها لباب السيارة قالت: لقد تحول رصيد الأستاذة المالي والعلمي كإرث لي حسب وصيتها واتفاقية بيننا اعتمدها البنك.



ثقافة

انفلت من بين الأصدقاء المحذقين معه في امتداد البحر، مقتحما الموج وهو يصرخ: الشمس غرقت سوف أنقذها. ولما تأخر في العودة، امتطى الأصدقاء سياراتهم مغادرين المكان وبقيت سيارته تنتظر عودته.



إفراج

بعد خمس سنوات من الحجز، تم الافراج عنهم منهم المعاق الجسدي ومنهم المعاق الفكري وجرى توزيعهم عشوائيا في مدن مختلفة، مع انبلاج الضحى اكتشف أنه مع عربته المتحركة في الشارع، الناس يتحركون والشمس تشكل ظله، تلفت ونهض عرف كيف يمشي، ولما نزل من فوق الرصيف دهسته سيارة مسرعة.

1434 / 10 / 24



خديعة

نزع: وراء قمم الأحلام التي تشاركه مجلسه المنفرد بالمقهى، مع دخان الجراك وهو يحصي عتبات صعوده ودرجات تدحرجه الى هاوية العمر، وقد اغلق الواقع منافذ الاحساس، لم يحضر حفل تكريم المتقاعدين من العمل فهو منهم في ادارته الحكومية، همهم: وصديق عمره يشاركه هذه الليلة الشتائية الصاخبة بالرياح والمطر، مز دخان الجراك: كنت فراشة جذبها النور الحارق فاحتزقت ولما كنست الريح ما تبقى من يباس تناثرت في الفضاء.

1434 / 11 / 27



زهرة الدفلى

جاء اتصالها وأنا في مكة المكرمة لمناسبة خاصة، صوتها يرشح الما وهي تجهش بالبكاء فأحداهن اتصلت بها وأهانتها.

بعد انتهاء المناسبة قررت زيارتها لمواساتها، لما وصلت الشارع الذي به منزلها انتظرت في سيارتي مفكرا، انه اللقاء الأول بعد تواصل صوتي تجاوز عامه الثالث.

توقفت عربة أجره ترجلت من توهمتها هي وولجت بابا كان موارد، قائد العربة الأسود وقف بمحاذاتي لوح بكفه مبتسما وأنطلق، تذكرت أبي أعرفه ولكن غاب عني اسمه.

1434 / 12 / 4



يوم جمعة

هي من سعت لطلب الطلاق بعد زواج اربعة أعوام، لم تجد فيها الهدوء الذي معها فقدت ظلها، اذ انه لا يمتلك اطلاقا تلك البهجة المفعمة بالرقة والحنو التي تلتصق في عينيه، وعادت لغرفتها في منزل والدها في الشهر الخامس تذكرت حبها الأول فأخذت تقف خلف ستارة نافذة غرفتها ليلا تتأمل الفضاء.

في نهاية الشهر العاشر لمحت عبر العتمة يخرج من باب المنزل المقبل، قبل ان يمتطي عربته حدق في النافذة، رصدته كان يأتي كل يوم جمعة بعد اذان المغرب لزيارة اسرته ومع اذان العشاء يغادر وفي الحالتين يحدق في النافذة، عليها ان تعبر هذا الخوف الساكن في داخلها من دون أي عون.

تعطرت وارتدت أجمل ملابسها، اخبرت امها انها مدعوة لمناسبة تقيمها زميلتها في العمل بعد المغرب، خرجت من الباب لخصها وهو يهم بمغادرة العربة تمشي على الرصيف، شيء فيه اشتعل حرك العربة ولما حاذها توقف، لما استقرت في المقعد لم يكن هو، ولما تجاوز الشارع لم تكن هي، تأملته وشعرت بالم حاد يخرقها.

عبرت لحظة صمت كأنه لم يجد ما يقول، فجأة وجهه أشرق وصوته الهامس تدفق مولدا قوة هائلة، معه الأحلام كانت تنسج خيط هبات حميمية لم تعد تذكر، فوجدت في ذلك شيء من الرضا.

1434 / 11 / 26



الخلود

بينما أقوم بجمع مراجع البحث الذي أعده لنيل درجة الماجستير، وقع بين يدي كتابا من إعداد باحثه في مجال مساند أعدته لمنسوبي المركز العلمي الذي تعمل به، مما حدا بي إلى الاتصال بالمركز بحثا عن بعض مراجع دراستي ولم يفدني الاتصال الهاتفي، فزرت المركز وبعد نقاش مع أمين عام المركز؛ عرفت إن الباحثة من أعضاء هيئة التدريب فزودته برقم هاتفي وحاجتي لعلها تساعدني.

بعد أيام جاء اتصالها وأمهلتني أسبوعا للبحث، وتجاوزنا أيام الأسبوع فاتصلت بها كانت مريضة وترقد بالمستشفى، زرتها وشعرت إنها لم تتوقع ذلك؛ قدمت لها باقة ورد وانتظرت تجاوزها الحالة المرضية.

كان اللقاء الأول بيننا في صالة استقبال فندق الشيراتون وبرفقتها آخر، لم أسعى لمعرفته وان ذكرت اسمه، قدمت خطة العمل والمراجع والمصادر مؤشرا فيها على المتوفر وعرفتها إنني ابحث عن الباقي، تكرر لقاء الفندق حتى اكتملت مراجعي ومصادري؛ وأخذت اكتب بحثي فأبدت استعدادها للطباعة والمساهمة في المراجعة والتنسيق.

اندجت أفكارنا والتقت خواطرنا فقد كان البحث أحد مصادر عملها، ومع تعدد اللقاءات عرفت أنها من مؤسسي المركز، والآن تخطط للمرحلة القادمة في حياتها، بشرتها سمراء مائلة للبياض وجسدها الرشيق يحمل بمكوناته طاقة تتجاوز الحدود، موفراً تقارب روحي خلق شراكة تناص للعمل الممزوج بالحب؛ في حلبة غنية بمادة تشابكت أطرافها.

وفي مساء يوم دعيتني لزيارتها، فتحت الباب ووجدت أوراقا متناثرة فوق مكتبها، ولا ادري لما وقفت خلف الكرسي الذي تجلس عليه متابعاً نقاط ملاحظاتها على صفحات البحث في الحاسب.

ولما التفتت مواصلة النقاش كانت كفي تدلك كتفيها، تبسمت ومع سمارها وشعر رأسها المنساب اكتشفت مشاعر اجتاحتني، ولطبيعتها الهادئة انخبت وزرعت قبلة طويلة على جبينها أغمضت عينيها متجمدة ولما

أحسست ببرودها توقفت، نهضت من مقعدها واختفت لما لحظت تأخرها وجدتها تجلس على أحد كراسي طاولة طعام صغيرة بالمطبخ.

قلت: أسف

قالت: كانت . . (ولم تكمل)

اكتمل البحث وحصلت على الدرجة وافتقدتها في قاعة المناقشة، أسرعرت إلى السكن كانت هناك أخرى لم تستوعب كلامي واعتبرتني فاقداً للوعي، في الصباح كنت في المركز فبارك الموظف حصولي على الدرجة، ولما طرحت اسمها اخذ يستفسر عن سبب بحثي عنها.

قلت: هي من ساعدني في تحقيق النتائج. . ! صمت وفتح درج ملاصق لمكتبه.

قال: هي من ساهم في تأسيس المركز لكن سافرت منذ عشر سنوات وكنا على تواصل حتى توفت قبل أربعة أعوام.

قلت (بصوت هامس وأنا أحدق في صورتها): . . كانت معي حتى اعتمد المشرف رسالتي

قال: من

لم أرد تركت نسخة من الرسالة وصورة من وثيقة الدرجة على المكتب وأخذت الصورة، غادرت الغرفة وفي باحة المركز شعرت بنسمة تحمل عطرها، تلفت حولي لمحت أمين المركز يقف في نافذة غرفته؛ ركبت سيارتي وأنا أترجل أمام باب المنزل لمحت على المقعد الخلفي وردة صفراء مربوطة بشرائط ازرق.



البير المضلمة

خمس سنوات لم يشغل تفكيري سوى تطوير خبرتي العملية، وتنمية رصيدي المالي حتى أجد الاستقرار الذي فقدته؛ انتقلت من أقصى الغرب إلى العاصمة فكانت الإعلانات المبوبة اهتمامي وشهادة الثانوية التجارية مؤهلي منذ ثمان سنوات، حتى استقر تجوالي في هذه الشركة المتخصصة في المواد الغذائية.

كانت السنة الأولى تجربة مرهقة لإثبات الوجود، والسنة الثانية انطباع طيب بأني آلة حاسبة لا تخطيء في جدول الضرب، والسنة الثالثة حملت حقيبة المدير العام في مؤتمر اقتصادي دولي، رعته الغرفة التجارية الصناعية فكانت الورقة التي أعددتها وألقاها مدار نقاش؛ وفي السنة الرابعة عرف الجميع إني مدير مكتب صاحب الشركة، وفي السنة الخامسة مع رغبة مدير الشركة وصاحبها تحولت إلى مساهمة مغلقة، تتوزع أسهمها على صاحب الشركة وزوجته وابنه المغترب وبنتيه، واثان هم أشقاؤه وواحدة هي أخته من أبيه وأربعة ينتمون للعائلة وأربعة من موظفيها أنا أحدهم بنسب متفاوتة.

بعد اعتماد الشراكة واعتماده من وزارة التجارة، أصبحت المدير الإداري والمالي، وأصبحت الابنة البكر القادمة من أمريكا عضو مجلس الإدارة الحماسي المدير التنفيذي، في الشهر العاشر من السنة السادسة لي والسنة الأولى للشركة بعد تحولها، أمضيت أربع ساعات مع المدير التنفيذي بمكتبها الخاص بمنزل الأسرة نراجع التقرير الأول للشركة.

وهي بعباءتها الحريرية السوداء الموشاة بخيوط ملونة والمخاط كما الثوب الرجالي، تقف بجواري عند الباب مودعة، أنفاسها تلهب أعماقي مدغدغة مطالب كبجها خوف أن تكون مدمرة معتذرة عن تأخرنا في المراجعة، عانس تجاوزت الأربعين كل جزء فيها يحتاج إلى ترميم.

بعد اعتماد التقرير من الجمعية العمومية وتصديق بيانات الميزانية، دعوتها للعشاء لم أحدد السبب وان تناقشنا في أمور مختلفة، وفي التاسعة ليلاً كنا في غرفة بالدور الأول من استراحة طريق صحراوية تبعد عن الرياض أكثر من مأتي كيلو متر شرقاً.

وقفت في نافذة الغرفة تتأمل الفضاء، السماء تتوهج نجومها والطريق تذكرنا به أبواق السيارات والنور الخاطف العابر وبأننا خارج المكان، قرع نادل مقهى الاستراحة الباب لأتناول منه الشاي وقناني الماء، أوصدت الباب ووقفت بجوارها أصابعي تمطر جسدها بملامسات متقطعة قامت بحركة تفلت واهنة، تلاشت الكلمات وادلهم صمت تام ونحن نغطس في بحيرة من العرق.

كنت أرمم جسدا أنهكه النسيان وجمد الصداً مفاصله وطمر الرمل آباره، ولما سرى الري في شرايينه تفتحت المسام وعبق أريج الزهر، ندت عنه تنهده وكأني بها استعادت رشدها فالتعن عينها بومضة حياة.

سرت ابتسامة خجلا على وجهها الذي شع نوره، ترجلت من السيارة أمام باب المنزل، انتظرت حتى دخلت ولوحت بكفها قبل غلق الباب.

شعرت وأنا أقود سيارتي في الشوارع الخالية، بالانكسار وأنا اردد (ما هو حسن يغري على الخطأ) وإني دخلت الغابة التي تزورني بين وقت وآخر في حلم يتكرر، كنت اركض حتى تتقطع أنفاسي ثم أسقط في أعماق بئر لا قرار له تحوطني الظلمة وعواء ذئاب، ونباح كلاب وعويل رضيع فأتنبه من نومي وقد كساني العرق وجف حلقي.

الظلام الخوف واليتم والطريق يتناول أمامي، من أقابل منشغل بأمره وغير مبالي بما أنا فيه من هم، أخذت الأبواب تغلق في وجهي للمرة الثانية، وأن علي الرحيل في بحشي عن ذاتي إلى حيث لا ادري، حتى أتخلص من الغابة السوداء والبئر المظلمة.



البحيم

صدمني رفضه مناقشة التقرير الذي أعدده، في المقهى، وأنا أتابع مباراة كرة قدم في دوري كأس أوروبا وحيداً مع دخان الشيشة، جاءت رسالة عبر هاتفي النقال من رئيس القسم، بأن مديرنا مات.



حلمس

استفزني حزنه فمنحته جسدي حتى يجد إجابة على أسئلته الحائرة، اعرف أن ذلك خطأ إنما تجاوزت معه الإثم.

في العاشرة ليلاً بعد حمام طويل واسترخاء لم يفسر قلقي، وأثناء متابعتي لملاحظات رصدها أثناء عملي الصباحي بمكتبي المنزلي.

وجدت مغلفاً بداخله رسالة وداع من زوجي وفيها إعلانه تطليقي، اتصلت على هاتفه النقال فوجدته مغلقاً.



تفحم

بعدها فقد وجوده باح انه لم يصل لهدفه، لوحث له بكفها وهي تجلس معهم تناقش الجديد، لم تدعه ولم تنهض لتوديعه كما هي العادة، غادر المبنى سار في الشوارع التي أفرغها الشتاء من المارة، تنبه أن ظله لا يسير معه.



عُمرَ

إنني ذاهبة ولبست عباءتها، اليوم جاءت تميز حزنها عن الباقين، لما رن جرس هاتفها قالت: جاء، وهي تفتح باب السيارة همست انه ابنك، فتذكرت أنها قالت: (حينما لا يلوث الظل خطواتنا نميز هلت الليل) واختفت.



خبيبة

تدفق الدم في الشرايين فتبللت بالعرق كفي، كانت الطالبة التي تستجدي المغفرة في غرفة مديرة المدرسة التي استدعتني كمشرفة تربوية زائرة للاطلاع، ابنة رفيق نزع المراهقة.

عرفت إنها تقيم وإخوتها الثلاثة في منزل جدها، وأن والدها مات في حادث سير منذ خمس سنوات.

صمت المديرة رابني؛ لما خرجت الطالبة من الغرفة قالت المديرة: كان والدها زوجي في زمن تجاوزته.



دعوة عجوز

لما شاهدها بعد عشرة أعوام تتحدث عبر شاشة التلفزيون، عرف إنها فقدت سطوتها، وتسعى بخروجها الجديد لقنص فريستها.

تذكر بعد تواصل هاتفي تجاوز صدفة التعارف، يوم لقاء غريب بشاليه في منتزه على شاطئ البحر الأحمر بجده.

ولما أحضرت في الليلة الثانية أختها الأكثر بهاء العشاء، وشاركت في مز الشيشة والسهر حتى انبلاج نور الصباح شعر بالبؤس، فبيت الهرب.



تداعيات أفنى تصالحت مع جسدها

بعد أربعة أعوام على تخرجي من الجامعة، جاء التوظيف معلمة بالمرحلة المتوسطة بمدينة صغيرة على البحر الأحمر، لم يسعى والدي لمساعدتي مع أنني ابنته المدللة والمختارة في نظره.

تقدمت لوزارة الخدمة المدنية، وتابعت تحفيز أوراق التقديم حتى جاء اسمي مع مجموعة من المعينات وأمامه المرحلة الدراسية واسم المكان.

قالت عمتي: تزوجي حيدر. !.

تبسم والدي، حيدر كما اعرف وهذا كل ما أعرفه عنه؛ يصغريني بخمس سنوات وأعرف عنه إذا جاء اسمه في اللقاء العائلي انه صاحب طقوس خاصة.

بعد شهر من الزواج وخمسة أيام من مباشرة العمل وأربع ليالٍ على إكمال تأثيث الشقة المستأجرة، طلبت منه أن يقوم بدوره كزوج.

في العام الثاني تم تكليفي بالعمل كمساعدة لمديرة المدرسة، وقد سقط اسمي من كشوف المنقولات، في الأسبوع الأخير من الفصل الدراسي الثاني، طلبت مني مديرة المدرسة التأخر بضعة أيام لحضور حفل زواجها.

جاء زواج مديرة المدرسة بسيطاً ومبهراً، النساء بفناء المنزل والرجال في مزرعة والدها، في العاشرة ليلاً جاء العريس وأخذها، وقد خلى الفناء من الحضور والمنزل من الضيوف، جلست على أحد مقاعد الصالة بحثاً عن الراحة والتفكير بالمغادرة.

قال: (كان والدها وهو يقف في المدخل) لما لا تنامين هنا . . !.

في داخلي انبثق ضوء وتداعت صور لا أدري متى كانت وكيف تشكلت؟ فدلني لبابٍ موارب واختفى، أغلقت الباب وتمددت في الفراش الضوء يرسم معالم الغرفة، لأتنبه على قرع خفيف جلست، وانفتح الباب جاء بثوبه الأبيض الفضفاض وجناحيه الأبيضين وشعره الأبيض الناعم والمتطاير، والنور يشع من وجهه، كان الروح القدس وكنت مريم البتول.

في نهاية العام الثالث عدت حسب بيان الحركة مع المعلمات المنقولات للرياض، حيدر بقي لمواصلة العمل مع الشركة التي تنفذ أحد المشاريع الحكومية حسب عقد مدته خمسة أعوام؛ فتم تجديد عقد الشقة المستأجرة لمدة عامين طلب مني تسديدها.

بعد حصول ابني على الثانوية جرى إدراجه في قائمة المتبعثين للدراسة الجامعية في أمريكا لما أكمل البكالوريوس قرر البقاء للماجستير والدكتوراه، معها تم إيقاف صرف رواتبه كمتبعث فلم يبال.
قال: انه يرغب بالزواج من زميلته.

لم يذكر اسمها ولكن هي شاركته إعداد بحث معه قرر مجلس الجامعة قبول مواصلة الدراسة، وقد سمحت له بالعمل داخل المكتبة براتب يقدر بمعدل ساعات العمل. وهنا تذكرت حيدر الذي اختفى بعد عودتي للرياض، إثر لقاء مع رئيسه المباشر أثناء العمل في المدينة الصغيرة بيهو أحد الفنادق، جاء اللقاء بعد عشر سنوات غياب وانقطاع أخبار حيدر الذي أكمل تسع سنوات.

قال: لما جاء باحثا عن عمل شعرت انه الجزء الذي فقدته في اغترابي، كان يبحث عن الأمان فلما منحني الحب منحته رعايتي، في نهاية العام الأول وأثناء إجازتي سافر معي، وهنا تحققت مشاعرنا التحمت أكثر.
قلت: لم اشعر بذلك. !

قال: هو توافق جاء من صالحنا كما جاء في صالحك وانتقالك زاد من مساحة مصالحنا، وانتهاء عقد الشركة أربك حياتنا في العام الثالث اختفى.

وهو ينهض مودعا قال: تقاعدت واليوم حصلت على موافقة من سفارة أوربية للسياحة والإقامة.

تابعته بنظري حتى انغلق عليه باب المصعد.

الثالثة

المقترح جاء من الثالثة حسب ترتيب المباشرة بالمدرسة النائية، وقد يأسن من النقل إلى المدن التي ينتمين لها، مع بداية العام الرابع بقرية غارقة في الرمال، يشعل ظلمة ليلها فراشات فسفورية؛ وهديل حمام بري سكن أسطح المنازل وأغصان الأشجار.

جاء السكن في منزل من دور وأحد في مدينة بدو صغيرة، على طريق الرياض الطائف لكل وأحده غرفة وصالة جلوس، لا يتجاوز الطريق الترابي المهد المؤدي للقرية المستظلة بجبال تاريخية تعصف في مغاراتها الرياح، بها مزارع متناثرة وأبار مسكونة بالجن، والمدرسة الكيلووات الخمسين.

المبنى المستأجر بالمدينة الصغيرة يملكه شيخ القرية، ومبنى المدرسة بالقرية يملكه شيخ القرية، إضافة إلى محطة وقود وبقاله في المدينة الصغيرة ومزرعة وزربية غنم وقطيع من الجمال في القرية.

تشاركن في شراء سيارة جديدة بدلاً من المتهالكة التي يقودها سائق آسيوي يعمل بمحطة البترول يملكها صاحب المنزل استأجره لمهامهم الخاصة، ثم تشاركنا في العام الثاني في شراء المنزل المستأجر لما عرضه مالكة للبيع حتى يزوج ابنته.

لم يحضرن خادمة للنظافة والطبخ، كما لم يستعجلن في نهاية العام الدراسي الثاني الحصول على خلو طرف من مديرة المدرسة، في المدرسة يقمن بواجباتهن التربوية والتعليمية، وفي المنزل يمارسن حقهن في الحياة كما فرضته الحالة التي جمعهم القدر فيها.

وتشاركن في منتصف الأسبوع الثاني من بداية الفصل الدراسي الأول من العام الثالث، في تأسيس مركز للخدمات الطلابية، باسم زوج الثالثة الذي جاء ليقود السيارة ويساعدهن على تأمين طلباتهن، معه تم إضافة غرفة بباين الأول يطل على الصالة والثاني على فناء المنزل الأمامي.

وفي الأسبوع الأول من الفصل الدراسي الثاني، وكل وأحده تعد كشوف طالبات فصلها ووسائل تحضير الدروس، ثم متابعة مسلسل تركي في التلفزيون يعرض في الثامنة ليلاً، وزوج الثالثة، يتوقع انه أغلق مركز الخدمات والآن يتناول العشاء في مطعم مسافرين بالمدينة، قبل حضوره.

بعد انتهاء حلقة المسلسل التركي وقبل انطلاق مسلسل كوري جديد، جاء اقتراح الثالثة مشاركتها في زوجها، وقد تشاركن في كل شيء حميم وودي، منذ اليوم الأول لوجودهن في الغربية.

رفضن ولكن مع الوقت والثلاث في صالة الجلوس يتابعن التلفزيون، وقد فرغن من تصحيح الواجبات المدرسية، ابتسمت الثالثة وهي ترى رفيقتها في هذه الليلة تعاقبن دخول غرفة نومها.



وشم

لما شاهدت زميلتها في العمل الوشم الجديد الذي على بطنها، قالت: لقد رسمته على ذراعي من أجله منذ سنتين، وكنت انتظر دورك يحل بقلق.



ممتلة

لم يكن زوجها الذي ينتظرها عند باب العمارة، فقد كان زوج إحدى الحاضرات جاء خروجها مع قدومها، في لقاء نهاية الأسبوع التالي وهن يتابعن (يوتيوب) جديد، كانت هي تتخلص من عباءتها وغطاء وجهها قبل ركوب السيارة، صوره حارس العمارة.



سمكة

استيقظت على جرس هاتفها النقال، جاء صوته ينتظرها في مركز خدمات الطلاب الذي يملكه، لأخذ البحث الذي طلبت من المركز إعداده، كانت ترتدي بيجامة قطنية من قطعتين وتملك جسدا نحيل لافت للانتباه.

القميص يستر صدرها الصغير المسطح وجزء من بطنها الضامر، والسروال في حجم ورقة التوت. وجهت السائق للمركز مدت كفها عبر نافذة السيارة لتتناول الأوراق؛ تلفت حوله وطبع قبلة على ظهر يدها.

ابتسمت وعرف أن زوجها مسافر، وان ابنها في رحلة مدرسية، اتفقا على تناول الغداء في مطعم اعتادا، ركب بجوار السائق.



فنجن

لما لوح لها بكفه لم تتوقف، أوقف السيارة في مواقف المركز التجاري، وجدها تنتظره بالمقهى، عندما خلص من شرح سبب تأخره، تنبه والنادل يطلب قيمة القهوة، أن لا أحد يجلس معه.



إشراق

توقفت عن السؤال عن والدها الغائب، ولما اجتازت الثانوية وفي قمة النشوة، أرتها والدتها صورة والدها،
كان سائق الحافلة التي نقلها للمدرسة.



فخامة

بابتسامة منهكة تناولت أجزتها وغادرت الغرفة، وهي تتركب السيارة أخرجت من فتحة صدرها النقود،
وسلمتها للسائق الذي لم ينبس بكلمة.



اتصال

كررت ونحن نتناقش في بهو المركز الثقافي، (أنا بخير ولا ينقصني شيء) ثم انطلقت لطاولة المشروبات، وأنا في ساحة مواقف السيارات اعترضتني سيارة سوداء فارهة.

رن الهاتف وأنا افتح باب غرفتي بالفندق

قالت المتحدثه: هل اختطفتك.!

قلت: من.!

لما عاودت الاتصال بالرقم المجهول؛ كان الهاتف مغلقاً.



اللفافة

شاركته اختيار هدية مناسبة لابنه المتخرج حديثا من الجامعة، والبائع يلف الهدية بأوراق الزينة والرباط الملون الذي اخترته، دعاني لفنجان قهوة في المقهى المقابل، شعرت أنه يسعى للمزيد من لقاء جاء مصادفة، في أحد محلات مركز تجاري عج بالمرتادين، كما انشغلت زواياه بأحاديث لا حدود لها.

عبر غطاء وجهي الشفاف وعباءتي الثقيلة، رحبت بدعوته إيصالي للمنزل، نهض واستلم لفافة الهدية، سرنا متجاورين لما جلست في المقعد الأمامي، فتح بابه ووضع اللفافة بهدوء على المقعد الخلفي.

استوعبت الصورة التي أخذت ملاحظتها تبرز، شعرت بكفه تربض فوق فخذي وأنامله تتحسس ركبتي، أوقف السيارة بمحاذاة باب صغير وجاني، من سور بناية اعرفها فتح باب السيارة لي، وقبل أن أترجل اتجه للباب الصغير.

لما دخلت؛ المكان غرفة فسيحة جدرانها بيضاء، في زاوية ثلاثة مقاعد وطاولة، وفي زاوية مطبخ خدمات صغير مكشوف، خلف المقاعد رف كتب ودولاب فيه تلفزيون.

صدمني لون باب موارد اتجهت نحوه، لمحته اللحظة جاءت وفق تجربته وقبولي، نهني صوت يستعجل حضوري، تلفت حولي غادرت الفراش.

ونحن نتحلق حول طاولة الأكل، لمحت اللفافة تقبع فوق دولاب الصحون والملاعق، أمي أبي أختي التوأم أخواني الثلاثة والجميع يشغل تناوله للغداء بخصام وأحداث يومه، تركت صحنى سحبت اللفافة وأخذت أفك طوقها.



الميت

فتح باب الشقة التي تسكنها في البناية المستأجرة من الشركة التي تعمل بها، فوجدها نائمة في الفراش
وبجوارها صديقها الجديد، وضع مسدسه المجهز بكاتم الصوت على صدغها.



عناصر

تكاملت كل عناصر اللحظة الرغبة والتوافق؛ فكان تدفق العسل الذي تسابقنا في لعقه، ولما لفنا جفاف الوقت جاء الوداع.



أدم التعس

جاء اتصاله يسأل عن مقر صالة حفل الزواج، حتى يستأجر شقة مفروشة قريبة لمعرفته بتباين الوقت، بين
عشاء الرجال وعشاء النساء،

فدعوته للسكن في شقتي توفيراً وحتى يكون اللقاء أطول قبل عودته، ولما اتصلت زوجته ونحن في المقهى مع
ثلة من الأصدقاء، اتجهنا لقاعة الزواج.

وكانت الصدمة عندما التقت نظراتي بنظراتها في مرآة السيارة، كانت زوجة صديقي إحدى ثلاث سيدات
شاركننا حفل خاص منذ عشرة أيام.

1435 - 4 - 27



حواء التفاحة

بعد نصف عام من الاغتراب، ها أنا وفي سيارة أجرة برفقة أخت زوج أمي وأربعة بينهم امرأة في طريقنا من الرياض إلى الطائف، الساعة الخامسة عصرا وبعد اجتياز أربعمئة كيلو من الطريق نتوقف في استراحة مسافرين.

المرأة اقتربت من مرافقتي ولمعرفتي بالطريق فقد اخترت غرفة خلفية تؤجر للعائلات للثنتين ولما اطمأنت على دخولهن وجدت والد المرأة يقف في الفراغ المحيط بالمكان، عرفني بنفسه واخترنا كرسيين في جانب المقهى طلب شيشة جراك وبرد شاي لم يهتم بوجودي.

ولما اشتهم رائحة الشواء سألت: هل نتعشى.

طلبت من القهوجي براد شاي وقنيتي ماء وقمت بشراء فطائر كرسون وبسكويت من بقاله المقهى وحملت الجميع إلى الغرفة التي بها مرافقتي، لم أجد لها ووجدت المرأة تناولت الأشياء التي احمل ودعتني للجلوس مستفسرة عن أجرة الغرفة وثمان المشتريات، الهدوء الذي تسرب إلى داخلي سببه جمالها ورقة صوتها وخصلة شعر غطت جزء من جبينها.

وهي منشغلة بإخراج النقود من حقيبتها اليدوية غادرت الغرفة والباب يفتح ومرافقتي تقف تفسر الحالة؛ أعلن السائق تأخر انطلاقنا بسبب إبلاغ أشاعه امن الطريق بمنع السير لمدة ساعة بسبب قافلة من السيارات العسكرية على وشك اجتياز النقطة التي نحن فيها لم يطل انتظارنا رتل من سيارات النقل تجاوز المائة شاحنة تتقاطر أمامنا ولما اختفى كانت العتمة تتلبس المكان والطريق.

في اليوم الرابع وأنا استعد للعودة للرياض وبينما كنت بعد العشاء متمدداً في غرفتي بسطح الدار فتح الباب كانت أخت زوج أمي تركت الباب مشرعا، وجلست على طرف الفراش تحدثت كثيرا حتى ابلغ رسائلها لابنها.

نهضت من المرقد وقفت قبالتها منصتنا ثم أغلقت الباب بالمفتاح، اخترقت حديثها وتغلغلت في ثنايا جسدها لم تقاوم؛ لا أدري كم من الوقت استغرقنا صحوت على صوت أمي تستعجلني على القيام حتى يوصلني أخي لموقف الرياض.

1435 - 5 - 12



قوس قزح

تسرب الوهم إلى أعماقها، بأني على علاقة بزوجة أخيها زميلي في العمل، وتوطن هذا الوهم كسبح بعد أن علمت إن تدخلني كان أيقونة نقل وظيفتها إلى المكان الذي وجدت ذاتها فيه.

لم أحاول تبديد الوهم ولم استثمره، إنما أزعجني انفعال زميلي الزائد ومحاولته هدم كل اقتراح أقدمه في اجتماع إدارتنا الشهري.

وبعد عام طلق زميلي زوجته واستقال من الوظيفة بعد فشله في الحصول على نقل إلى إدارة أخرى، ثم غادر الرياض لمكان مجهول.

1435 - 5 - 12



الشمعدان

بعد لقاء صحفي نشر في جريدة يومية، جاء اتصالها أخذت تنبش صندوق الذاكرة باحثة عن مواقف ولحظات تجاورتها، ثم ختمت اتصالها بأن الصحفية كما هي ابنتها أنا أيضا زارع بذرتها.
وفي معرض الرياض للكتاب جاءت عدت وقفات، وكانت صاحبة اللقاء في الكوكبة، وأنا أوقع نسخ كتابي الجديد همست وهي تتناول نسختها هذه أومي.

1435 – 5 – 12



العافر

بعد غياب تجاوز السنوات الثلاث، عدت لغرفتي في منزل والدي، وبعد نصف عام من الاستقرار في العمل كموظف حكومي بدخل ثابت، استسلمت لطلب والدي بأن أتزوج فأخذت تبحث عن شريكة العمر.

وبعد عشاء وأنا في غرفتي استعد للخروج، دخلت فيها شيء أمطري بالعطر والنشوة، كما حلقت معه في فضاء حلم قديم لم يتحقق.

ووالدي تعلن أسم شريكة العمر، أخبرني أن جارتنا منذ ربع قرن، رحلت مع زوجها حامله همومها، ومعه جاء ساكن جديد في المنزل المقابل.

وزوجتي في منزل أسرتها مع قدوم ابني الأول، والثاني بعد فاطمة ذات السنوات الأربع، دخل مكنتي من قالت أعماقي أني أعرفه، وأن حمل حديثه معلومات تؤكد أننا نلتقي لأول مرة.

غادر المكتب بين علامات استفهام زرعها من يشاركني الغرفة من الموظفين، تاركا ملفا فيه أشياء تخصني.

وأنا اجلس في سيارتي القابعة في فناء مبنى إدارتي بعد صلاة الظهر، فتحت الملف كانت به رسالة اعتذار لم يوقعها صاحبها، وصك شرعي بموجبه أصبح المنزل المقابل لمنزل والدي ملكي.

1435 / 5 / 30



إحراق

على غير العادة؛ طلبت أختي وأنا أهم بمغادرة المنزل، بعد تناولي العشاء معها ومع والدتي إيصال مذكرة جامعية لزميلتها، التي اعتدت توصيلها بين وقت وآخر مع شقيقتي للجامعة.

لما فتحت الباب دعيتي للدخول، الهدوء يخيم على الدار والبهجة تطل من وجهها، وشيء مرتبك في داخلي أعاد ترتيبه حديثها، ثم تناثرها كما فراشات فسفورية.

في الصباح وأنا استعد للخروج إلى عملي، جاءت أختي تتفحصني طارحة بعض الأسئلة بحثاً عن جواب، أدركت أنها تعرفه فلم أسألها عن إيصالها للجامعة، ولم أعرف كيف وصلت للمكتب قبل زملائي.

1435 / 5 / 30



حكاية نرجس

(إهداء للشاعر سعدي يوسف)

قالت شهر زاد:

في الليلة الثانية بعد الألف

نرجس فتاة رومية

شاركت جيش الروم أحد غزواته للخدمة والترفيه

وكان أسرها وبيعها جارية في بغداد

مولها أهداها لأخيه المقيم في سامراء

وفي السوق التقت أحد أفراد جيش الروم المنكسر

يعمل في دكان قماش

لما توفي سيدها

تركت ابنها في إحدى غرف الدار

وهربت مع عشيقها الرومي

شعر الطفل بالجوع

تجول بين ممرات الدار فلم يهتم به أحد

وعند الباب لمح عجوز رثة الثياب

انجذب لصوتها فرافقها الطريق.!

6 - 8 - 1435 هجرية



فاهمة

هي بكل بساطة أمي؛ لم اعرف عمق أحاسيسي نحوها، الا عندما وقفت عند قدميها وهي ممددة على نقالة بممر من ممرات مستشفى الملك فيصل بالطائف جثة هامدة، انتظر تقرير الطبيب وشهادة الوفاة لدفنها.

تذكرتها كانت الزوجة الثالثة لوالدي الأولى تركها حامل وهاجر بحثاً عن المعاش، والثانية تزوجها من إحدى قرى المدينة التي استقر بها في أقصى جنوب الوطن.

ومن ذات القرية التي جاءت منها الزوجة الثانية، جاءت أمي الزوجة الثالثة لترعى ابني الزوجة الثانية المتوفية، بسبب مرض مجهول لم يهلها طويلاً.

كنت في الثانية من العمر عندما توفي والدي، فلم تسمح لأحد بأخذ ابني زوجها، ولم تتخلى عن ابن تبناه والدي، عثر عليه بالمسجد جوار جثة لرجل مجهول، ولم تفرط في كابن وابنة لم تكمل سنتها الأولى.

ضحت بكل شيء وتزوجت برجل وثقت به تكفل بها وتعهده باحتضان أبنائها الخمسة، وعاكستها صروف الحياة، استغل الرجل حرصها وخدع حنائها وسرق أمومتها، احضر زوجته الأولى وأولاده وأخته، وتمتع بميراثنا باع ورهن ما تبقى من ارثنا المادي والمعنوي مستغلاً كوارث الزمن.

وتنفيذا لأوامر إدارته جاء انتقالنا للطائف، تخلى عن كل شيء بناءً على أمر النقل وأسرته التي أخذت تلاحقه، إخوتي من أمي كانت معاملته لهم اقل طموحاً واهتماماً من أولاده وبناته من زوجته الأولى المحميين بأقاربه وأقاربها.

حنان أمي وعطفها ولد في داخلها نعومة ملمس اللبوة وعنف الأسد العجوز، ومع الوقت اكتشفنا إن هناك قطعة ارض نسي زوجها بيعها أو رهنها، فجرى بيعها وشراء منزل الطائف.

كان المنزل المشتري باسمها واسمي فقط قديم ومن الطوب الطيني مسقف بالخشب وجذوع الأشجار والتراب، وتم تجديده مما لفت أنظار أبناء وبنات زوجته الأولى، وبعض من أفراد أسرته.

شعرت بالحزن وقد قرر هجر البيت حتى أتنازل عن نصيبي في المنزل، أمي وبلمس اللبوة الشابة، ومخالب الأسد العجوز؛ حذرتني من الموافقة، فجاء طلاقها وتطور عنف إخوة إخواني من أبيهم.

جاء العزاء في وفاة أمي في منزلي، وتوافد المعزين أقارب وأصدقاء يذكرون معاناتها وحياتها الصعبة، وحرصها على أن أكون منتصبا مهما كانت الظروف، لتصفعني خالتي برفضها مشاركتنا مراسم العزاء بمنزلي، وتذكرني في ثورة غضب إنها رفضت طلب أمي تزويجي إحدى بناتها.

لم اهتم بالأمر وانتهت أيام العزاء، وأخذت الذاكرة تترهل وأنا أفقد في كل يوم من يتحدث عنها، وليبقى المنزل القديم مكان لمن تتعثر به الخطى وليتجدد بريق الذكريات.

1435 - 8 - 14



الغرفة 813

غادر الجميع وتأخرت أصيغ شكلي، عند الباب وجدته ينتظر فيه شيء أخذني إليه، تجاوزت سأم السائد وإرهاق المعتاد، على طاولة العشاء ونادلة المطعم تسألني خياراتي، همست: رائحتك عقب الغرفة 813.



التجـة قالت أنا!

كانت ليلة خاصة اختلط فيها الحابل بالنابل في الأسبوع الأخير من شعبان، وبعد أيام قال زميل عمل في لقاء يتكرر انه أعاد زوجته التي طلقها منذ عام، عرفت تلك المرأة النبي تتدبر أمرها وكرهتني من خلال مراقبتها بطالات قصصي، وعودتها جاءت تنتظر مشاهدة موقعها في نصي الجديد.

1435 – 9 – 18



الجميلة

في لحظة شغف، قالت بحنان: ليس من العدل أن تغضب منه، عندما ارتمت بجواره على مقعد سيارة الأجرة، وقد صممت كشف المسلح بالأخلاقيات الصارمة والعاطفة الرزينة.



استشارة

بعد ساعة من جلوسنا، نهضت قائله والثانية تبتسم: تعال أستشيرك فيما جئت من أجله، ثم تركتني في الفراش لتأتي الثانية، ولما عدنا لغرفة الجلوس قامت ابنتها ذات السنوات العشر وأمسكت بكفي لتسحبني لغرفتها.



جرح

جاء اللقاء مصادفة إثر قوله: لن تخسري إذا جرى بيننا نقاش صغير ممتع، فصممت ان تكون زميلتها معها، وهي تجلس خلف مكتبها في اليوم الثالث، تذكرت ان صديقتها من بدأ الحوار شعرت بجرح، ولما بحثت عنه عرفت انه رحل.



حدث في حية الشرقية

من خلال انتظاره الطويل داخل السيارة لسيدة، عرف تحركاتها معلمه تسكن مع والدتها ووالدها رجل الأعمال.

من خلال إحدى سيدات منزل سيده، تسلل ذات ليله عبر السطح، ومع توغله وجدها ترقص على موسيقى هادئة في غرفتها، لما لمحتة توقفت لم تقاوم اقترابه.

بعد إقناعها والدها أصبح سائقها الخاص.



لم يعد بالبيت أحدا!

في الليلة الأخيرة من ندوة في حراك عام بالرياض، وبعد الانتهاء من ورقتي والنقاش حولها، جاءت مرحة بعد لقاء وحيد، إثر حوار بالهاتف في قضايا نشترك في حمل همها.

ومعه عرفت أنها حتى الآن حامل بأهدافها ذات التداعيات الواعية، ولم تستطع مع عسف الأيام أن تحقق أي نقطة من أفكارها، وفي الفندق حيث أقيم تشاركنا فنجان قهوة، ورحبت بدعوتهما لمواصلة الحوار بمنزها.

لم يكن بالبيت أحد الهدوء يخيم على كل شيء، وفي الثانية بعد منتصف الليل كنت ارقد في غرفة الضيوف وهي في غرفتها حيث أن لديها عمل في الصباح ومكلفة بدراسة مشروع لم تفصح عنه، وان وعدتني بأخذ رأي حولها.

في العاشرة صباحا تنبهت الغريزة المنذرة بالخطر على حركة وأصوات مختلطة، فتح باب الغرفة دخل رجل شرطه وثلاثة رجال كنت بملابسي الداخلية في الفراش (فانلة علاقي بيضاء وسروال قصير)، لبست ثوبي وتم سحبي من ذراعي لصالة الجلوس.

هناك وجدت رجلا جالس على أحد المقاعد، وامرأتين متحجبتين تفتان في زاوية الصالة، انصرف عني الجميع وقد اشار أحدهم للمرأتين، وسبقهما مع الشرطي إلى درج الصعود للدور الأول، ليعود الرجل وهمس في إذن البقية بشيء معه الأنظار أربعتني.

فجاءه دخل البيت مجموعة أخرى، بملابس طبية ومعهم نقاله سبقهم أحد الموجودين إلى الدرج، وبعد انتظار مرهق هبط الجميع بجثة صاحبة الدار، وفي مركز الشرطة وقعت محضر مدهامة أمنيه، على ضوء تبليغ عن جريمة أخلاقية.

في اليوم الثالث من التوقيف علمت إن الوفاة طبيعية، كما عرفت أنها على خصام مع زوجها الذي هجر البيت منذ خمس سنوات لخلاف مالي، وان ابنها يعمل بسفارة في أوروبا وابنتها بسبب زوجها ابن عمها؛ مقاطعة أمها لنشاطها الاجتماعي، وان السائق الذي أوصلنا للمنزل تجسس علينا وهو من بلغ زوج الابنة. وأنا انتظر صعود الطائرة عائدا للطائف، تذكرت لقاء جمعنا منذ عشر سنوات في شاليه بمنزله على البحر، شاركنا العشاء شقيقتها الأصغر، بينما أشعة القمر تلامس موج البحر الهادئ، وتقاطع أحاديثنا.



النتيجه

قاومت الحصار بزواجها، مما أتاح لها تحقيق أهدافها، ولما مات عاتبها أحد أولادها فعادت للسجن، تندب عمرها.



ببساطة

كتلة ترتعد من شدة البرد كنت، ولما نفخ برقة على الرماد المتراكم، جاء الارتعاد بشكل أعمق وأقوى،
غمغمت: لكن هذا مثل حياتي مجرد فعل زائف.



سر العين

1 -

في اليوم الثالث على وفاته، طلبت من أسامة أصغر أولادها أخذها إلى قبر أبيه حتى تقرأ الفاتحة عليه، لما وقف ابنها بجوارها أمام القبر طلبت منه انتظارها في السيارة، جثت على ركبتها ونادته ثم قالت: فيصل وفاتن وحمد عيالك وأسامة وميرفت ولدي.

2 - 1

كنت قانعة بما كتب لي الله، لم احتج على غيابك المتكرر والطويل، ولم اعد أناقش رفضك أن أتوظف وأنا احمل شهادة جامعية في خدمة المجتمع أو أوصل دراستي الجامعية.

3 - 2

لعلمك أنا الأدبية سر العين التي كتبت روايتين ومجموعة قصص قصيرة وديوان شعر، هذا سري وعالمي جنتي وناري الذي عشته بعيدا عنك معك، أبوح به الآن وأسأحك على كل ما كان.

4 -

وهي في السيارة عائده للمنزل سرح بها الخيال، فيصل مهندس وعنده ابنه في الرابعة من عمرها، وفاتن معلمة لغة انجليزية بمدرسة ثانوية وعندها طفل في الثانية من العمر، وحمد فضل العمل الدبلوماسي فالتحق بوزارة الخارجية برجاء العمل في إحدى السفارات، وأسامة في المستوى الأول جامعته كلية الطب، وميرفت طالبة في الثاني ثانوي.

- 5

لما دخلت الدار شعرت بأنفاس الجميع تجاهلت عيونهم، سعدت لغرفتها وبدلت ملابسها ثم اندمجت مع الجميع في الحوار والنقاش واستقبال المتأخرين من المعزين.

- 6

هو مدير مكتب رجل أعمال كون ثروته في القاهرة، ولما وجد شركاء استقر في الرياض، له مراكز تجارية في أنحاء العالم، يرافقه في رحلاته وغالبا يسافر لمتابعة انجاز بعض الصفقات التجارية، ومن خلال النسب المنوية المرحة من الصفقات كون رصيده المالي والاقتصادي في مبان سكنية استثمارية، عازلا أسرته التي أبعدها عن كل شيء مهيب الراحة لكل فرد وان كانت كفه مغلولة في وجه مطالبهم.

- 7

عشقت القلم وتوسدت الورقة فنزف قلبها الدم حروفا وكلمات، وذات مساء كان صوته عبر الهاتف اعتذر عن الخطأ وشجعتة على الحديث، مما كون نصها القصصي الأول لما توقف صوته.

- 8

ومع ابتداء النص الثاني وهي تتجول في أحد الأسواق لحتة يتابعها، لم تنفعل ولم تشعره بالترحيب، ووقف بجانبها أمام المحاسب هو حاملا مقتنياته وهي أيضا تحمل مقتنياتها، لفت نظر المحاسبة التشابه بين المقتنيات فنقلت نظرها بين الاثنين الصامتين وافتر وجهها عن ابتسامه، معها ضحك الاثنان.

- 9

وفي طريق الاثنين لمواقف السيارات اتفقا على لقاء آخر، جاء اللقاء حاملا زخم انفعال تراكم كلمات وسطور النص الثاني الذي تناول مع الأيام من قصة قصيرة إلى رواية، تبادل السرد حتى الصفحة المائة والثمانين الموشح بالنهاية ومعه خلقت أسامة.

- 10

عندها جاء اسم سر العين، وتواصلت عبر الهاتف مع دار نشر لبنانية فكانت روايتها ومجموعتها القصصية حديث بعض الصفحات الثقافية، وفي الأيام والشهور التالية كانت تتابع اثر وعيها الذي بثته داخل الصفحات منتشيه إنها قالت شيئاً من حزنها حتى تتجاوز الضياع الذي تكون في داخلها.

- 11

وجاءت روايتها الثانية أحداثها لم تتجاوز سور المنزل وسكانه وزائريه، خلال أربع وعشرين ساعة في مائتين وأربعين صفحة، كل عشر صفحات غنية بأحداث ساعة كاملة، فيها ثوان في أماكن متفرقة لاتصال هاتفي من الأب يسأل كما هي العادة عن الوضع، جاء البناء الفني والمعماري للرواية بعد طبعها مثار قلق النقاد.

- 12

ولما تخرج فيصل من الجامعة والتحق بالعمل كان التفكير في زوجه له، وأثناء البحث لفت نظرها وهي خارجه من منزل إحدى الأسر بعد مشاهدة ابنتها وتقارب الصفات المطلوبة، شاب يقف بجوار سيارتها أثار الرعدة في جسدها.

- 13

قال السائق: ماما السيارة بنشر. فعلا كان أحد عجلات السيارة مفرغا من الهواء هنا أبدى الشاب استعداداه لتوصيلها لمنزلها، حدقت فيه مبتسمة وسبقها إلى سيارته.

- 14

في الطريق عرفت انه شاعر وأن له ديوانا مطبوعا، شاركته الحديث ولمست أن إحدى فتيات المنزل الذي زارته سكنت قلبه، وهي تترجل من السيارة قدم لها نسخة من ديوانه، ولما قلبته وهي تتابع أخبار التلفزيون في صالة الجلوس جاء رقم هاتفه.

– 15

بعد عشر صفحات من الديوان هاتفته كان ينتظرها فأخذت تناقشه في النص الذي وصلته، كانت تخريجاتها لبناء النص حارقه معه أرسل لها قبله عبر الهاتف، ومع تكرر الاتصال أصبحت شاعره لم تعرض نصوصها عليه وان وجدت فيه التمرد الذي سكن بعد إفراغها لجزء من حزنها فتجاوزت أزمة النقص وأيقظ حواس أرادت لها الكمون.

– 16

وهي في الفراش والعممة تلفها وكل شيء في البيت ساكن، همهمت: أنا من لحم ودم ولمعت في الظلام عينيها، فأشعلت نور الغرفة تفقدت بقايا جسدها أمام مرآة دولاب الملابس. دخلت المطبخ وتجرعت كأس ماء من البرادة ثم جلست أمام التلفزيون، وهي تتابع أغنية صاحبة من فلم أجنبي اتصلت.

قال: كنت انتظرك فتراكمت القصائد وخلقت ميرفت، التي مع انتقالها من المرحلة الابتدائية إلى المتوسطة جاء طبع ديوان الشعر.

3 – 17

وحيدة تصرفت ومع من حولي انشغلت من خلال الظاهر بأسرتي، وجاء موت زوجي لدمج الباطن بالظاهر، عشر سنوات ولم أصل لنقطة التقاء وان توسعت دائرة الأصدقاء من خلال عضويتي بمركز اجتماعي نشاط ثقافي ورياضي غني بلحظة تحد مع البعض في سباق ترفيهي نتجاوز الوحدة والضياع.

4 – 18

وذات ليلة وأنا اجلس في فناء المنزل أتأمل الفضاء، وندف من السحب تقترب من القمر لحجب أشعته، جاءت ابنتي فاتن لم تقاطع تأملي، ووضعت كفها على كفي المنبسطة على متكئ المقعد وهمست: وين وصلت سر العين.

5 – 19

قامت من مقعدها جلست في حضني، طوقتها بذراعي أشم أنفاسها وانساب دمعي؛ فأخذت ابكي بصوت مرتفع.



قواقع الجزر المهجورة

أثناء رحلة استجمام تداخل فيه العمل؛ جاءت إقامتي في منزل أسرة أحد أفرادها مستشار للشركة التي اعمل فيها بالرياض، وبعد حفل بمناسبة إطلاق منتج جديد من شركة تنفذ بعض عقود عمل لشركتنا في مجال التجارة.

اكتشفت في ساعة متأخرة من النهار أن من تشاركني الفراش صديقة مضيبي، شعرت بالرعب ولما أحست بي رمقتني مبتسمة بوجهها الممتلئ المستدير وشعرها الأشقر المبعثر ثم غادرت الغرفة، اكتملت أيام الرحلة وعدت محملا بالحكايات، وبمشاريع استثمارية تحتاج إلى شركاء متضامنين لتنفيذها.

وبعد اجتماع بين القيادات كان نصيبي أربع مؤسسات، علي زيارتها ومعرفة إمكانية الاستفادة من خبرتها ومقدار استعدادها للشراكة، سكرتيرة مكنتني قامت بالاتصالات لتحديد مواعيد الزيارة، كما قام طاقم المكتب بعمل ملف عن نشاط كل مؤسسة، رئيسها تاريخها رأس مالها.

في المؤسسة الثانية وأنا اتجه لمكتب رئيس مجلس الإدارة، وجدت في مكتب السكرتارية صديقة مضيبي في رحلة الاستجمام تنتظر قدومي، وبعد اتصال هاتفي وقفت مبتسمة ثم سبقتني إلى فتح باب جانبي.

اقتربت من مديرة المؤسسة الجالسة خلف مكتبها، ونظرات ثلاثة يقعدوا حول طاولة اجتماعات صغيرة في زاوية الغرفة تتابعني، وبعد الترحيب سبقتني المديرة لطاولة الاجتماعات، بينما الموظفة غادرت الغرفة.

جلسنا متقابلين وانطلق الحوار الذي طال وقد تقاربت الأهداف وان تباينت الأفكار، وبعد ثلاث ساعات من النقاش غادر الثلاثة المكان، ولحتها وأنا أهم بالقيام تدعك جبينها وتضغط على مؤخرة رقبته، عرفت انه إرهاق الجلسة وألم يعاودها من وقت لآخر.

اتجهت للمقعد الذي تجلس عليه وهي تتابعني بنظرها، لما وقفت بجوارها أخذت استفسر عن حالتها، وبغير شعور كانت كفي رابضة على مؤخرة الرقبة وأصابعي تتحسس نبض العروق تلاحق مكان الألم، استرخت مستسلمة لنتنبه على قرع الباب ابتعدت، كانت الموظفة ومعها آخر عرفت انه السكرتير.

بعد أيام ثلاثة وقد اكتملت طباعة التقرير الذي أعددته عن الزيارة، وملاحظة مجلس إدارة شركتي ونقاط التعاون وتوضيح أهداف التعاون، اتصلت لبعثه مع مندوب الشركة فعرفت أنها مسافرة فطلبت رقم هاتفها النقال وبريدها الإلكتروني.

جاء صوتها تخبرني إنها في زيارة عائلية، وتنتظر التقرير عبر البريد الإلكتروني، وحرصت أن أسأل عن الإرهاق وألم رقبته فجلجلت ضحكته وهي تودعني وأنا أتناول الغداء مع ثلة من أصحاب الأعمال بمطعم الفندق الذي يقيمون فيه.

كان اتصالها صوتها حولي؛ تلفت تجلس وحيدة على طاولة صغيره خلف نافورة المطعم الملونة، نهضت واتجهت نحوها عرفت إنها في خلوة مع نفسها بالفندق لدراسة مشروع تسعى شركتها التقدم له.

متزوجة ولها طفل في العاشرة، والشركة ارث من والدها المتوفي منذ ثلاث سنوات، رجل الأعمال المهاجر إلى أمريكا بعد تقاعده من الحكومة التي جنسته بعد التعاقد معه خمس سنوات كمهندس مدني، تدرج في العمل حتى أصبح وكيلا للوزير في الشأن الهندسي، أما زوجها فله نشاطه الخاص.

في غرفتها بالفندق تمددت في الفراش وأخذت أدلك رقبته، ثم انسابت كفي تدعك كتفيها هابطة عبر فقرات ظهرها، ولما وصلت المنتصف تحركت فابتعدت وتسمرت واقفا، جلست ورفعت رأسها محدقة لتطل ابتسامة شهوانية لامرأة شبقة، جلست في المقعد المقابل، نهضت ترتدي بيجاما أفغانية حريرية مشجوه فضفاضة سروال طويل وقميص إلى الركبة.

وقفت خلفي التقى النظر في المرأة ثم انشغلنا بمتابعة وميض ضوء طائره عابره في سماء الرياض عبر نافذة الغرفة، طوقتها بذراعي فانتصب صدرها في حركة بطيئة وقربت وجهي من وجهها، عانقت شفيتها حابسا أنفاسي في قبلة طويلة، شيء ما تشكل لم اعد أنا، كنت آخر يعانق نفسه بنهم ممسوسا يسكنني شيطان، اقتربنا من النافذة سحبنا حبل الستارة فاخفت النافذة، لم نعد ملزمين بأي شيء، وحيدان تعصف بنا الرياح من كل اتجاه، وفي الظلام سقطنا في هاوية كانت الشمس في قعرها؛ وأشعتها كما أطراف إخطبوط تسحبنا نحو اللهب.



النفوس الضالّة

بعد سهرة صاخبة بالمرح وفي الواحدة بعد الظهر، الهدوء يخيم على المنزل إنما في داخل الرجل العجوز الذي تجاوز الستين من العمر الذي هو أنا، قلق فقد جربته عند وفاة زوجتي الأولى ورحيل ابني.

هذه الثانية من أقارب الراحلة، ارتبطت بها وأنا اعرف أنّ لها خليل، مع الوقت اعتدته لم اشعر بالذنب؛ ولم اغضب كما انه وإنما يريان تصرفهم، غداء روحي لجسدي الذي فقد حيويته.

البارحة جاء العشيّق ومعه أحد الأصدقاء، طلب منها معاشرته فرفضت، ولما رجاني أن أحدثها تواصل تمنعها ولما شعرت بغضبي استسلمت، لكن أين هي.

على طاولة الأكل بالمطبخ، كانت الطاولة فارغة على غير العادة، وفي وسطها ورقة فوقها زهرة نرجس صفراء من أزهار الفناء الخلفي للمنزل، في أعلى الورقة البيضاء سطر وأحد وبدون توقيع، بموافقتك أنّ أعاشر صديق خديني أقول وداعاً.



أيها السرمكي^{٢٨} لا تقاوم الصحراء

هنا عرف رسالة الغناء في الأودية، بعد تجمد أطرافه ومقاومته حتى يقول كلمته؛ ولما باح همه تلفت حوله فلم يجد أحداً، وطريق من الزيت الأسود يمتد شمالاً على مد النظر.



ضل خلق الزجاج

جاءت موافقتي آن تكون زوجه فتم كل شيء، وفي غرفة الفندق تدفق العسل مع ضجيج الشارع، في اليوم الثالث لم أجد لها، تمددت في الفراش مترقبا حضورها؛ وجاء صوت أمي عبر الهاتف: إنها هجرتني وترغب في الطلاق.



لهـ

جاءت ورقتي في اللقاء عن الصناعة والتصنع، وجاء تعليقها عن الخيال والتخيل وواصل البعض الحوار على طاولة العشاء وفي زاوية قاعة المناسبات بالفندق، استأذنت الجلوس حتى أرتب سفري مع العلاقات بالفندق، وأمام باب المصعد وجدتها.

وعندما توقف بالدور الثالث والثلاثون قالت: غرفتي بنهاية الممر. وأنا افتح باب الغرفة دعوتها لمواصلة النقاش رحبت، ولما رن الهاتف تذكرتها كتبت اسمها في إهداء نسخة من كتابي الجديد، قدمته لموظف الاستقبال الذي أنكر وجودها.



ولادة أخرى تستدعي البكاء

بسبب سفر والدتي للعلاج في ألمانيا ومرافقة والدي لها، التحقت وأنا في المرحلة المتوسطة الصف الثاني بمدرسة أهلية توفر وسائل نقل، كان ذلك في الأسبوع الثالث من بداية الفصل الدراسي الأول في اليوم الرابع وأنا أعادر الحافلة قدم لي السائق وردة صفراء وهو يرحب بي، ولامست كفه كتفي مطببه.

شعرت بحرج من مرافقاتي وهن يصرخن ابتهاجا وان كانت نصف المقاعد خالية، تكرر إهداء الوردة وملامسة كتفي إنما في أوقات كنت آخر راكبه معه، أخذت أنا أيضا اهدي السائق شيئا مما اقتنيه من مقصف المدرسة أو مما اقتنيه من بقاله الحي، كما تعودت إنزال كفه للامسة مؤخرتي.

رجعت أمي سالمه وعاد والدي وتناقشت أمي وأبي معي في العودة لمدرستي الحكومية المجاورة لمنزلنا، طلبت التريث حتى نهاية العام الدراسي، فقد اعتدت الرائحة بينما هو خوف غريب تلبسني ملامحه وجوه بعض زميلاتي بالمدرسة وشغب رفيقاتي بالحافلة.

رائحة السائق اليوم غيرت سكوبي، وأنا اشتمها في جسد السباك الذي جاء لتسليك السد في أنابيب مجلا المطبخ، وأنا اشرح له المشكلة فزوجي الذي اتصل في الطريق، هو من دفعني إلى فتح باب الشقة واستقباله بعد أن ارتدي العباءة ريثما يصل.

تفقد السباك التوصيلات والمحابس، ثم خرج من المطبخ، وعند باب الشقة اخذ يشرح العطل وأجرته واحتياجه من أدوات؛ الرائحة تنفذ إلى أعماقي وتبتهت على كفه بين وقت وآخر ومع انفعاله تلامس كتفي، وهو يفتح باب الشقة الموارب للمغادرة كان زوجي يصعد الدرج، تسمرت في مكاني لمتابعة باقي التفاصيل حتى النهاية.

على العشاء قال زوجي انه اتفق مع السباك بدء العمل بعد صلاة الظهر، حيث يحاول أخذ إذن من عمله، كنت أهز رأسي فأنا سكرنا عبر سرداب حالة بالغة الشفافية من رائحة أغرقت روحي بنشوة غريبة من زمن لم اعد أتذكره.

تنبهت على جرس الباب كان السباك غطيت جسدي بالعباءة؛ وراسي بالحجاب وركضت نحو الباب، كان السباك ومعه آخر بعد وضع أدواته بالمطبخ عاد ولوح بكفه وهو يبتسم، تركت الاثنان يمارسون عملهم وأغلقت باب غرفتي بالمفتاح وبقيت جالسه وفي أعماقي هدوء وسكينة مبالغ فيها فأنا بكامل حجائي، ولما سمعت صوت زوجي ترقيت باب الغرفة يفتح ولم يطل تفكيري جاء صوت زوجي خلفه وأصابعه تفرع.

بعد انتظار تحققت الوظيفة ومعها أدرك زوجي أهميتي، وأبهجني دموع الفرح التي انبثقت في وجه أمي وهي تحتضني، ومعها وبعد عشاء أقررناه مجموعة من الموظفين تكريما لمديرة قسمنا المتقاعدة، حشرتني ثلاث من الزميلات بالقعود في المقعد الأمامي من سيارة أحدهن بجوار السائق كفتاة في مكان عام التصقت بالجدار حابسة أنفاسها، ونحن نتحرك تسللت رائحة السائق إلى انفي لم تكن بزهو رائحة سائق الحافلة أو صخب رائحة السباك التي شعرت معها أن ملابسي غارقة في البلبل، إنما خالطها بعض العطر الذي استنشقت في زميلتي صاحبة السيارة القابعة في الخلف.

تجاوزت النسيان كنت اركض بإرادة طيبة وروح خلاقية، متجاوزة الحاشية والحرس وقد شعشع العمر حتى الثمالة، في سهل اختلطت أشجاره العملاقة بأزهار برية صفراء وعشب تمدد عبر الشقوق الصخرية، بينما الضباب يفتح عبر جداره الأبيض طريق ماطر بجبات لؤلؤ تنداح إذا لامست شعري فتتساح على وجهي.

شيء وأحد ظل يلاحقني لصباح حلم احتضن حكاية من ألف ليلة وليلة، كف سائق الحافلة المدرسية العجوز وهي تططب على كتفي، ثم تنزل عبر فقرات ظهري في سكون وهدوء لتلامس مؤخرتي وقد تخشب جسدي النحيل، ولما يدب الخوف داخلي أتحرك فتتصبب الكف أمامي حاملة زهره صفراء تؤكد وجودي.

هذا الشيء الذي انبثق من الماضي ورائحة عرق عمال المطعم ممن يخدم طاولتي جعلني اعتذر عن مرافقة زميلاتي في العودة، وتسللت إلى الشارع وهناك أخذت سيارة أجره، وفي الطريق تسوقت وساعدني السائق في حمل باقي الأشياء إلى شقتي، تبعتني إلى المطبخ واضعا الأشياء على طاولة الأكل وانتظر حتى دسست

المشروبات في الثلاجة، لم يكن هناك أحد وهو يتحرك أمامي منسحباً جاشت مشاعر بداخلي لمست إن روحي تتعاطف معها، فراودني حلم لم أجد الشجاعة حتى اقتله لرفع نفسي عن التراب.

وأنا أغلق باب الشقة بالمرتاح سمعت قرعا توقف حوار أفكاري اللامتناهية والتي سلبت مني الإحساس بالواقع، ولما واتني الشجاعة فتحت الباب نسيت أني قد شنقت عبائي على مشجب بغرفة التلفزيون وارتديت ملابس المنزل، وتناثر شعر رأسي وشيء من أصباغ مناسبة تمنح وجهي وشفتي بقايا الق، وتوهج صدري عبر فتحة الثوب الحريري الأزرق الموشى بخطوط الذهب، كانت محفظتي اليدوية بيد السائق تراجعت بخطوات خلفيه، كنت على يقين أني وصلت تقدم أغلق الباب الرائحة تغرق الشقة بهالة نور، ولما استعدت ملامحي القلقة وأنا أودع انتظاري الذي لم يكن حزينا. كنت مؤمنة بالخلاص، رحمت ابكي بصوت مرتفع فقد حظيت وأنا ارتمي بين ذراعي الرائحة بحب كبير سكن جسدي.

كانت الرابعة صباحا عندما رن جرس هاتفي الجوال الذي توقف قبل أن أرد، ثم جاء جرس الرسائل شعرت برغبة شديدة في مشاهدتها وقد تكرر جرس الرسائل متصاعدا بعدد لم احسبه كانت الرسائل زهور صفراء وطيور محلقة وفراشات فسفورية وقوس قزح.

انساب الهدوء إلى داخلي، وقد حملت الرسالة الأخيرة كلمات أعادت الرعشة لجسدي (رائحتك طيبه) رفعت محدة الفراش حتى ادفن جهاز الهاتف تحتها لأجد زهرة نرجس صفراء.



غضب

اشتعل مرجل الغضب في داخله، وهو يرى زوجته ووالدته يدافعن عن السائق الذي تأخر في إيصاله لمقر عمله يوم أمس لعطل أصاب سيارته وسجله رئيس القسم في بيان الغائبين؛ الزوجة جاء موقفها أن السائق قلص أيام غيابها في سجل العمل والأم قالت لقد أصبح أحد أفراد الأسرة وهو يكمل أي نقص في البيت، دخل غرفة السائق في غيابه بعد ثورته فوجد في البراد قارورة خمر منتصفه، تجرعها ونام في الفراش لما ولج السائق الغرفة وجده؛ حملة ودخل المنزل كانت الأم والزوجة بغرفة الجلوس يتابعن حلقة جديدة في التلفزيون من مسلسل كوري، قامت الزوجة وسارت أمام السائق وبغرفة النوم ساعدته على تمديد زوجها في الفراش.



نقاه تحول، فعتني للتوقف

أنا:

كثر هي عجائب الحياة، بعد فقداني طفولتي وحرماي في شبائي من أمان لم اهتم بمعرفة سماته، جاء انتقالني من قريتنا إلى المدينة بناء لطلب أحد أقارب والدي رجل أعمال بلغ الخمسين من العمر ولم يتزوج لديه مكتبة للأدوات المدرسية ودار نشر للكتب وخدمات للطلاب، وهو يحاورني لمست انه كان عشيق آمي، وان موهبتي في الخط ورسم الطبيعة من أغراه بأن أكون نائبا له في المكتبة ودار النشر، ومسئول مباشر على خدمات الطلاب.

إيمان:

في الشهر الرابع جاءت إيمان طالبة في الصف الثاني ثانوي مع والدتها، وتكررت زيارتها باحثة عن ملخصات لبعض الدروس ووسائل إرشاد، معها جاء موعدنا الأول بعد مغرب أحد الأيام فكانت قبلتنا الأولى وعناقنا العفوي في عتمة بيت الدرج.

سعاد:

ولتأخذ شقيقتها الأكبر المعلمة سعاد جزءاً من وقتي في مشاركتها خيارات الوسائل التي تساعدنا في شرح درسها وتوصيله لطالباتها، سعاد زوجة عسكري في القوات البرية يكلف بمهام خارج الطائف وأحيانا في المشاركة بوفود عسكرية خارجية للتدريب وشراء أسلحة، وغارفا من منابعها ما يروي عطشي.

إيمان:

وسعاد تستعد للسفر لاحقة بزوجها الذي عين في السفارة بلندن، وأنا ارقد في فراشها وهي بمدرسها تكمل وثائقها، دخلت إيمان الغرفة لا أدري كيف انبثقت إنما اعرف أنها تتجهز للزواج نهاية الأسبوع بعد اجتيازها الثانوية، فتخطينا نشوة القبل والعناق.

أنا:

نسيت كل شيء برحيل إيمان وغياب سعاد واندجحت في العمل وأصبحت املك نسبة مالية في رأس مال الدار، وفقدت أُمي التي تعرضت لوعكة صحية لم تهلها كثيرا، وكان نصيبي في ارثها غير مجزي فلم أناقش إخوتي وهم من زوج آخر في هذا، وتطرقت أختي وأنا أتحدث عن حياتي المدنية، إلى زواجي وانتظار تكليفي لها بالبحث عن شريكة العمر.

إيمان:

ورن جرس هاتف مكنتي كانت إيمان تسأل عني وتخبرني أن ابنها أكمل عامه الثاني، وتطلب مني مساعدة والدتها في استخراج صك من المحكمة توكل بموجبه خالها في إدارة وقف بمكة المكرمة لأسرتها، لقيت الأم في المحكمة مع ابنها وصديق له، ونحن نغادر لا أدري ماذا دفعني الى آن اطلب منها مرافقتي حتى أوصلها للمنزل لم يعترض الابن الذي انسحب مع صديقه.

أنا:

دخلت لم أقاوم طلبها الذي دعمته بكشف الغطاء وهي تقف في فتحت الباب فجاء وجهها وصوتها الخافت نداء تأمل، وفي غرفة الاستقبال تناولت مشروبا بارد وتبادلنا الحوار، ثم خلعت العباءة المخاطة كما الثوب الرجالي الفضفاض، كانت بثوب النوم الأحمر الشفاف والقصير ابتسمت وهي ترى اندهاشي، فوجدت معها ما كنت أخذه من ابنتها سعاد وما قدمته لي ابنتها إيمان.

فضة:

وأختي تلاحقني عبر الهاتف لأخذ موافقتي على الزواج، ذاكرة اسم شقيقة زوجها الطالبة الجامعية المتخرجة حديثا والتي تنتظر الوظيفة بين وقت وآخر، كنت وفق طلب من السيدة فضة والدة إيمان ووالدة سعاد في منزل أختها الأرملة بدرية المسافرة مع ولديها بعد انتهاء أيام الحداد إلى جده، لمناقشة ارثها مع شقيق زوجها الوصي على الأبناء والمكلف بحصر التركة.

إيمان:

تخرج سمير شقيق إيمان من الثانوية العامة والتحق بجامعة الملك عبد العزيز بجده التي استقرت بها شقيقته إيمان بعد أربع سنوات من التنقل مع زوجها، في مدن المنطقة الشرقية وفي المنطقة الشمالية، وبعد شهر لحقته أمه.

بدرية:

جاءت بدرية خالة إيمان مع ابنها الصغير الطالب بالمرحلة الابتدائية لشراء بعض المستلزمات المدرسية عرفتھا من الطفل المرافق، سألتها عن أختها فضه وعن سعاد وإيمان، جاء صوتها مرتبكا وإجابتها مبعثرة إنما شعرت آن فيها شيء يخصني، وهي تحاسب وقبل أن تغادر أرفقت بفاتورة الحساب بطاقة تحمل اسمي ورقم هاتفي.

بدرية:

عرفت منها إن سعاد تخلت عن زوجها واختفت في لندن، ويقال إنها رافقت عشيقها إلى باريس، وان زوجها تقاعد بعد اعتذاره عن مواصلة العمل، عاد للطائف ويملك مزرعة لإنتاج الألبان، وتطرفت لأبنائها وفشل ابنها الكبير الدراسي وإهماله متابعة الشركة التي أسسها زوجها باسمها للمقاولات.

بدرية:

دعوتهما للعشاء ثم جلسنا بمقعد في حديقة شهر ولما طال حديثنا دعيتي لإكمال النقاش في منزلها، فولديها في زيارة عائلية لعمهم في جده تريت في السيارة حتى فتحت الباب ودخلت ثم جاءت ملوحة بالدخول ومع ارتفاع أذان الفجر توقفنا عن النقاش.

أنا:

أقنعت بدرية ولديها إن زواجها بي لن يؤثر على حياتهم، أو يعكر علاقتهم بأسرة والدهم واني سوف أرفع مصالحهم واحمي والدتهم من غوائل الزمن، جاء عقد القران مختصرا عبر عشاء معها ومع ولديها بمطعم حديقة الملك فهد، في الليلة الأولى نمت بغرفة الضيوف، وجاء الغداء عائليا حوار حول الدراسة والعمل ونقاش لبعض المطالب ودوري في البيت.

السلوان

هجر مدينته التي ولد فيها في اليوم الثاني لمغادرته السجن تاركا زوجته، وقد تخلى عن لقب الأسرة قاتل حتى أصبح يشار له كرجل ساهم في تنمية مجتمعه، وهو يقرب الصحف صفحته صورة ابنه الذي جاء ضمن العشرة الأوائل في الثانوية العامة.

قرر العودة للمشاركة في الفرح جلس في الصف الأخير بمسرح المدرسة؛ لم يكن هناك أحد يرافق ابنه وهو يستلم شهادة التكريم، وأيضا لم يكن معه أحد وهو يسير في الشارع؛ تابعه حتى ولج المنزل القديم.

وهو مع أفكاره المثالية بغرفته في الفندق قرر الزيارة بعد صلاة المغرب؛ لما قرع الباب جاءه صوت أنثى يعرفه (آهلا علي) ولما شرعت الباب قالت: ابنك محمد يتابع درس يوم الاثنين بالمسجد.



رفقة

جاء حضوري للرياض لنص نشر في صحيفة يومية واقتنع المحقق بما قلت ووقعني على إقرار أن اكتب ما يفهم، وجاء اتصالها وأنا أفكر بملابسات القضية في غرفتي بالفندق تعرف كل شيء عني وأنا لا اعرفها.

في مطعم الفندق التقينا كانت معها أخرى ونحن نشرب الشاي رن هاتفها وقفت ورمقت مرافقتها واختفت، طال حديث المرافقة وأزف موعد عودتي للطائف لحت حقيبي بجوار طاولة موظف الاستقبال، نهضت أكمل إجراء إغلاق حسابي شعرت بمراقبة المرافقة لوحت بكفي مطمئنا.

ودخل ثلاثة بتياب بيضاء يرافقهم رجلا شرطه تلفت قائدهم حوله ثم اتجه للمطعم، نبهني الموظف أن سيارة الأجرة التي سوف تقلني للمطار تنتظرنني سرت خلف عامل الفندق الذي يحمل حقيبي.



اليأس

هجرني وترك أولاده وهي هجرتك وأخذت أولادها، فجئت ابحت عن الدفء عندك، في اليوم الرابع عرفت
إنها كانت تتسلل عبر الجدار.



الجمور

هي المركز وأنا الهامش، ولم أقاوم حركة الإقصاء والاحتواء وقد تلفعت عباءة النزعة النخبوية، ليصدمني خطاب مضاد مصدره مركز تعددت هوامشه.



المنافقة

جاء اللقاء الأول صدفة، كانت برفق والدتها التي سألت عن مكتب الموظف الذي تراجع في إدارتنا، سرت مع الاثنتين ووقفت معهن أمام مكتب زميل العمل وعدت لمكتبي، وبعد نصف ساعة كانت وأمها أمامي وابتسامته تعلو وجهها شاكرة مساعدتي في انجاز معاملة والدتها وطلبت الآم رقم هاتفي حتى تعرف مني مواعيد مراجعتها.

وجاء اللقاء الثاني بعد أربعة أيام وقد طلبت من الآم بعض الأوراق المتعلقة بمعاملتها، قالت إن أمها تنتظرها في سيارة الأجرة أمام باب الإدارة، طلبت منها إحضار والدتها وأبديت استعدادي أن أعيد الاثنتين للمنزل بعد التأكد من الموظف الذي عنده أوراق معاملة أمها إنها اكتملت.

عرفت إنها الرابعة في تسلسل أخواتها والسادسة في ترتيب الأبناء والبنات وعددهم تسعة، والدها موظف كبير ووالدتها من أسرة تجارية وهي طالبة في الجامعة، وتواصل حديثنا عبر الهاتف وأثناء الحوار دعيت لزيارتها بالمنزل، لم يكن هناك أحد فالجميع في مناسبة عائلية بمنزل خالتها.

عرفت أختها الأولى في الترتيب ما تقوم به، وقد شاركتنا جولة على المكتبات ومراكز خدمات الطلاب ونحن نبحث عن مراجع وملخصات لبحث كلفها إعداده أستاذ المادة مع اثنتين من زميلاتنا، فأخذت تسهل اللقاء وتمنحنا فرصة أكبر لنشعر إنا في امان.

ومعي احتفالنا بتخرجها من الجامعة، كن الثانية والثالثة قد عرفنا التواصل من عبر تفسير شهواني لم تجد فيه صور مؤذية طالما أنها واثقة من حبها، وان عتبت الثالثة وهي الأقرب لها لتأخرها في اكتشاف صديق أختها، ولما جاء اسمها في بيان المرشحات لبعثة خارجية، لم اشعر بالقلق فأحد إخوتها سبقها إلى الجامعة التي حصلت على قبول فيها وفق تخصصها.

رتبنا إنها بعد إكمال عامها الأول نعلن زواجنا وأسعى من قبل إدارتي في الحصول على دورة تدريب تشمل إتقان اللغة الإنجليزية لمدة عامين في الدولة التي تدرس بها، كان الترتيب حلما استثنائيا يربطنا نحن الاثنتين

تجاوز لحظات التردد والتمرد، وجاء تطبيقه على ارض الواقع مرتبكا، والذي قرر زواجي من ابنة قريبة له ووالدي أيدته، شعرت بالقلق ووجدت إن علي مناقشة الأمر مع أختها الأولى، التي رتبت مكان اللقاء في منزل إحدى صديقاتها، وهناك غرقت في النقاش الروحي والجسدي مع امرأة مكتملة تسيطر بشكل تام على جسدها، الذي حضر نهايته الصديقة بعد غياب ثلاث ساعات وابتسامة انتصار صغيرة على محياها.

تشتت ذهني وشعرت بالذنب فقد أضفت إلى هما وهم آخر، وتكرر الوهم في لقاء ثان وحديث طويل بمطعم أثناء عشاء هي من أرغمني على قبوله، استسلمت وكنت أداري انكساري عندما أتواصل هاتفيا وعبر الانترنت، باحثا عن حجج أغذي بها سخطي.

وشاركت الثانية استعدادها الزواج برجل أعمال من أسرة والدتها، وكنت أرافقها وأختها الأولى في بعض جولاتها في السوق أو مشاغل الخياطة، وذات يوم وهي بجواري في السيارة ننتظر أختها الأولى أمام الباب (قالت: أنا خائفة) لم اهتم ولما جاءت أختها وانطلقنا وغابت الاثنتان داخل مركز الخياطة وتجهيز العرائس لقياس ثوب الحفل وموعد إكمال الزينة وترتيبات حضور إحدى العاملات لقاعة الحفلات، خيم الصمت على ثلاثتنا وان طلبت منا الأولى الذهاب لمنزلها لشرب الشاي.

ونحن نشرب الشاي رن هاتف الثانية وكان أحد المحلات التي تسوقت منها للحضور واستلام مشترياتنا، اعترضت الأولى وأبدت استعدادها للذهاب مع السائق وعلينا إيجاد مواضيع لخلق حديث ممتع بيننا حتى عودتها.

بهدوء (قالت: أنا خائفة) وعرفت مصدر خوفها واتفقنا على آن ثمة صداقة روحية بيننا وعليها تجاوز الخوف بالاستسلام كليا لما وافقت عليه، فأدركت انه أطيح بي وعلي تجاوز اللحظة دون خوف أو أمل، أخذت كفها بين كفي ودست وجهها في صدري ووجدتها قد أغرقها الخوف تبحث عن يعد جسدها لما بعد الحفل، قالت: تصدق البارحة حلمت إنني ألحق حمامة بيضاء في سطح بيتنا لما قمت من النوم شعرت بانسراح لم اعتده.

تزوجت الفتاة التي اختارها والدي واحتفلت بها أمي، وأنا في الأسبوع الثاني من شهر إجازة من العمل، اتصل أحد الزملاء يعلمني بوصول موافقة الوزارة على ابتعائي، رتبت أوراقتي وقمت بصياغة جديدة لبرنامج

السفر بعد إضافة زوجتي إلى جدول كنت أعدده، وبعد أشهر ستة وأنا في مكتبة الجامعة التي ادرس بها ووجدتها، لمحتها تغادر المكتبة لحقت بها ودخلت خلفها المطعم وقفت أتلفت باحثا كانت تجلس مع اثنين، لوحت بكفها قالت: أخي وهذا زوجي.

كم أنا قلق، ويا لها من حال تثير الرثاء كنت كما فأر في المصيدة هي وزوجها وشقيقها، وفي داخلي صراخ وحوالي طيور بألوان سوداء وسيقان طويلة، كانت تضطجع على ظهرها في منتزه الردف تراقب النجوم وتبصر تحقق أحلامها، وها هي تخدش كبرياءه وقد أكملت اللعبة رفعت رأسها حدقت فيه مبتسمة وطرف شفثيه يرتجفان بعصبية، همست أحببتك إلى حد غير معقول إنما أردت ومن أعماقي أن أنجو منك.

تذكرت أنني كنت اركض في جزيرة لا أنتمي إليها، باحثا عن ماء عن عالم فقدته يوم عطشت أول مرة، كخالد يعلم إن الحاضر تشكل معه الغد والفقد ونهم لشيء آخر، وحين غادر الثلاثة المكان، عرفت أنني كئيب فاجتاحني نوبة اشمزاز من نفسي.



ملهاة

لم يقلقها اتصاله الهاتفي، ولم يستفزها تليبيتها دعوته، إنما جاء استغرابها وقد محتته من ذاكرتها، كتابتها لشيك بالبلغ الذي طلبه.

1436 / 10 / 18



انبعاث الذاكرة

على غير العادة جاء لقاء الصديقات هذا الشهر بمطعم أحد الفنادق، وأنا أتلفت حولي وصخبنا أحيانا يتجاوز الطاولة التي نجلس حولها، لمحتة انه العالم الذي عرفته وعشت فيه وشعرت بقشعريرة تجتاح جسدي، خصلة بيضاء تلون شعر رأسه الكث وكذلك شعيرات بيضاء تحضب ذقنه الصغيرة.

استأذنت مرافقاتي الذهاب للحمام ومررت من جانبه حتى أتأكد من حالتي، تابعني بنظره ولما عدت همس (كيفك فاتن) ولحت ورقة بيضاء صغيرة تتمدد بجوار كأس الماء المنتصب على طاولته، تسمرت في أعماق رؤية يوتوبية أعادتني لزمن تجاوزه دقائق وأنا أحرق فيه ثم أخذت البطاقة ولما عدت لرفيقتي دسستها في حقيبتي.

في الواحدة صباحا وأنا افتح باب المنزل تذكرت القصاصة فجلست على أحد مقاعد الفناء واتصلت، كان ينتظرني غاب عشرين عاما نصفها في السجن والنصف الأخر متجولا في بلاد الله بحثا عن الأمان، قلت: كل شيء هو جزء منا حتى النار وشيء لا يوجد هو السلوان، وان ناقشنا الثقافات والقيم وأثارها العميقة في تصرفنا.

جاءت عودته منذ أيام بعد أن فشل في فهم كيفية بلوغ المستقبل الحلم، وإقامته بالفندق مؤقتة حتى يرتب استقراره بعد خلاف مع بعض أفراد أسرته، ونفور أقاربه منه على ارث من أبيه وأمه حتى تمكن من الحصول على منزل الأسرة القديم، تذكرت كيف تسللت لغرفة السطح يقودني هدف المنفعة وقد غفي الجميع كانت مرة وأحدة إنما الأعمق ولم أستطع التخلص منها.

في اليوم الثالث وبعد أن أنزلني السائق بالسوق التجاري الذي تعودت التسوق منه للبيت وبعد دقائق من الجلوس على أحد مقاعد المقهى الذي يستريح فيه رواد السوق من عناء التجول، تذكرت ضجيج روحي وقوة الإمساك بالمتعة وانتزاعي بعنف لقمة اللحظة الأخيرة مشدودة إلى الأرض وريح عاتية تقتلع أشجار الشوارع.

ركبت سيارة أجره وبعد ضياع بسبب تناول المباني واستحداث الشوارع وصلت كان المنزل منتصبا كما
عنقاء تقاوم الزمن، قرعت الجرس ليفتح الباب كان بملابسه الداخلية (فانلة علاقي وسروال ابيض قصير)
ابتسمت وأفكاري تبعث في طعما لاذعا انتشرت على وجهه عذوبة ملائكية، حديق في ومد كفه ممسكا
بكفي وسحبني للدخل.



غضف

وأنا أغادر مكتبة بطريق الملك عبد الله وجدت فيها الكتاب الذي ابحت عنه منذ أشهر؛ وجدتها على الرصيف اقتربت وقالت: هل توصلنا.

جلست بجواري ومرافقتها الاثنتين وطفل في العاشرة في المقعد الثاني؛ توقفت أمام منزل في حي بشمال الرياض ترجلت والطفل، قالت: وصلهن وسوف تحصل على أجرتك منها.



أجساد عفتة

احترم القواعد وهو يلعب بشرف؛ فخدش كبرياء أسرته تجاوز الرياح العاتية وانتصر في حرب عدمية، وفي لقاء عائلي اتفق مع مخطوبته آن تحضر بفانلة عليها شعار النادي الذي يشجع وسروال جينز قصير؛ قبل نهاية الحفل افتقدها، قالت أمه: عمك أخذها وطلب من أبوك أن تطلقها.



منفرة الكون

والده زميل عمل بالرياض ورحلتي بتكليف من إدارتي للتعاقد مع موظفين جدد، جاء للفندق ترافقه زوجته تبادلنا الحديث على طاولة العشاء، وأبدى استعداداه مساعدتي في إنجاز مهمتي في التاسعة ليلا استأذن بسبب عمله؛ تاركا زوجته لتكملة النقاش.



ثمالة زمن

وأنا أتأمل الأفق وقد تناثر حوي أفراد اسرتي بحثا عن الأمان خارج مدينة الرياض، جاء صوتها تنشد أبياتا تشاركنا نظمها وقد هربنا ذات مساء إلى الهدى حيث أخفتنا أشجارها عن العيون، وقبل فتح باب المنزل رن جرس هاتفي وقال بعد التأكد من اسمي (أميمة هذا الصباح ماتت).

1436 – 11 – 13



عندما غاب الأفق

وقبل أن أقول شيئاً في اللقاء الأول بمقهى في شارع ألتحليه؛ رن هاتفه حدق في وهو يقف ثم غادر الطاولة التي تضمنا، غيوم الحزن تراكمت في الصباح وأنا وزميلاتي بالعمل نطالع أخبار الرياضة في جريدة الرياض، جاء اسمه متصدرا نعيًا على صفحة كاملة لوفاة رجل أعمال كان سببا في موت والدي منذ عشر سنوات.



فزق حلم

ذابت في جسده لما آتوا من فجاج المدن البعيدة، لمشاهدة رقصها وتلوي جسدها، على جمрте راهنت، وفي آخر وهج في دم العنفوان اختفى وحيدا.

1436 – 11 – 13



فتنة الأصقاء

بعد ثلاثة عقود جاء لقاء عابر في حفل زواج ابني البكر الذي كنت احلم أن تكون أمه، لكن سؤال أحد الأصدقاء ونحن نقضي بعض الوقت في مقهى بطريق ديراب (لماذا جاءت والدتك برفقة أخيك) قلت: لمشاورتي في خطوبة ابنة أحد الأقارب، قال: بثينة .! قلت: (لا إراديا) نعم. افتر ثغره عن ابتسامة صغيرة ونحض من مجلسه وهو يهمهم (لا تصلح لك يا صديقي) واختفى بين مقاعد المقهى.



هناك الفرقوس

بعد تخرجي من الثانوية وحتى لا أغانر الطائف وحتى لا تبقى قلقة على ابنها البكر، التحقت بالعمل في إدارة حكومية يرأسها أحد أقارب والدي كموظف على بند التشغيل، حتى تتم موافقة الوزارة بالرياض على التعيين الرسمي.

غير إن أمي لم تفرح طويلا ببقائي إذ توفت إثر وعكة صحية عارضة، معها شعرت أن إخوتي من أمي ووالدهم يرون بقاءني يزعجهم، بينما المنزل الذي نقيم فيه املكه معها بالشراكة من ارث حصلنا عليه من أسرة والدي، الذي طلق أمي وأنا في الرابعة.

عرف مدير الإدارة بمستجدات حياتي فسرع طلب تثبيتي على وظيفة استقال صاحبها، مطالبها تتفق مع مؤهلي وخبرتي العملية، وأكد علي أن أقاوم العواصف والرياح الباردة، غير انه بعد عام من صدور قرار تثبيتي كموظف رسمي جاء تقاعده وتعين مدير جديد للإدارة.

وبما إن المدير الجديد من خارج مدينة الطائف، فقد وجد في المساعد الذي يثق فيه لترتيب إقامته، أقام في الفندق ثلاثة أشهر حتى تمكن من استئجار فيلا في حي الشرقية، تابعت تأثيثها وطلب مني استقبال زوجته وأولاده الثلاثة بالمطار لانشغاله بمناسبة رسمية يرعاها أمير الطائف ويشرفها الوزير.

في التاسعة ليلا كنت انتظر بالمطار، وقد تأكدت من لوحة الرحلات أن رحلة العائلة في موعدها، لمحت الزوجة وقد تلفعت بالسواد وبرفقتها ولدين وبنات تتفاوت أعمارهم بين العاشرة والرابعة، تجاوزت ارتباكي رفعت صوتي مناديا باسم المدير لتركض نحوي الطفلة ثم الولدين واقتربت المرأة.

لم يكن هنا عفش زائد وفي العربة كانت المرأة تجلس خلفي، كلما حدقت في المرأة لسلامة الطريق كنت أجدتها أمامي، طرح أكبر الولدين بعض الأسئلة لمعرفة معالم الطريق، بينما الثاني كان صامتا والطفلة ذات السنوات الست الجالسة بجوار أمها تحرق في كلما تكلمت وقد فتر ثغرها عن ابتسامة صغيرة.

فتحت باب المدخل ثم فتحت الباب الداخلي للفلا وعدت للوقوف بجوار السيارة، ترجل الجميع ووضعت في الفناء العفش وأغلقت باب الفناء، وأنا أهم بالتحرك فتح الباب كان الولد الأكبر تريثت وفتحت زجاج باب السيارة الجانبي، قال بصوت خافت (جوعانين نبغى عشاء) طلبت منه مرافقتي، دخل مستأذنا وتركته يختار المناسب.

اتفقت مع إخوتي من أمي ووالدهم على بيع المنزل، واشعرنا أحد مكاتب العقار بذلك وبعد عشرة أيام طلب مني صاحب المكتب مقابلته ووجدت زوج أمي وعرفت انه يرغب في شراء نصيبي بشرط أن أتنازل عن ارثي في نصيب والدي، وبعد جدال لمعرفة المبلغ الذي وصل إليه ثمن المنزل، طلب مني صاحب المكتب التفكير.

يبدو انه يجب علي إزالة معالم الحزن (الهوة السحيقة الممتدة حتى النجوم) الذي تلبسني بعد رحيل أمي، كيف لي أن الغي هذه الحالة التي تشاركني كل خطوة منذ خمس سنوات، مكبلة خطواتي داخل سور الطائف متخيلا إن هناك حقول ألغام تترصد خطوات الرحيل.

وجاء اتصال صاحب المكتب كان حديثه ودوداً وصادقاً كان يعرف حسب خبرته في السوق العقارية، أن المبلغ الذي سوف أخذه بعد بيع المنزل يمكنني من شراء شقة بأحد المباني الحديثة، إضافة إلى أن موافقتي تعد صلة رحم وصدقة؛ يسعد أمي في قبرها وقد وفرت الأمان لأخوتي.

هل كان الموت جزءاً من متاعنا، تأملت هذا وأنا اجلس مع الأصدقاء في المقهى وقد تخيلته يجلس مع أمي في الزاوية المقابلة من المقهى، كانت أمي تتحدث وكنت اسمعها تقول شارحة (سعادتك تجعل الفراش طريا . حيث تأكل الدببة البرية من أيدي الصغار) وكان بين وقت وآخر يلتفت محذفاً في، ولما نهضنا قررت الاقتراب منها لأكتشف أن الزاوية فارغة وان خيالي يساعدني على اجتياز الطريق.

رايته في متاهة أحلام الفردوس، طلب مني المدير وهو قد اعتاد تكليفي ببعض المهام الخاصة إحضار زوجته من حفل زواج تحضره، كانت الثالثة صباحاً تفتح باب السيارة لتجلس في المقعد الجاور، رفعت غطاء وجهها وسحبت وهي تتخلص من العباءة مناديل ورقية أخذت تزيل أصابع وجهها وتمسح عرق صدرها.

لحنتها تتخلى عن جزمتهما ثم رفعت طرف فستانها حتى ركبتيها، لتتمكن من التخلص من الشراب الحريبي اللدن، ولما سكنت قالت بصوت خافت (أنا عطشى) غيرت طريقي متجها إلى الهدى قاصدا محطة بتزول اعرف إن المقهى والمطعم وبقالتها تستمر في السهر، وقمت بشراء قنينة ماء وقنينتي عصير ليمون، شربت جزء من قنينة الماء وسكبت الباقي على صدرها.

غادرت السيارة حافية القدمين فتحت باب الفناء ودخلت تاركة العباءة وحقيبة يدها، تراجلت من السيارة حاملا الحقيبة والعباءة، كانت تنتظري على باب الفيلا لوحث بكفها حتى أغلق باب الفناء وتبعتهما في غرفتها طلبت مني مساعدتها على التخلص من فستانها.

ارتدت ثوب نوم شفاف وجلست على مقعد التسريحة، طلبت مني (تهميز كتفيها) التقت نظرانا في المرآة أغمضت عينيها بعض الوقت، ولما فتحتها سحبتني وأجلستني على فخذيها وأخذت تعلق عنقي ثم زرعت قبلة طويلة على فمي.

أخيرا وجدت بصيص نور في قناع روحي المتعب وامتدت يد الله شاقة صدري لتغسل قلبي من غضبه، شعرت بحرارة جسدها العالم كله هنا حيث أنا الآن تتجمع قطعي المحترقة وعرفت إن الروح عائدة (كنت بحاجة إلى محيط ودود) وأنا اصعد وحوالي نسمة ريح مبللة بقطرات مطر.

في العاشرة صباحا تنبهت تذكرت العمل وتأخري تجاوزت القلق والخوف الذين حطا فجأة في أعماقي، وجدتها في صالة الجلوس أمسكت بكفي وهي تهمس (الطور زاهب) جلست قبالي صمتها يشعري انه لم يحدث شيء وعند الباب (اكتشفت أنها الكمال الذي ابحت عنه) ودعنتي بضغطة خفيفة على كفي.

تتعمق الوحدة وان تفرقت السحب السوداء، الوسواس تمزق نفسها ببطء تذوب في لحظات اليقين، مواصلا الطيران عاليا مع الحلم والأوهام البعيدة انتقل من شجرة إلى شجرة تجذبني الغصون المزهرة (يا أماه ابعثي لي الحب) حتى أتجاوز الرطوبة القاسية التي تحيط بي.

في المقهى وقبل أن يصل الأصدقاء انطلقت فكرة التمرد على ذاتي، جاء النادل يشع بياضا وهو يقدم طلباتي، حدق في وقال (الليلة لن يأتي أحد) وغادر لم ينتظر استفهامي، حوالي هبوب مطر خفيف ارتفع معه

حفيف أشجار المكان سمعتها تقول (اطلب كأس ماء) كانت أُمي تجلس بالكرسي الملاصق لمقعدي وكان النادل المشع بياضا يناولها الكأس.

جسدها الغض بدا أكثر رشاقة في ثوبها المخملي الأسود، غدت سيدة مكتملة واثقة من تصرفها حريصة على احترام موقفها ختمت حديثها (ولدي لك مطلق الحرية بالرحيل سوف أجدك أينما تستقر) ونهضت شاركها النادل المشع بياضا السير، حاولت اللحاق بهم غير أن قدوم اثنين من الأصدقاء أعاقني.

طلب مني مدير الإدارة الحضور لمكتبه، لما دخلت أمر مدير مكتبه إغلاق الباب، كنت واقفا حدق في ثم سحب ورقة من ملف أمامه على المكتب، مدها لي وطلب مني الجلوس لقراءتها قال (هذه خيارات مدن أخرى للنقل) قلت (مبروك) قال (اخترت المكان المناسب بشرط أن تكون معي) أحسست بألم لاذع وارتعاشه قوية تهز جسدي.



خضوه قوس قزح

في شارع المعتم وبجذر وجدت مكاناً لسيارتي ليس بعيداً عن المنزل القديم الذي استأجره منذ ثلاثة أشهر بالقرب من مستشفى الشميسي منذ تم نقلي على ضوء ترقية في الوظيفة مقرها الوزارة بالرياض.

الساعة الواحدة بعد منتصف الليل كنت راجعا من حفل عشاء أقامه الزملاء بالمكتب الذي اعمل فيه مساعدا لمديره بأحدي خيام منتزه الرمال، ولما حاذيت باب المنزل سمعت أحدهم يقول (أنت.. أنت.. أنت) تلفت حولي ولحتها بباب موارد طفلة غابت معالمها.

اقتربت وجلا ومعلمها تتضح وجه ابيض مستدير وشعر اسود قصير ناعم خصلة منه تغطي جبينها وثوب قطني ابيض بخطوط قوس قزح انسدل حتى ركبتها ولما وقفت بادرتني (كنا ننتظرك) تجاوزت الممر المظلم وقد تسلل الضوء من أبواب مشرعة.

سبقتني إلى باب في الجهة اليمنى لأجد سيدة تقتعد كنية مزدوجة قامت لما لحتني ومدت كفها مسلمة، ببيضاء رشيقة القوام شعرها الأسود منسدل بحرية ترتدي ثوبا ابيض تتراقص مع تعرجاته ألوان قوس قزح.

عرفت أنها لحتني مصادفة وعرفت إني غريب ووافد على الحي ولما تكررت المشاهدة قررت دعوتي للعشاء والتعارف، الهدوء والسكينة يدل أن لا أحد هناك والطفلة الساكنة بالمقعد المقابل تتابع حوارنا، وقد أحضرت جيك ماء بارد وجالون صغير لعصير فواكه مشكل سكبت كأس لي وآخر للمرأة.

مسحت رأسي بكفها وقالت (هل تنام عندنا) وهي تردد (تفضل.. تفضل) تبعتها لفتح باب غرفة عبقة الرائحة والضوء الخافت يخفي ألوان أثاثها، كل جزء من جسدها يدعكي ولما هدأت ثائرتها وقفت بجوار الفراش لتخلع ثوبها، شعرت ببرود جسدها وعنفوان حركتها وهي تأخذني إلى مغارات جسد أجهل معالمه وحقيقته، فكل ما اركض معه نزوات جربت بعضها إنما لم أصل إلى الحالة التي الآن أعيشها.

فتح باب الغرفة الموارب كانت الطفلة؛ معه همست المرأة في إذني (جاءت لتأخذ نصيبتها) لم افهم العبارة حتى دارت حول الفراش، لتمد كفيها لملامسة جسدي أنفاسها تلفح عنقي وشفتيها تزرع قبلات صغيرة على ظهري، ولما لامست كفي مؤخرتها سكن حراكها وانفجرت ضاحكة.

نمنا في الفراش ومع السكون المحيط بالمكان وعلى ضوء الشمس تنبهت؛ لم يكن هناك أحد كنت أنام على فراش ممزق ممدد على الأرض، في غرفة جدرانها ملطخة بالسواد، المكان متداعي ومهجور وأثار الخراب في كل مكان، عند الباب وجدت سيارتي وأنا أدير المحرك، قال: رجل بملابس رثة وقف بجواري بعد إلقاء تحية الصباح (عسا ك تبي تشتري البيت) هزرت رأسي وأنا أتطلع في ساعتي كانت العاشرة والنصف.



السائق الياس

لم يعد هناك مكان للقلق وأنا في طريقي للمطار في رحلة عمل وقد غمرني إحساسٌ مليءٌ بالأمل، جاء حديث سائق التاكسي الآسيوي غريبا وحتى أتأكد من صحته طلبت رقم جواله للتواصل عند عودتي، خلى المنزل من الجميع وتلبسني معه رطوبة قاسية تسكن أعماقي وبقيت أتابع إكمال أوراق تقاعدي من العمل، كان السائق الآسيوي ينتظر اثر حديثه وهو يتكفل بتوصيلي لمقر عملي.

امن السائق الذي عرفت إن اسمه الياس من أول اتصال عاملة منزل وقال وهو يناقش راتبها (جرهما) الواقع شكل صدمة قاسية خسارتها غير مأمونة، في عطلة نهاية الأسبوع وفي اليوم الرابع من دخول خديجة المنزل وأول يومي عطلة نهاية الأسبوع، صحوت على حركتها بالمطبخ تقلبت في الفراش اطرده الكسل باحثا عن ومضات الصحو.

نزلت الدرج واتجهت للمطبخ كانت خديجة بحابسة الصدر وبنظلون جينز يبرز مكونات جسدها الأبنوس إلا انه رشيق ومفعم بالحيوية، جلست على أحد كراسي طاولة الأكل وقد تعددت أطباق الفطور إذ الساعة التاسعة صباحا، وأنا أتناول بعض اللقيمات دعوتها للمشاركة تمنعت بصمت وغادرت المطبخ.

عدت لغرفة النوم إذ لا شيء يدعوني للخروج ولم اهتم بتشغيل التلفزيون، سمعت نقرا خفيفا على الباب الذي فتح كانت خديجة، التي اتجهت للحمام لتعده حتى استحم واستعد لصلاة الجمعة.

وفي الثانية بعد الظهر كنت اجلس وحيدا على طاولة الأكل، منذ عام وحيدا جاء الترفع لمرتبة أعلى وبمسمى قيادي في المركز الرئيس غير أن زوجتي وابني بقيا في الطائف واجل مدير عام الشؤون المالية والإدارية ندي وقد تم التنسيق حوله مع مدير الفرع الذي اعمل به كمدير مالي.

ومعه بعد ثمانية أشهر قررت الاستقالة من العمل الحكومي فخبرتي الإدارية والمالية مطلوبة في المؤسسات والشركات الأهلية، ومعها عرفت أن التحفظ جاء من اكتشاف اختلاس ورشوة وفقد مستندات مالية

لأعمال تابعة لقسم المشاريع بالرياض ورد فيها اسم أحد كبار موظفي المركز، وعلي الانتظار والتفكير مليا في إكمال إجراء استقالتي.

في الثامنة ليلا جاء السائق الياس لأخذ خديجة كما هو متفق لساعات العمل، وفي السابعة صباحا جرس الباب قرع كان الياس وخديجة وأخرى؛ في صالة الجلوس عرفت أن خديجة طلبت الأخرى لتقوم بالتنظيف وغسل الملابس وهي تعد الأكل وتعمل الشاي والقهوة وتجهز العشاء قبل المغادرة.

طلب الياس أجرة الأيام التي عملتها خديجة وأجرة يوم للعاملة الثانية، استسلمت للتأمل في أمر لم أستطع تغييره من خلال تأمل بعيد ويأس، وبعد تناول الغداء وشرب الشاي في صالة الجلوس متابعا مباراة كرة قدم في الدوري الأوربي، لمحت خديجة تقف بباب المطبخ خلفي تتابع المباراة، دعوتها للجلوس ومع نهاية الشوط الأول نهضت تابعتها تصعد الدرج وبعد دقائق كانت تهبط والعاملة الثانية.

انتهت المباراة وواصلت تأملي وهناك من يحلل المباراة مع لقطات منها، مذكرا بالمباراة التالية بعد ساعة وانتظار الجهول يضايقي تخيلت أي الآن ميت وقد اختفى الضجيج الذي يرافق تحركي واني أغرق في الظلام، وانتزعتني بعنف صوت طلال مداح يردد أغنية تشعري بالسكون فأغمضت عيني في حلم غابت ملامحه.

تنبهت على صوت خديجة وهي تطلب مني السماح لمرافقتها بالرقص، ابتسمت فربتت على كتفي ثم جلست على الأرض عند قدمي تتابع رفيقتها وكفيها ينهبان بحركة لم استوعبها ساقى وفخذي المغطيان بثوب النوم الواسع واللدن.

اتصل السائق الياس في العاشرة ليلا يعتذر عن إحضار خديجة في الصباح وان هناك من سوف يحضر الأخرى، جاء يوم الأحد مزدحما بالعمل معه تأخرت للرابعة عصرا ولما دخلت المنزل شعرت بالفراغ توجهت للمطبخ كان الغداء على طاولة الأكل فصعدت لعرفتي أبدل ملابسني، كانت الأخرى راقدة في الفراش.

أخذت أتأمل جسدها الراقده على جانبه الأيسر، تنفسها مرتفع ويتخلله شخير متقطع يملا فضاء الغرفة الساخنة في ضوء حاد، بدلت ملابسني وأنا أهمهم (لا شيء يبقى سوى الذكريات) تركت الباب مفتوحا وعدت للمطبخ وطاولة الطعام وجلست أمام التلفزيون في صالة الجلوس لتهدأ وقد تبعثر شعر رأسها مرتدية ثوب نوم قصير أتذكر انه لزوجتي كاشفا جسدي يمكن احتواؤه بطرفة عين.

دخلت المطبخ وعادت تحمل براد الشاي وكأس ماء مثلج بعد وضعها أمامي انخنت تقبل رأسي وهي تهنهن بكلمات لم افهمها، أمسكت بكفها أتأمل صدرها المتهدل عبر فتحة الثوب الواسعة وشعرها الأشعث، أخذت اضحك انهارت في حضني كل شيء فيها يرتعش؛ تنبتهت ومؤذن المسجد المقابل لمنزلي يقيم الصلاة.

كنت مثل ناج يسبح خارجا من سفينة غارقة إنما تخيل موج البحر أشجار تتسلق منحدرًا تبدو كأنها الطمأنينة التي فقدتها، بعد لحظات من الصمت تلفت حولي وأحدهم يقول بصوت رقيق وخافت (كل هذا سيكون مطمئنًا) العتمة تحيط بي والتلفزيون مغلق أشعلت النور وأنا اصعد الدرج وجدت زوجتي في رأس السلم تبسمت وأمسكت بكفي.



السقوط

يثرثر في بعض من سهراته مع الأصدقاء عن انتصاراته؛ وفي اليوم العاشر على وفاها عشر وهو يعيد ترتيب غرفة النوم على دفتر مذكراتها، عرف أن أولاده الأربعة وبناته الثلاث نتاج علاقات خاصة، في العاشرة اقتحم عيادة ابنه البكر بالمستشفى العام؛ الذي استدعاه الممرض من اجتماع يشارك فيه جاء راكضا ليجده ميتا.



المسبح

الموت منذ كنت في الرابعة من العمر يسير معي؛ والليله اختفى تلفت حولي علي المحه على إحدى طاولات المطعم؛ بعد انتهائنا أنا وزوجتي من إكمال فنجان القهوة، أمسكت بكفي وسحبتني خلفها عند الباب كان ينتظرنا بسيارته، غادرنا المدينة إلى ضاحية زراعية ولجنا مزرعة سياجها مرتفعا واندغمنا في ممرات زراعية، وبمحاذاة المسبح وقفت السيارة زوجتي بعد فتحها لباب السيارة تجردت من ملابسها وقفزت عارية في الماء، سائق العربة قلدها وارتفع صراخهم في المسبح؛ وأنا أراقبهم شعرت بأنفاس حولي كان الموت رفيق دربي أشار بإصبعه نحو الاثنان ثم وجهها نحوي.



خهولة

عندما انطلقت لم أكن أتوقع إن وجهتي معاكسة لهدفها، لما دخلت المقهى القابع في بوابة المدينة؛ قال النادل: هل أنت مطارد! قلت: حتى ألحقها. ابتسم ولما عاد لأخذ ثمن فنجان القهوة، قال: هي خلفك منذ ساعة ركبت الباخرة مهاجرة إلى أمريكا.



تلبس

من خلال لقاء عابر تمكنت من إشعال النار الخامدة منذ أربعين عاما؛ وفي حفل خاص حلقت الدهشة فحطم العبت جدران الخوف الأسمنتية، ولما جاء غيابها لم تصدمني تفاصيله فلم أسعى إلى غلق النوافذ التي شرعتها، وكانت أسئلة من حولي تدفعني للركض في الغابة بحثا عن شجرة توت.



رخص

بعد فشله في جعل زوجته عتبه لتحقيق هدفه هرب نتيجة خوفه وغضبها؛ ولما شعر بالندم وجد في صندوق بريده في الغربة؛ حكم المحكمة بخلعها لعدة أسباب أهمها الغياب وإهماله نفقة ابنته.



لما عصف اللمب

بسبب نصائح والده المتلاحقة نمى في أعماقه كره اسود للمنزل؛ فتعدد أصدقاؤه وان سعى البعض على الاستئثار برفقته؛ تذكر هذا وهو يشاهد ابنه المتخرج حديثا من الجامعة، يؤجل موعد زواجه ليسافر مع وفد أهلي لتقديم المساعدة للمناطق المنكوبة بالجفاف؛ عاد الوفد ولم يعد ابنه ولما سأل عنه لم يجد الجواب.



مشاركة

انتهى الثاني من إلقاء ورقته؛ فدعا مدير الحوار الثالث لقول ما عنده، وتداخل الحضور في النقاش؛ ونحن نتناول العشاء تذكرت أني لم اقل شيئاً؛ مع إني في ترتيب جلوسنا على المنصة كنت الأول.



المسرح

شبهت حبه بقبر قديم سرق اللصوص شاهده؛ كان قبل الاختفاء مضطربا خارجا عن سيطرتها وفي أخبار
الواحدة بعد منتصف الليل بالتلفزيون؛ جاء اسمه وصورته في خبر تفجير انتحاري نفسه وقد حاصره رجال
الأمن في استراحة بشمال الرياض.



خيانة الغيم

بعد أن وصلت للمركز التجاري طلبت من السائق العودة للمنزل، جاء في الموعد المحدد وولجا أحد المطاعم؛
أثار حنقها حديثه عن السفر وهي من جاءت لمساعدته، وقفت بدعوى الذهاب للحمام ولما عادت لم تجده.



التصحر

تدهور الأرض الزراعية بسبب زحف الشجيرات الشوكية، وتصحر أفكاري وجسدي مصدره مقت صديق غرق حتى أذنيه في ملاحظتي؛ لما تجاوزت الرعب لم أتخلص من الشك فيما أنا فيه؛ وقد تمكنت من تأكيد وجودي بشكل جدي.



الجدار الفاصل

جاء صوتها عبر الجدار الفاصل بين منزلينا؛ تحتاج الهاتف حتى تتصل بوالدها فشقيقها مريض وأمها قلقة عليه؛ وبما إن سلك الهاتف طويل فقد تمكنت من تحقيق طلبها الذي تكرر في مناسبات أخرى أثناء غياب زوجتي.

ولما حل موعد ولادة زوجتي وبعد أربع سنوات انتظار لمولدها الأول انتقلت من المستشفى لمنزل والدها، لمتابعتها صحيا من قبل أمها ومساعدتها على رعاية الطفل، شعرت جاري بوحدي فتجاوزت حديث الحائط، بقرع الباب محملة بطعام العشاء وإجراء مكالمة هاتفية من خلال أرقام تسكن ذاكرتها.

وعرفت إن سبب عدم وجود هاتف بمنزلها، رفض والدها المراجعة والبحث عن واسطة بسبب أزمة أرقام جديدة وتمديدات متعثرة في الحي، كل شيء فيها مبتسم وكل شيء فيها قلق ومبعثر تركت الدراسة بعد فشلها اجتياز أولى ثانوي منذ عشر سنوات؛ وسفر خطيبها للدراسة منذ أربع سنوات إلى بريطانيا.

وانشغال والدها بعمله وسفرياته المتكررة، وعناية أسرة والدتها بهم واتصالهم المتكرر للاطمئنان عليها وعلى شقيقها وأمها، كانت بعد انتهاء المكالمة تغادر مسرعة وكأن شيئا يحدثها للحاق به، لم اهتم بغياب زوجتي وأعدارها التي اشعر أنها مفتعلة للمكوث بمنزل والدها.

وذاوات مساء والظلام مخيم على الكون بسبب سحب متلبدة في السماء؛ نبهني من غفوتي جرس الباب كانت جاري مستنجدة إيصال شقيقها للمستشفى، حملت الابن وأممه وفي غرفة الطوارئ تابعت فحصه، ونصح الطبيب بان يبقى تحت المراقبة أربع وعشرين ساعة، وتابعت نقله لسرير في الدور الرابع، وموافقة الطبيب بقاء أمه معه بضع ساعات فزودتها برقم هاتفي للاتصال إذا لم يتواصل أحد معها.

وأنا أهم بإغلاق الباب جاء صوت جاري عبر الجدار تسأل عن شقيقها فطلبت منها الحضور وتركت الباب مشرعا، جلست على أحد مقاعد صالة الجلوس، وسمعت الباب يغلق ووقع خطواتها، جاءت أنفاسها ورائحة

عطرها لحت هلعها فقامت طوقتها بذراعي سكن رأسها على كتفي، وشرحت لها حالة شقيقها شعرت أن أنفاسها تهدأ ودقات قلبها تعود للنض الطبيعي.

بعد جلوسها عرفت أن والدها عند زوجته الأولى، أحضرت لها كوب ماء من البرادة في المطبخ، نهضت وأشعلت التلفزيون تبحث عن قناة تتابع مسلسل أجنبي مدبلج للعربية العامية تعيد عرضه في هذه الساعة، وكلما تحول الحوار الشائك للحميمة كانت أصابع كفها اليسرى تتقلص ولما نهضت مع انتهاء الحلقة رجوتها البقاء فأمرها في المستشفى لم ترد وضعت كفي اليمنى على كتفها حدقت في ولما عدت لمقعدي جلست في حضني.

أحسست بها ترتجف وقد أغمضت عينيها ركضنا مقتربين ولما توقف انفعالنا تمددنا على الأرض، قامت بإطفاء الأنوار وعلى أشعة شاشة التلفزيون أخذت تعرف ما يشبع ظمأها، رن جرس التلفون كانت أمها تنتظري فقد اجتاز ابنها حالة مرض الربو التي كانت ضيق تنفس بعد كشف الطبيب المختص.

تابعته بنظري وأنا أدير محرك السيارة حتى دخلت الدار؛ زوجتي طلقني بعد مشادة مع خالها الذي جاء من رحلة علاج طويلة؛ معه أخذت إجازة من عملي وسافرت في سياحة البحث عن ذاتي؛ في الشهر السادس على عودتي اكتشفت أن المنزل المجاور مغلق وتنتصب على جداره لوحة مكتب عقار تعرضه للإيجار.

زرت مكتب العقار بدعوى استئجار المنزل بينما كنت أبحث عن معلومة ترشدني لجارتي؛ قال صاحب المكتب إن المنزل جديد بناه صاحبه من اجل سكنى ابنه المتزوج حديثا والذي حصل على بعثة دراسية قبل اكتمال البناء الذي توقف بسبب سجن صاحب شركة البناء



عندما أكلت حواء التفاحة

البدء كان تعطل سيارتي الرابضة بمواقف المركز التجاري فأوصلني لشقتي؛ وتزامن تسوقي الشهري مع برنامجنا فكلنا من وطن وأحد في بلاد الغربية، قبلت دعوته لزيارته فكان الغذاء الذي معه تجاوزت عطش الصحراء؛ اليوم وأنا أرافق ابنتي بسوق طيبه لشراء حاجتها من الذهب كعروس؛ حدق في ونحن نتجادل على السعر قال: أمرك زينب لن نختلف.



المذبح

بعد العودة لنقطة الصفر قرر اختبار مسار جديد حتى يصل؛ في نهاية العام الثاني من السير عبر عناوين إرشادية مزروعة على الأرصفة؛ وجدها تنتظره كل شيء فيها جديد ضابقته رائحتها فعاد ركضا لنقطة الصفر.

1437 – 4 – 10



هذا الفصل لم يكتبه

بعد أعوام عمل ثرية بالحياة غادرت الرياض، فيها الجامعة طبعت ثلاثة كتب في مجال تخصصي في النقد الأدبي؛ ودار نشر طبعت روايتين وكتاب ضم مقالات وأبحاث أدبية؛ وهذا العام صدرت روايتي الجديدة وها أنا أوقع نسخها في جناح الناشر بمعرض القاهرة للكتاب، وعلى وعد بقاء تلفزيوني في القناة الثقافية في الثامنة ليلا للحديث عنها.

صدمني حديث المذيع وهو يقدمني للمشاهد عن مضمون الرواية وتكراره اسم عامر كشخصيتين عامر الابن وعامر الأب، أخذت أتصفح نسخة الرواية التي تنام على الطاولة أمامي، أتذكر إن المسودة تضم أربعة فصول في الطبعة الفصول خمسة، من الصفحة الأولى في الفصل الثالث برزت أنا كمتحدثة تحتشد بين السطور، وهو المتيقظ من استطاع إعادة صياغتي كامرأة نسيت جسدها.

فلم يذكرها زوجها بما كانت وهو يرى في جراءة زوجة زميل في الجامعة تنتفخ بالتفاصيل دافع لإعلان إعجابه بقوة شخصيتها، فشعرت إني أنافسها بجموح في تكوين علاقة استأثرت بتفكيري وحفزت واقع جديد هو جزء هام في سطور الرواية الجديدة يؤكد انها كل ما ينوي فعله.

هو وأنا وهي ثلاثة أشخاص لا يكون أي منا فيها مغبونا وان بدوت مضطربة في كسب وده وكلية ذاتها رغبات وحشية تنثني داخلها ترسم أشكال أليفة، اما هي فدمية ترقص بخفة تكاد لا تلامس الارض.

مع الوقت استولى عليها واقعها بهدوء فكان عامر الابن قبل ابتعائه لنيل درجة الدكتوراه إلى كندی، لا يمكنني السيطرة على غضب اشتعل في داخلي شوهت وجهي تكشيرة، غير أني تماكنت وقلت بصوت مرتجف وأنا أغادر الأستوديو: هذا الجزء لم يكتبه.



قدشعريرة يقضه

حتى أتجاوز احتقان وجهي ومزاجي السيئ اخترعت كذبة نسيان حبوب السكري بالشقة؛ ولم أناقش شقيقي الأكبر وهو يطلب انتظار السائق الذي يوصل زوجي للمطار، في الشارع ركبت أول سيارة توقفت وطلبت من السائق الوقوف عند مركز تجاري، أمام باب العمارة أصر على حمل المشتريات، في المصعد الصراخ المدعور اخترق جمجمتي؛ فتحت باب الشقة وأنا اتجه للمطبخ كشخص استثنائي يبحث عن جرعة ماء. سمعت الباب يغلق بالمزلاج.



تصرف مشنين

أخذ يرتجف خوفاً في فراشه وقد هجره النوم، خشيت أن أحدهم لمح ينتظر امرأة تعرفت عليه عبر الهاتف؛ متناسياً إنها بعد كوب قهوة في الكوفي شب غرقت معه في قبلة طويلة قبل مغادرة سيارته، اعتاد الظلمة فشعر بالهدوء متذكراً سنوات الحرية القصيرة، التي دفعته إلى إنهاء حياة العبودية التي دخلها راضياً.



تراكم الثلوج

هذه رحلتها المشتركة الرابعة شعر هذه المرة بإعجابها، رحلته الأولى كانت ممتعه بتحقيقها هدف السفر كرجل أعمال قادم من الصحراء، في الرحلة الرابعة أوصلتها جدة النقاش إلى غرفة فندق بسرير مزدوج كخبير تسويق.



الرافد

جاء اللقاء محققا أهدافه فقال شريكي بالمشروع ونحن في السيارة، كاد مسعانا يفشل لولى الحظ واقتناع مدير الشركة المنتدب الذي منحنا تنفيذ الأعمال بالسعر الذي قدمناه، في اجتماعنا الشهري كأصدقاء قرر أحدنا اختصاره فيه بمناسبة قدوم شقيقه من الطائف، وجدت مديرة الشركة المنتدب في المناسبة، وبرزت الذاكرة فقد كانت أنثى صارخة تتسوق ذات ليلة في أحد المراكز التجارية شاركتني فنجان قهوة.



غبنش

وأنا أقف بسيارتي في ممر الخروج التابع للمركز التجاري لفت انتباهي خطأها السريعة وتلفتها ولما جلست بالمقعد الخلفي قالت حي المربع لو سمحت تسهل تجاوز الممر وسرت عبر الشوارع حسب توجيهاتها حتى توقفت أمام باب منزلي الذي لم يبقى به أحد نقدتني عشرين ريالاً وهي تترجل انتظرتها حتى فتحت الباب ودخلت.



عصف

لامت نفسها وأصابتها نوبة الشمنزاز؛ لم تعد تشعر الآن بأي رغبة في التقاء أحد فما حدث كان فظيعا معه
فقدت ثقتها فيما كانت؛ تجاوزت أحاسيسها وهو يقول كم أنت مدهشة؛ رن جرس هاتفها النقال بنغمة
خاصة دفنت رأسها تحت المخدة وأغمضت عينيها.



هذيان

هي زوجة المستشار، هو مستشار في قسم العقود، أنا سكرتير لجنة العمليات، المناسبة المستشار في رحلة عمل أوصلته للمطار وقبل أن تترجل، بحديثها الودود وابتسامتها الصغيرة، طلبت بعض حاجيات المطبخ، دست ذراعها تحت إبطي في شغف لتمارس لذة خلقتها اللحظات التي قضتها واثقة من عودتي.



ابتسامتي

تجاوزتها في دخولي الصيدلية لشراء حبوب للضغط استعملها منذ سنوات؛ وأنا أهم بالخروج التقينا بالمدخل تابعتني تأمل شراء دواء لا تستطيع اقتناؤه لفقرها، صوتها الرخيم وملامح وجهها المستور بغطاء اسود شفاف وجسدها الملتف بعباءة مزخرفة، أغرياني بمداعبتها في الحديث وأنا اتجه لسيارتي، سايرتني بالمشي على الرصيف وعندما فتحت الباب رفعت الغطاء عن وجهها؛ لما ابتسمت فتحت باب السيارة الآخر.



ألف

إنني ذاهبة ولبست عباءتها، اليوم جاءت تميز حزنها عن الباقين، لما رن جرس هاتفها قالت: جاء؛ وهي تفتح باب السيارة همست انه ابنك، فتذكرت أنها قالت: (حينما لا يلوث الظل خطواتنا نميز هلت الليل) واختفت.



المتاهة

تدفق الدم فتبللت بالعرق كفي، كانت الطالبة التي تستجدي المغفرة في غرفة مديرة المدرسة التي استدعتني كمشرفة تربوية زائرة للاطلاع، ابنة رفيق نزع المراهقة.

عرفت إنها تقيم وإخوتها الثلاثة في منزل جدها، وأن والدها مات في حادث سير منذ خمس سنوات.

صمت المديرة رابني؛ لما خرجت الطالبة من الغرفة قالت المديرة: كان والدها زوجي في زمن تجاوزه.



جلنار

قررت زيارته في مكتبه الجديد وأثناء الحديث دخلت برفقة السكرتير؛ عرفت إنها على موعد سابق نهضت للمغادرة؛ وأنا أتناول من أحد الموظفين بعض النشرات التعريفية شعرت بأنفاسها؛ قبلت دعوتي لتوصيلها وفي المسافة القصيرة عبر الشوارع المزدحمة تجاوزت ملامحها الغامضة.



ترحل لمحضات لا لون لها

في زمن ذاك الحلم: وقد امتد المكان حتى لم تعد له نهاية؛ طلبت مني أخذها إلى حفل تسعى كصحفية لتغطية فعاليات، المكان حديقة عامه في طريق شهرار والمناسبة احتفال بموسم زهرة الورد، الموقع بين بوابتين بوابة مستشفى (شهار) الصحة النفسية وبوابة مستشفى (الدرن) الأمراض الصدرية، وفي انتظاري شرعت باب المنزل ورجتني هامسة اخذ أختها الأكبر التي تزورهم وطفليها لتصورهم؛ ونشر صورهم مع التغطية الصحفية بالجريدة، ولما عدنا رأأت الأخت إيصال شقيقتها أولا حتى لا تلاحظ أمها حضورنا المتأخر.

فكانت عفويتنا استجابة الفكرة، ولما وصلت لدار الأخت تذكرت أنها بجاه لبعض الأغراض تجولنا في الشوارع بعد انتقالها من المقعد الخلفي لتكون بجواري، وفي محطة بنزين تضم مركزا تجاري ومقهى في طريق الهدى عشرت على مطالبها؛ كان الطفلان نائمين ابن في الثانية وابنه في الرابعة، أوقفت السيارة في شارع خلفي للبرج السكني وحملت الطفلة وهي حملت الطفل وفي المصعد ران الصمت.

فتحت باب شقة في الدور السادس، ودخلت خلفها العتمة والهدوء يخيم ولجنا غرفة نوم الطفلين ورقد كل وأحد في سريره ونحن في صالة الجلوس، دعنتي لشرب الشاي ومشروب بارد كانت الساعة متأخرة؛ اعتذرت وقد عرفت إن زوجها رجل الأعمال مسافر منذ عشرة أيام وخادمتها تركتها في منزل والدتها: يدفعي نسق اجتماعي بولغ في خلقه. كنت خليطا قويا لا يقهر؛ بينما كنت أيضا: لم أكن ذلك الشخص القادر.

تنبهت من الحلم: ونحن نجلس بجوار جذع شجرة وارفة في منتزه الردف الطبيعي نستشرف الذي سوف يأتي، قررت الزواج فأنا وان كنت حبها ودفء الشمس التي تنشر الطمأنينة في أعماقها ومن شعرت بوجودها معه؛ غير مناسب وبلا طعم في حالتها، وبعد ثلاثة أشهر من رحيلها جاء اتصال أمها للمشاركة في شهادة بالمحكمة الشرعية؛ جاءت استجابتي إليه رغم عدم معرفتي بالموضوع، لما أكملنا الإجراءات أوصلتها وابنها الفتى وابنتها الثالثة للمنزل.

لأجد في المقعد الخلفي للسيارة بعد قضاء جزء من الليل؛ مع الأصدقاء في المقهى، محفظة يد صغيرة، تضم شريط فيديو. ومجموعة صور لحفل الزواج. وقلم روج. ونقود ورقية، كان الشريط تسجيلًا للحفل تنتصب مع زوجها في الكوشة: والجميع يتحرك ويرقص، وجاء صوتها في العاشرة صباحًا وأنا في العمل؛ عرفت إنها الابنة الثالثة: تسألني هل شاهدت الشريط وتفحصت الصور؛ ثم قالت: أنا صاحبة الفستان الأحمر والشعر المتجعد قلت: أبرعهم بالرقص وأكثرهم لفظًا قالت: وخطيبي أيضًا رقص وعازف عود بارع وزواجي في الصيف.

طلبت مني إعادة الصور والشريط وإنما تنتظري بعد العشاء خلف باب المنزل، ترددت وقررت اخذ بعض الصور كذكرى أوقفت سيارتي في شارع محاذ لشارع المنزل، اقتربت من الباب الموارب دفعته ودخلت العتمة تلف المكان ليصلنا صوت أفراد في الدرج، فتحت باب جانبي وسحبتي خلفها وفي ظلام المكان همست بالسكون وعدم القلق ومعها شعرت بأنها تجري لمغامرة لم أرتب لها.

تفجرت اللحظة شعرت إنها اعتادت المداعبة ولثم عنقها لم يقلقها التصاقها قالت: وقد تخلصت من نزقي. خطيبي رسم معالم جسدي قبل كتابة كتابنا؛ ولما تمت الكتابة لم اشعر بطعم لوجوده غير انه لن يتوقف هنا فكلي له، تكرر اتصالها لطلب العون في تأمين تجهيز حفل زواجها ولما رحلت جاء اتصالها من مدينة في الشمال الغربي حيث يعمل زوجها العسكري.

بعد عدة أشهر جاء اتصال الأخت الكبرى: تسعى لتسجيل ابنتها في المدرسة الابتدائية، بعد فشلها في قبول أوراقها بالمدرسة التي تعمل بها، فكان أن اتفقنا بعد أخذها لمراجعة إدارة التربية والتعليم وقد وعدني أحد مسؤولي التعليم بالمساعدة مع بداية العام الدراسي؛ إن السن لا يسمح ولكن في التمهيدي.

كانت العاشرة صباحًا لما أوصلتها لمقر عملها عرفت أنها لم تتناول إفطارها فتوجهنا لمطعم لم نجد الإفطار المطلوب، فاتجهنا شمالًا خارج المدينة وفي محطة محروقات تضم مطعمًا وغرف مسافرين بضاحية العرفاء، ومع الحلم الخافق الذي لم يكن لي؛ تجاوزت أفكار القديمة ففقدنا كل شيء؛ كانت تقاوم في استسلام غبطة العطاء ولما عدنا قالت: ويلى أنا المسكينة، كنت صغيرة أتدحرج كحبة خردل، ولقد كنت العاصفة الهوجاء التي اقتلعت أشجاري: ترحلت عند باب مدرستها.

قررت الرحيل: إذ لم يتبقى لي عذر بعد وفاة والدي؛ الوتد الذي كنت اعلق فيه وبه كل أفعالي وقناعتي بما أنا عليه فهي القربان والفداء وسيدة الحب الإنساني، ورمز الوفاء وقد رفضت مطلب من حولها طلب الطلاق من زوجها الغائب منتظره أوبته سالماً، خالي زوج كل بناته العشر واستثنائي في الاختيار؛ خالي الثاني حاصر ما تبقى لي من ارث في منزل أشارك والدي تملكه لسكنى ابنه المقعد، خالي رفضت استقبالي بعدما خالفتها في مكان تقبل العزاء في والدي، أسرة والدي الذي اختفى وأنا في العاشرة والمقيمة في قرية شرق مدينة الطائف نسيت اسمها، لم تهتم بحالي.

حطت رحالي في مدينة الزلفي الساكنة وسط الرمال، ضائع في زمن تنساب دقائقه رغم الامتلاء أجدها في حالي فارغة؛ وبينما أنا في مكتبي أغلب النوم وأقاوم الفراغ رن الهاتف كان مدير القسم لما دخلت غرفته سألني عن معرفتي ببعض الأسر في مدينتي القديمة، وذكرني بالأخوات الثلاث قال انه زوج الرابعة وان أمها هنا وتريد مقابلي، جاءت الأم للزيارة ومراجعة أحد المستشفيات حيث تعمل ابنتها الرابعة أخصائية تغذية.

وأنا عائد لسكني: شعرت إن سوء الحظ يلاحقني فقررت الرحيل طلبت إجازة خمسة أيام؛ راجعت المركز الرئيس بالرياض طالبا النقل إلى الرياض؛ ولما انتهت أيام الإجازة عدت للعمل، كان المدير مسافراً ليأتي اتصال الأم من الطائف: أنها مرهقة وبنوء كاهلها بالهموم بعد موت أبو عيالها، وعودة ابنها الغائب ثمان سنوات والمسافر للدراسة في أمريكا أبعثتها وان كان خالي الوفاض، ووجد عملاً في شركة سيارات بجده، وأنها ترى انتقالها إلى جده التي يدرس ابنها الأصغر في جامعتها. وان ابنتها الصغرى والتي رزقت بابنها الأول منذ يومين تسأل عني، لم اهتم بكل هذه الأخبار ولكن ليأتي اتصال البنت الرابعة: صوتها المتوتر. دائماً كان حاد وقلق؛ وأنها تنتظري في التاسعة صباحاً أمام قسم العيادات الخارجية للمستشفى الذي تعمل به.

عرفت إن لها ابنة وحيدة ألققتها بروضة أهلية تابعة للمستشفى، وان زوجها في رحلة عمل لمدة ثلاثة أيام في الرياض؛ وأنها تشعر إنها بحاجة لبعض المعلومات عن سباب طلاق أختها الكبرى بعد إشاعة إن زوجها اكتشف علاقتهما، وفي أثناء الحديث عرفت أن الزوج وجدها في غرفة الجلوس مع أحد سكان العمارة من جنسية أسيوية يعمل فني في شركة الكهرباء بعد عودته المفاجئة صباح يوم الجمعة، هنا قلت: وأنت.. أغمضت عينيها؛ شعرت أنه علي قبل أن أنفذ تعمييد النقل الذي استلمته بالأمس وتكون نهايتي في مدينة أخرى،

شرب ماءها فكان أن اتجهت إلى منزلها اعرف إن ابنتها الآن في الروضة. وان زوجها مسافر. وان عاملة المنزل المشغلة بمهامها لن يقلقها حضوري.

لم اهتم بارتباكها أوقفت السيارة أمام مدخل المنزل ووقفت بجوارها وهي تفتح قفل الباب سرت معها للدخل، كان حراك الخادمة يصل من المطبخ؛ هاجس اللحظة فتح باب الاطمئنان فشعرت بالسكينة التي معها انكشف الحجاب، جسدها الأجل بين أخواتها بيضاء مائلة للشقرة رشيقة القوام، كانت وهي تتوقى تساقطي تنتفض كمن به مس تحلب عرقها ويتغير لونها أخذت تبكي بينما أسراب طير النورس تحلق؛ تركتها تلملم ذاتها المبعثرة. وترتق شق مسافة متاهة المجاز التي أضاعت فيه ظلها، وجدت العاملة السمراء تنظف إحدى نوافذ صالة الجلوس من بقايا الغبار الذي اجتاح المدينة بعد منتصف الليل: تابعني بنظرها حتى أغلقت الباب.



نهاية الحلم

جاء اتصال رابعة في التاسعة صباحا تخبرني انها استأذنت من العمل وفي انتظاري؛ وأنا أكمل مسوغات صرف حقوق مراجع نفذ عقد عمل نقل طلاب هجرة نائية إلى مدرسة قروية بالمكتب؛ تطلب مساعدتها في ترحيل خادمتها التي اكتملت إجراءات سفرها عبر مطار جده؛ أكملت أوراق المراجع واستأذنت من رئيس القسم الذي اعلم فيه متجاوزا فزعي وضعفي ناسيا نوبات الضياع.

وجدتها تنتظر مع ابنتها فينوس ذات السنوات التسع وعاملة المنزل ولما أغلقنا أبواب السيارة وأدرت المحرك تذكرت محفظتها التي بها جواز سفر العاملة وبطاقة الطائرة أوقفت المحرك؛ ورافقتها بالمصعد جاءت البداية ملامسة عبثية وبعد إغلاق باب الشقة وجدتها كما المن والسلوى؛ الوالدة التي كانت تنتظرنا بمنزل الأسرة جلست بالمقعد الأمامي بجواري وفينوس بيننا والخادمة خلفي وهي خلف والدتها؛ شعرت آن علي استخدام كمية معينة من العقل والانفصال عن العالم الحسي والاندغام في الوهم؛ لكن ما كان أكثر سوءا هو إنني كنت أتصنع البراءة، ولما اجتزنا طريق جبال الهدى وبدت معالم مكة.

قالت الأم (لو سمحت من طريق الخواجات مور فيوز غير مسلمة) في مرآة السيارة كانت مور تحديق في مبتسمة؛ وامتد معه طريق الخواجات لتستقر فينوس في حضني لمشاركتي قيادة السيارة؛ كانت هائلة في العمق الرمادي الصامت وتورق التفاصيل ندفع الغيمة لانهمار الرغبة التي نحت ذاتيين إلى واحد؛ شعرت بالانتشاء من رائحتها التي أشعلت النار والمشاعر أدركت ذلك فطبعت قبلة على خدي معها (قالت الأم عيب يابت خلي عمك يشوف الطريق).

ونحن ندخل جده قالت رابعة (ممكن توصل أمي لبيت خالتي تترتاح فيه حتى تسافر ميربي) لما ترجلت الأم قررت فينوس مرافقتها آخذة معها الرائحة الطيبة وتوسل مغفرة أمطرت الحميمة التي لا أذكرها؛ معه انتقلت رابعة للجلوس بالمقعد المجاور مكان أمها، وفي الطريق اقترحت أن نتناول الغداء في فندق العطاس بأبجر مع ابتسامة فيوز التي وجدتها في المرأة أمامي فتوقفت عن النقاش وأنا اتجه لأبجر.

وثلاثتنا نتناول غداء سمك بمطعم الفندق اقترحت استئجار غرفة للراحة والخصوصية فلم تعترض رابعة؛ تأخرت في المقهى أتناول وجبتي اليومية من الجراك المعطر وأمواج البحر تتدافع أمامي؛ توقفت عند اللحظة الحاضرة إلى درجة موجهة فراغ حياة داخلية منغلقة كلياً على نفسي القلقة غير أن رابعة فتحت ثغرة في هذه السكينة معها كانت التساؤلات فجاء الاضطراب وحلقت في الفضاء علامة استفهام، معها جاءت مور فيوس لتخبرني إن موعد رحلتها أرف.

بعد إكمال فحوصات أوراق السفر ودفع رسوم زيادة وزن العفش انتظرت دخولها صالة المغادرة ولما اختفت عدت لسيارتي واتجهت للفندق؛ قررت شرب براد من الشاي فدخلت المقهى انتصبت أمامي الطاولة والشيشة التي مزمت شيء من عقبها شديني المشهد للجلوس واحضر النادل براد الشاي ورأس جراك جديد.

مع أذان المغرب سعدت للدور الثاني بالفندق متجهاً إلى الغرفة التي استأجرت، قرعت الباب أكثر من مرة مما لفت نظر عامل النظافة الذي جاء وقال (بابا ما فيه أحد الغرفة فاضيه) وفتح الباب لم يكن هناك أحد.



المتاهة المقسمة

بعد ثلاثة عقود جاء الرد بزواج ابنه من حفيذة خالته؛ التي تسبب رفضها تزويجه إحدى بناتها لفقره ويتمه وعلو نسب أسرة زوجها في موت والدته، جاء الحفل مبهجا رفض الدخول مع العريس قسم النساء وغادر القاعة؛ دخل منزله لم يكن هناك أحد جلس على أحد مقاعد صالة الجلوس وانخرط في البكاء.



ولكن

هذه الليلة لم يفتح الباب، وفي الليلة الثانية تعالت الموسيقى وعبرت الأضواء الباب، ولما دخلت لم يكن هناك باب ولم تكن هناك الموسيقى ولم تكن هناك الأضواء، إنما سيارة شرطة.



العشاء الأخير

طلب مني أخي العمل خادما في منزل مديره الجديد أصب القهوة للضيوف، وامن طلبات الدار، وذات يوم جاء شقيق الرجل الذي اعمل عنده في طريقه للدراسة بالخارج ليجدي فريسة سهلة ينشغل في تمزيقها، الخوف والسطوة التي فرضتها اللحظة كانت معه؛ ومن هنا جاء صمتي الذي معه شعرت إني هلام.

وفي يوم كانت بمنزل المدير حالة طارئة فرضها حضور والدته للإقامة عنده، فكلفت بتأثيث غرفتها ومعه تناما غم في داخلي معه تصيب عرقي وارتعاش أطرافي، عرفت إنها لاحظت تهيجي فجلست على طرف الفراش، وأخذت تناقشني فيما لمحتة.

لم يلاحظ أحد دخولي غرفة الأم التي وجدت فيما يشعرها بالحياة، ولما سافرت للجلوس مع ابنتها التي جاءت ولادتها بعملية قيصرية؛ دست في كفي بعض النقود ومفتاح الغرفة.

بعد عصر يوم ماطر وقد أكملت تنظيف غرفة الأم تمددت في الفراش، واستغرقت في النوم لأتنبه على زوجة المدير تقف على رأسي فطوقني الرعب، زكمت انفي رائحة العطر فلم أقاوم رغبتها.

بقيت في الفراش أسترجع ما حدث وأنا أجمع أطرافي المتناثرة؛ وأنا أغلق باب الغرفة تردد اسمي بين الجدران، تتبعته كانت الأم تجلس على أحد مقاعد طاولة الأكل بالمطبخ؛ أشارت للكرسي المقابل حتى اجلس وأشاركها العشاء.



الحضور

غرقت حتى أذني بشؤونها أثناء حديث الأصدقاء في المقهى؛ وفي الثانية صباحا كانت تلوح بكفها لتشاركني بقية الطريق؛ وأنا افتح باب المنزل تلفت حولي فلم أجدها.



الريـح

كنت مشغلا بخفة ما أرى حولي، عندما أمسكت بكفي لأصعد معها درج الريح، صدمني السكون وأنا اشعر
بوجعي، ففقدت توازني فإذا بي أسقط بين يدي الهباء.



صدر للقاص عبر دار بسملة للفنشر الإلكتروني:

1 - البحث عن ابتسامة / قصص قصيرة.

2 - الانحدار / قصص قصيرة.

3 - فرشة إله الرعد/ قصص قصيرة.



عن دار بسملة للنشر الإلكتروني

دار مغربية، رقمية، تأسست في 2017



دار بسملة للنشر الإلكتروني. من أهدافها مساعدة الشباب المغاربة والعرب على نشر إبداعاتهم، وإيصال أصواتهم وتغريداتهم إلى العالم كله. كما تطمح لاكتساح عالم النشر الإلكتروني في كل الأقطار العربية..

كما أننا -في محاولة منا لتغذية شريان الثقافة- نسترشد بالضمير الحي من أجل نشر المحتوى الثمين، حاملين على كواهلنا رسالة التنوير الحقيقي، ومدركين كل الإدراك

لقيمة القلم النبيلة، لذلك كنا حريصين على نشر كل ما هو قيّم. في دار بسملة للنشر الإلكتروني نساند المؤلفين وندعمهم لإيصال إبداعاتهم لملايين من القراء، ونرشدهم إلى آليات فنية تعينهم على تحسين أساليب الكتابة والإبداع. وتقريبا لهذه الغاية تقوم الدار بتنظيم مسابقات متعدّدة، والإشراف عليها مجانا من أجل اكتشاف المواهب الشابة التي تستحق أن تُنشر أعمالها بين القراء والمثقفين، وذلك تشجيعا لهم على الاستمرارية في الكتابة الإبداع.



المحتويات

5	في البدء
7	الخرثاء
16	إذا كنت
21	البيجة
24	النضناضة
28	وأنا
33	الشاعر
40	العرجاء
44	الخلاص
46	الفندق
50	الطيبة
56	العائد
58	سمية
69	أسكت يا الخبل
70	السور والكتب

78	صائد المسافرين
85	فسيفساء
86	فرشاة إله الرعد
91	المكيدة
92	الباب
93	الدوام انتهى
94	تربص
95	خروف العيد
96	كم هي الكرة الأرضية صغيرة
104	المتاهة
105	الحلم
106	مناجاة
107	استبداد اللحظة
109	الأخت الثالثة
110	الركض عبر أزقة الزمن
122	شذرة
124	متأكلا بالصمت
126	البقاء على مقربة
129	سبات عميق
137	الحكاية

139	الرقص في الوقت الضائع
148	الفناء شعور لا يعرف
150	النسناس
153	الواهن
154	تحليق اشرة منشورة
155	تمزق انسان مطلق
156	طوايا نفس
157	في المرأة وجه يجهش بالبكاء
159	نداء يزداد ثقلا
160	إدراك أكثر وضوحا
163	اعتراف بأمر يخصني وحدي
165	الحكاية تخدع الصنم
168	سفرُ الزهور الصفراء
172	عاطفة
173	كولاج
174	الممثلة تقفز من النافذة
176	جموح حدث الوقت
179	الفضول يغير المعالم
182	الريح
183	الجرح ينزف عطرا

185	الحنق.....
186	المنزل تسكنه الرغبة.....
188	متعاون
189	المهيم
191	السحاب يبسط ذراعيه.....
193	أعياد.....
194	حواس انطباع غامض.....
196	صوت.....
197	بيت الجدة.....
198	ريح رمادية
199	موجة ضباب داكنة.....
200	عندما نتذكر الأشكال العادية.....
201	سيمفونية ليلة وداع
204	انثيال رشة نور.....
206	ترحل لحظات لا لون لها
210	ضغث نبات متسلق.....
213	النفق.....
214	اللوحه الأخيرة.....
215	القدرة على السيطرة
216	بعد

217	أيام الانتظار
220	نبته الشيطان
221	السائق
226	العتبة
227	ولكن لا تسألوني
228	الجاوية
229	فينوس
230	الحارس
232	الفراشة
235	فأر التجارب
241	ثقافة
242	إفراج
243	خديعة
244	زهرة الدفلى
245	يوم جمعة
246	الخلود
248	البئر المظلمة
250	الجحيم
251	حدس
252	تفحم

253	عُمَرَ
254	خبيبة
255	دعوة عجوز
256	تداعيات أنثى تصالحت مع جسدها
258	الثالثة
260	وشم
261	ممثله
262	سمكة
263	شجن
264	إشراق
265	نخاسة
266	اتصال
267	اللفافة
268	الميت
269	عناصر
270	أدم التعس
271	حواء التفاحة
273	قوس قزح
274	الشمعدان
275	العافر

276	إدراك
277	حكاية نرجس
279	فاطمة
281	الغرفة 813
282	التي قالت أنا!
283	الجميلة
284	استشارة
285	جرح
286	حدث في حي الشرقية
287	لم يعد بالبيت أحد!
289	التيه
290	ببساطة
291	سر العين
296	قواقع الجزر المهجورة
298	النفس الضالة
299	أيها السرمدي لا تقاوم الصحراء
300	ضل خلف الزجاج
301	لهد
302	ولادة أخرى تستدعي البكاء
305	غضب

306	نقاط تحول دفععتني للتوقف
309	السلوان
310	رفقه
311	اليأس
312	الجد مور
313	المتأنقة
316	ملهاة
317	انبعاث الذاكرة
319	غضف
320	أجساد عفنة
321	شفرة الكون
322	ثمالة زمن
323	عندما غاب الأفق
324	نزف حلم
325	فتنة الأصدقاء
326	طائر الفردوس
330	خطوط قوس قزح
332	السائق الياس
335	السقوط
336	المسيح

337	خطوة
338	تلبس
339	رخص
340	لما عصف اللهب
341	مشاركة
342	المسطح
343	خيانة الغيم
344	التصحر
345	الجدار الفاصل
347	عندما أكلت حواء التفاحة
348	المذبح
349	هذا الفصل لم أكتبه
350	قشعريرة يقظة
351	تصرف مشين
352	تراكم الثلوج
353	الراوند
354	غبش
355	عصف
356	هذيان
357	ابتسامه

358	ألق
359	المتاهة
360	جلنار
361	ترحل لحظات لا لون لها
365	نهایة الحلم
367	المتاهة المقدسة
368	ولكن
369	العشاء الأخير
370	الحضور
371	الريح
372	صدر للقاص عبر دار بسمة للنشر الإلكتروني:
374	المحتويات



يضم هذا الإصدار قصص:

- 1 - **مجموعة (فرشاة إله الرعد)** الطبعة الورقية / دار النابعة للنشر والتوزيع 1435 - 2014 الإسكندرية.
- 2 - **مجموعة (الفناء شعور لا يعرف)** الطبعة الورقية / دار النابعة للنشر والتوزيع 1435 - 2014 الإسكندرية.
- 3 - **مجموعة (النسخة الأولى)** الطبعة الورقية / نادي الطائف الأدبي 1432 - 2011 الطائف.
- 4 - **مجموعة (تداعيات أنثى تصالحت مع جسدها)** الطبعة الورقية / نادي مكة الثقافي الأدبي 1436 - 2015 مكة المكرمة.
- 5 - **مجموعة (حدث في حي الشرقية)** الطبعة الورقية / مؤسسة تحيا مصر وجروب القصة القصيرة جدا في المختبر بالفيس بوك 1437 - 2016 الإسكندرية.
- 6 - **مجموعة (أيها السرمدي لا تقاوم الصحراء)** الطبعة الورقية / النادي الأدبي الثقافي في حائل 1438 - 2016 حائل.



محمد للنصور الشقحاء

فرشاة إله الرعد



دار بسمة للنشر الإلكتروني

+212 771 814 934

basma24design@gmail.com

دار بسمة للنشر الإلكتروني

www.darbassma.com